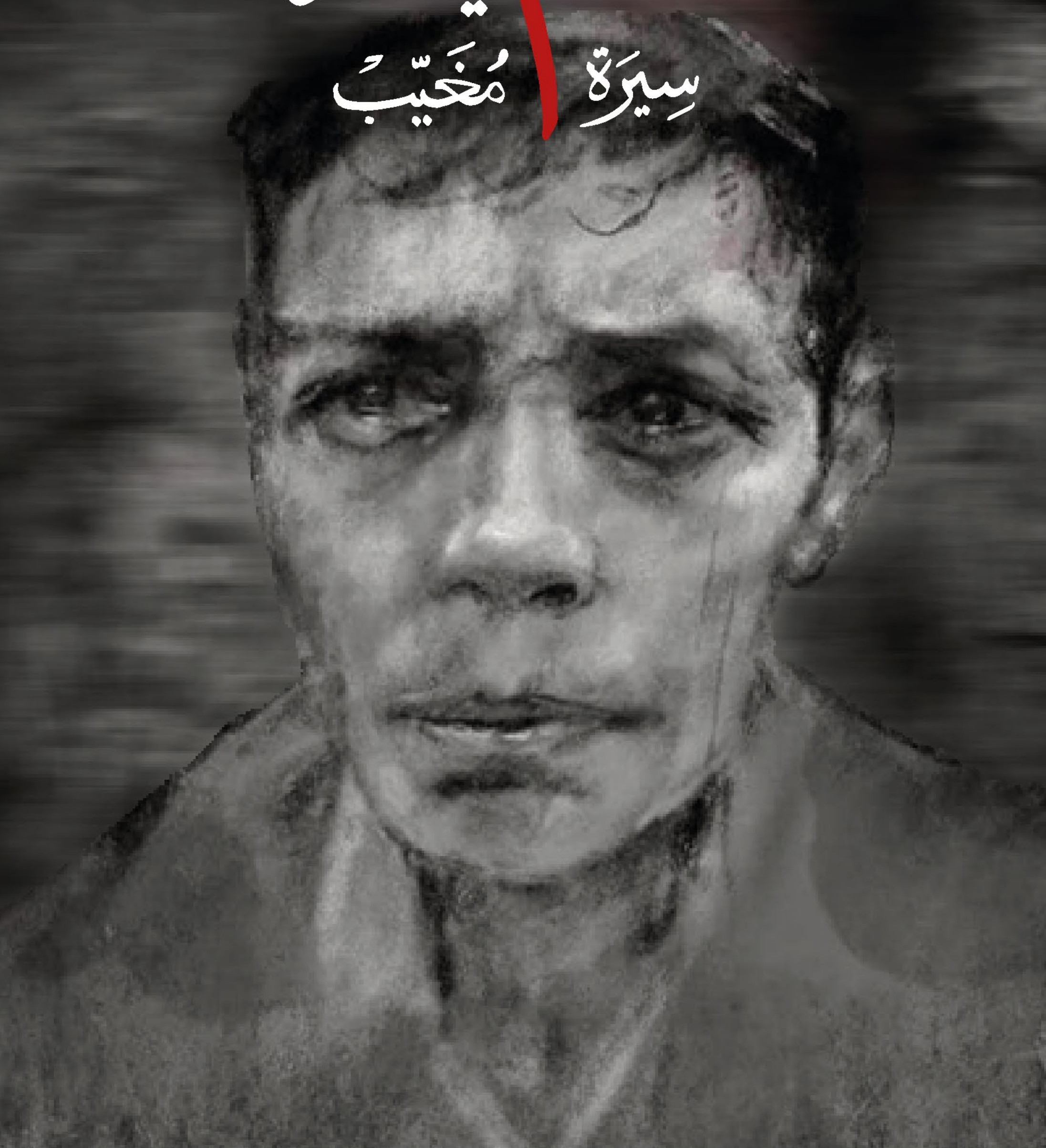
غارانس لوكان
Garance Le Caisne

مازن الحمادة
Mazen al-Hamada

لم يَعُد معنا

سِيرَة مُغَيَّب



دار الجديد
Dar al Jadeed

غارانس لوكان
Garance Le Caisne

مازن الحمادة
Mazen al-Hamada

لم يعد معنا
سيرة مُغيّب

دار الجديد
Dar al Jadeed

Dar al Jadeed | دَارالجَـديْد
فيلا محسـن سليــم | حارة حـريك | جبل لبنان
daraljadeedbeirut@gmail.com
w.w.w.dar-al-Jadeed.com

صدر هذا الكتــاب بطبعته الفرنسيّــة بعنــوان:
Oublie ton nom
الطبعة اللبنانيـة الأولى، ٢٠٢٤
تعريب: قلم دار الجديد |
لوحة الغلاف بريشة: مارك نلسون | Marc Nelson©
التّدقيق: الشيخ وليد بومهــدي
الخطوط: الأستـاذ علي عاصـي
الإخراج: نـــــور حـمــداش
أيـادٍ بيضـاء: يـاسر الزيّـات | خليـل عيسى |
ثريّـا فيّـاض | محمــد أمـير نـاشر النّعـم |
مؤسّســـة لقــمان سليـــم
أضفنا هذه الإشارة ⁘ كلّما كتبت غارانس لوكان بالأصالة عن نفسها.
ترقيم دولي: 978-9953-11-258-9
Cet ouvrage a bénéficié du soutien du Programme d’aide à la publication de l’Institut français.

لكَ،

لعائلتك الصّغيرة، لِلرَّبع،

الكلُّ ينتظرك.

وُلدتُ مثقوبًا

تهبُّ رياحٌ عاتية

تتركُ ثُقبًا صغيرًا في صدري،

تهبُّ رياحٌ عاتية [...]

الرّياحُ تصْفِرُ ثمّ يحلّ الصّمت

هي لعنة الصّمت تلفُّ الأرضَ ومَن عليها:

الحضارة والكائنات

والكواكب.

الثُّقب عميقٌ،

لا شكل له

الكلماتُ لا تعثرُ عليه،

تلوب حوله.

[...]

لا علاج. لا علاج.

هنري ميشو | الإكوادور.

تَحمِلُ حزنها مُذ حملتْ في اللّيل

جثمان شقيقتها. هي ليلةٌ ليلاء

هلْ مَن عادَ مِنها حيٌّ فعلًا؟

شارلوت دلبو | الذّاكرة والأيّام.

مدخل

ودِدتُ يا مازن كتابةَ هذا الكتاب معكَ.

أولُ لقـاء لنـا كان بدايـة عـام ٢٠١٥ في باريـس، عندمـا وافقـتَ عـلى الإدلاء بشـهادتك عـلى كتـابي الأوّل عـن آلـة المـوت السـوريّة. أيّامـذاك تعرّفـتُ إلى مـازن الحُـمادة: لاجـئ سـوريّ في الثّامنـة والثّلاثـين، يعيـشُ في هولنـدا منـذ عـامٍ. أدْلَى علنًـا بشـهادته عـلى مـا ترتكبـه أجهـزة مخابـرات النّظـام مـن تعذيـبٍ لمعارضيهـا.

هـو فنّـيٌّ سـابق في شركـة نفـط في شـمال شرق البـلاد. قُبـضَ عليـه بتهمـة نقـل حليـبٍ لأطفـالٍ يعيشـون في حـيٍّ محـاصَر. احتُجـز مـدّة خمسـةَ عـشرَ شـهرًا، بـين آذار ٢٠١٢ وحزيـران ٢٠١٣، في زنزانـة أجهـزة اسـتخبارات القـوّات الجوّيّـة في دمشـق، ثـمّ في سـجنٍ مـدنيٍّ ثلاثـة أشـهر أخـرى، قبـل أن يُخـلى سـبيلُه ويتمكّـنَ مـن الفـرار عـام ٢٠١٤.

حـين أدلى بـأوّل شـهادة لـه، كان قلـق الغـرب بشـأن وحشـيّة تنظيـم الدّولـة الإسـلاميّة، تلـك الّتـي بلغَـت هجماتُهـا أوروبـا، أكـثر بكثـيرٍ مـن اكتراثـه لإرهـابٍ مارسـه نظـام بشّـار الأسـد عـلى شـعبه. فالجرائـم التـي ارتكبهـا هـذا الرّئيـس بحـقّ شـعبه لم تكـن لِتحظـى باهتـمام يُذكـر.

مـع ذلـك، وبـلا كلـلٍ، كان مـازن يُسـهبُ في سرد الروايـات كلّـما سـنحت لـه الفرصـة، مؤثّـرًا في كلّ مَـن اسـتمع إليـه، وهـو يُعيـد تصويـر الإسـاءات التـي تَعـرّض لهـا. تخلّلـت مداخلاتِـه لحظـاتُ صمـتٍ، تحدَّثَـت فيهـا نظراتـه وجسـده. كان يروي بأسـلوبٍ مكشـوفٍ وبـلا مواربـة، إذ أقْسَـم هـذا الثَّـوريُّ السّـابق أن يشـهد لعـشرات آلاف المسـجونين عـلى ظـروف اعتقالهـم غـير الإنسـانيّة. تشـبّث «النّاجـي»

بِـ«ذكريـات الوجـع» قائـلًا: «لقـد دمّـروا ذاكرتنـا، بَيْـدَ أنّنـي أَسـتمدّ قـوّتي مـن ذاكـرة وجعـي». هـذا مـا صرّح بـه لاحقًا، وهـذا مـا احتفظنا بـه ـ نحـن الإعلاميِّين والمدافعـين عـن حقـوق الإنسـان والسياسّـيين ـ .

إنّ حديـث نصـف سـاعةٍ أو سـاعةٍ إلى رجـلٍ ابتكـر هـذه الجملـة، لم يكـن كافيًـا في عُـرفي. فـما تختزنـه هـذه الجملـة هـو قصّـة حيـاة، وذكريـات، وذاكـرة، وحنـين، وقصّـة بلـد.

مـازن هـو ابـن ديـر الـزّور. وهـي مدينـة نائيـة في شـمال شرق سـوريا، لم تُبـالِ سـلطةُ دمشـق بهـا. إن اسـتثنَيْنا المثقَّفـينَ والطّـلاب والنّاشـطين، ونُخَـبَ العاصمـة، فـإنّ ثـورة ٢٠١١ هـي أيضًـا ثـورة السّـوريّين «العاديّـين»، الّذيـن لم يكـن يُحسَـب لهـم حسـاب. «أراد لنـا النّظـام أن نبقـى جاهلـين»، و«برجوازيّـو دمشـق»، اعتبرونـا «فلّاحـين». عـدّةَ مـرّاتٍ خـلال مقابلاتنـا، كان مـازن ينفعـل ويكـرّر بمـرارة هـذه الفكرة. فالسّـوريّون، بعـد سـيطرتهم عـلى الشّـارع، وبعـد أن انتزعـوا أمـلًا في التّغيـير، فقَـدوا ـ تقريبًـا ـ كلَّ شيء. فالعائـلات مشـتَّتة اليـوم، ومهجّـرة، دُمِّـرت منازلهـا، وكثـير مـن الأحِبّـاء في عـداد المفقوديـن.

مـازن ـ عـلى حـدّ تعبـيره ـ «نمـوذج» يمثّـل هـذه الفئـة. كان لا بـدَّ مـن المحافظـة عـلى كلماتـه، وضحكاتـه، ونوبـات غضبـه، مـن أجلـه، ومـن أجـل شـعبه، ومـن أجـل العـالم. لـذا، قرّرنـا أن نكتـب معًـا كتابًـا. وفي عامَـيْ ٢٠١٧ و٢٠١٨ انطلقنـا في هـذه المغامـرة مـع صديقـة قديمـة، الشّـاعرة عائشـة أرنـاؤوط، التـي قامـت بالتّرجمـة. لهجـة الدّيـر مميّـزة. قضينـا أيّامًـا طويلـة نسـتمع فيهـا إلى مـازن، في شـقّة عائشـة الباريسـيّة، وفي منزلـه في قريـة هيلغـوم الهولنديّـة، وفي مزرعـةٍ قديمـةٍ في ريـف النّورمانـدي.

كانـت قصّـة مـازن في كثـير مـن الأحيـان مفكّكـة، ومتأرجحـة بـين

ذهـابٍ وإيـابٍ، وفوضويّـة. فهـذا رجـلٌ محطّـمٌ، عُـذّب وجُـرّد مـن إنسـانيّته. ليـس دقيقًـا في التَّواريـخ. كنّـا نسـأله العـودة إلى سـنوات خَلَـتْ كي يفتّـش في ذكرياتـه: مشـاعره، والرّوائـح، والألم؛ أمَّـا الحنـين إلى الفـرات فهـو مـا كان يطفـو دومًـا.

شـارلوت دلبـو، وفـارلام شـالاموف، وبريمو ليفـي، وجوليـوس مارجولين، وخورخــي سـيمبرون، وآخــرون، رافقــوا ـ سرًّا ـ مـا بــاح بــه. فَهُــم يشــهدون للإنسـانيّة وبـلا ريـبٍ عـلى معسـكرات الاعتقـال النّازيّـة، ومعسـكرات العمـل السّـوفياتيّة. شـيئًا فشـيئًا شـعرتُ بـأنّ شـهادته عـن الهاويـة سـتجد مكانًـا لهـا في أدب معسـكرات الاعتقـال. ضحكنـا عندمـا قـال لنـا ـ بـين سـخريةٍ وجِـدٍّ: «أنـا ابـن البلـد... أنـا يقِـظٌ دومًـا... أنـا منطقـيّ...». شـعرنا منـذ شـهادته الأولى بأهمّيّـة قصّتـه، فهـي مزيـجٌ جـذّابٌ مـن خطـورةٍ وسـخريةٍ ولامعقـولٍ. قصّـةٌ جارفـةٌ مـن الصَّعـب نسـيانها.

ونحـن نسـجّل معـه، واصـل مـازن جولاتـه في مـدنٍ أوروبيّـةٍ وأميركيّـةٍ متحدّثًـا عـمّا عاشـه وعانـاه. فبعـد كلّ رحلـةٍ كان يعـود مكتئبًـا، متيقّنًـا أنّ مَـن يسُـوس العـالم لـن يحـرّك سـاكنًا. انتابَتْـه نوبـات مـن الغضـب والضّغينـة، لأنّـه فقَـدَ عائلتـه في ديـر الـزّور، وفقَـدَ وطنـه. هـو صغـيرُ عشـيرتِه المكوَّنـة مـن ثمانيـةَ عـشرَ أخًـا وأختًـا، التـي شـتّتَتْها الحـروب والمنـافي والمخـاوف و... المـوت.

صـار محكومًـا عليـه بالعزلـة، ودميـةً تحرّكهـا أَيادٍ حسَـنةُ النِّيَّة، تسـعى للتّنديـد بالهمجيّـة. صـار ضائعًـا. رفَـض مـا اقـتُرِح عليـه مـن علاجـاتٍ نفسـيّةٍ حـين تكاثـرت نوبـات عنفـه اللّفظـيّ، ولم أَعُـدْ أَعـرف مـا العمـل معـه... وهـو في هاويتـه، أوقَفْنـا مـشروع الكتـاب.

شـعرنا بـأنّ مـا خطّطنـا لـه قـد سـقط، وانشـغلنا بأُمـورٍ أُخـرى أَبعدَتنا

عـن مـازن. عندمـا علِمْنـا في أحـد أيّـام شـهر فبرايـر ٢٠٢٠ أنّـه قـد عـاد إلى دمشـق، شـعرنا بالذّنـب. فَـوْرَ وصولـه، اعتقلتـه المخابـرات الجوّيّة، واختفـى مـرّةً أُخـرى في إحـدى الزنازيـن السّرّيّـة التّابعـة لهـا. صحيـحٌ أنّ دوِيّ الحـربِ قـد همـد في أغلـب المناطـق، لكـنّ نظـام دمشـق واصـل الاعتقـالات والتّعذيـب والتّغييـب؛ أي إنّ الحـرب المعلنـة ضـدّ النّـاس مسـتمرّة.

مـازن الحُـمادة في دمشـق. مأسـاةٌ عصيّـة عـلى الفهـم... مـاذا لـو...؟ مـاذا لـو كتبنـا هـذا الكتـاب، ولـو كان...؟

كلماتــه المســجّلة، وابتســاماته، ودموعــه، وتــذكار قامتِــه النّحيلــة ذاتِ الكتفَـيْن البارزتَـيْن، ويدَيْـه الطّويلتَـيْن الكثـيرَتَي الحركـة، وخدَّيْـه الأجوفَـيْن، ونظرتِـه، نعـم، نظرتـه الخاليـة مـن الأمـل، كُلُّهـا بقيـت معـي ثـلاثَ سـنواتٍ في صنـدوقٍ مـن الـورق المقـوّى، معلّقـةً مُعَذِّبـة. كالرفيـق المُخْلـص، ظلّـت معـي كلُّ هـذه الصُّـوَر. لا سـبيل إلى تركهـا تتـلاشى في غياهـب النّسـيان. ولكـن، هـل أَسـتطيع أَن أَنـوب عنـه؟

بعثـتُ برسـالةٍ إلى شـقيقه الأكـبر أبـو الجود، الحـاضر دومًـا في أحاديثه. يَسـاريٌّ، رفيـق سـفر الشّـيوعيّ ريـاض الـتّرك منـذ زمـنٍ طويـلٍ، أَشـهَرُ مُعـارضي البـلاد الّـذي اضطُـرّ إلى المغـادرة إلى منفـاه الباريـسيّ، وهـو في الثّامنـةِ والثّمانـين في عـام ٢٠١٨، بعـد ثمانيـةَ عـشرَ عامًـا أمضاهـا في السّـجن، حيـث اعتُقـل في ثمانينيّـات القـرن المـاضي، ثـمّ هـام سـنواتٍ شريـدًا فـارًّا مـن وجـه سـجّانيه.

أبـو الجـود يعيـش طريـدًا أيضًـا في سـوريا. وصلنـي جـوابٌ منـه فـاق توقّعاتي:

«إنّ اهتمامـكِ بقصّـة مـازن بوصفـه أحـد المشـاركين في الثّورة السّـوريّة المجيـدة، كان لـه تأثـير فِيَّ وفي عائلتـي لا يمكنـكِ تخيّلُـه! أخـيرًا تنبّـه

شـخصٌ عـلى وجـه هـذا الكوكـب اللّعـين، وقـرّر الاعـتراف بجُثثِنـا، وتقديـر دمائنـا، والشّـعور بإنسـانيّتنا[...] مـازن أَصغـر إِخـوتي. بدافـع الحـبّ، كان والـدي وجميـع أفـراد الأسرة يدلّلونـه. وقـد اسـتمرَرْنا في هـذا المنـوال نـزولًا عنـد رغبـة كبـير العائلـة؛ مـا جعـل منـه إنسـانًا هشًّـا وشـديد الحساسـيّة. مـا تَحمّلَـه مـن تعذيـبٍ وفظائـعَ وأَهـوالٍ وهـو نزيـلُ السّـجن يفُـوق كلّ احتـمال، قياسًـا عـلى صغـر عمـره، وقلّـة تجاربـه...».

مازن لم يَعُدْ معنا... لا مفرّ إذًا من الكتابة.

هـذا الكتـاب ليـس تحقيقًـا. فلسـتُ في وارد التّفتيـش في تفاصيـل حياتـه وتصرّفاتـه وسـاعاته الأخـيرة في أوروبـا، ولـن أُحـاول تفسـير اختفائـه. فهنـاك وثائـقُ ودراسـاتٌ اسـتقصائيّةٌ وروايـاتٌ، تحـكي عـلى أكمـل وجـهٍ مـا فعلـه النّظـام بِناسِـه.

كلّا، هـذه الصّفحـات هـي صفحـات مـازن. أَفَلَـمْ يعهـدْ لنـا بصوتـه وكلماتـه وضحكاتـه وهمسـاته، كي نصغـيَ ونسـتمع إليـه وهـو يتذكّـر؟

محطّاتٌ من حياة مازن الحُمادة

- وُلد مازن الحُمادة في دير الزّور يوم ٣ تمّوز ١٩٧٧.
- ٢ نيسان ٢٠١١: اعتُقل أوَّل مرة في مدينته، بعد مشاركته في المظاهرات مع انطلاق الثّورة السّوريّة.
- ٢٩ كانون الأوّل ٢٠١١: اعتُقل مرّة ثانية للسّبب نفسه.
- ١ آذار ٢٠١٢: اعتقلته المخابرات الجويّة مرّة ثالثة في دمشق، عندما كان يُوزِّع الحليب والأدوية على أطفالٍ من سكّانِ حيٍّ مُحاصَر.
- ٥ حزيران ٢٠١٣: نُقل من شعبة المخابرات إلى سجن عدرا المدنيّ.
- بداية شهر آب ٢٠١٣: أطْلَق القاضي سراحه، إلّا أنّ الأمن السّياسيّ اعتقله فور خروجه من المحكمة.
- أُطلق سراح مازن يوم ٣ أَيلول ٢٠١٣، بعد ثمانيةَ عشرَ شهرًا من الاعتقال.
- غادر مازن سوريا في الرّبع الأَوّل من عام ٢٠١٤.
- وصل إلى هولندا بعد بضعة أشهُر.
- ٢٢ شباط ٢٠٢٠: عاد مازن إلى دمشق في ظروفٍ غامضةٍ.
- قبضَت أجهزة المخابرات الجويّة عليه في المطار.

منذ ذلك الحين أصبح واحدًا من ٩٥٦٠٠ مغيَّبٍ، اختفوا بعد أن اعتقلهم النّظام تعسّفيًّا بين آذار ٢٠١١ وآب ٢٠٢٢.

الفـصـل الأوّل

تريديـن أن تعـرفي؟ حسـنًا. أنـا ابـن هـذا البلـد. سـأسرد لـكِ «عيّنـةً» مــمّا حدث.

لقــد طالبْنــا بالحرّيّــة، بالحرّيّــة فقــط. فهَبّــوا إلى قتلنــا، اعتقَلونــا، وعذّبونــا، وقطعــوا رؤوســنا. قصفونــا بــكلِّ أنــواع الأســلحة: البراميــل المتفجّــرة، والصّواريــخ، والفوســفور، وكلّ مــا يمكنــكِ تخيّلُــه. لقــد أحرقونــا، واعتقلونــا، وقتلونــا، وعذّبونــا. التّعذيــب فــنٌّ، والسّــجّان المحــترفُ يــدرك ذلــك، ويســعى جهــده كي يُفْقِــدَ السّــجينَ عقلَــه. طالبْنا بالحرّيّة، فنكّلوا بنا. ماذا لو طالبْنا مثلًا بثروات البلد؟

أَمـزحُ بالطّبـع. لكنّـكِ تعلمـين أنّهـم دمّـروا ذاكرتنـا. دمّـروا طفولتنـا وذكرياتنـا وأحلامنـا. لقـد هدمـوا جـسر نهـر الفـرات. لقـد حاولـوا محــو إنســانيّتنا، وأخلاقنــا، ومبادئنــا؛ أيْ أُسِّ حياتنــا. فرّقونــا أيــادِي سَــبَأ. دفعونــا دفعًــا إلى قلــب التّطــرّف.

سأُخبركِ.

لقــد عايشــتُ بدايــات الثّــورة والسّــجن والحــرب. الــكلّ طالَــب بي: نظــام الأســد، وداعــش، والفصائــل المتطرّفــة. في إِحــدى الأُمســيات، اجتمعـتُ مـع إِخـوتي الأَكـبر سـنًّا. كان وضعـي قـد بـات حسّاسًـا قـاب قوسَــيْن مــن الأســوأ، فقــرّرتُ الرّحيــل.

وصلــتُ إلى أوروبــا عــن طريــق البحــر. لم أَصِــلْ ببدلــةٍ نظيفــةٍ، وبدعــم إحــدى السّــفارات. اعتُقلــت مرّتَــين في اليونــان. وأبحــرتُ عــلى مــتن قــارب إلى إيطاليــا مختبئًــا في شــاحنة. عنــد حلــول الظّــلام، وعندمــا ســاد الهـدوءُ الميـناءَ، فتحـوا الأبـواب للسّـماح لنـا بالرّحيـل. أُصبـتُ في

قدمـي وأنـا أحـاول تَسـلُّق حائـط. هِمْـتُ في الجبـال والـبراري. ودِدْتُ لـو أُواصـل رحلتـي إلى النّرويـج، لكنّنـي توقّفتُ هنـا في هولنـدا. أُصِبْتُ بالجَـرَب، وأُنْهِكْـتُ. لاحقًـا صـارت مشـاهد قنـوات الميـاه والمـروج والأبقـار تُذكّـرني ببلـدي، وبمزرعتنـا. صـارت الطّبيعـة تهدّئنـي، وهـذا مـا استشـعَرْتُه، عِلْـمًا أنّنـي لم أكـن قـد اختَـبرتُ بعـدُ هـذا العـلاجَ: العـلاج بالطّبيعـة.

في مركـزٍ لِلّاجئـين، لم أكـن أعـرف أيـن أنـا، وكنـتُ غائبًـا عـن نفـسي. كانـت المـرّةَ الأولى التـي أُواجـه فيهـا وَحْـدتي. جلسـتُ عـلى السّريـر في الغرفـة الصّغـيرة العاريـة، وارتديـتُ قبّعتـي التـي فوقهـا بطّانيّـة الصّـوف. هـدأ رأسي حـين أَرحتُ نفـسي من الضّـوء. كان المركـز معزولًا، يقـع في غابـةٍ عـلى الحـدود مـع أَلمانيـا. ولبلـوغ القريـة القريبـة، تُقِـلُّ الرّاغـبَ حافلـةٌ. إلّا أنّنـي بقيـت في الغرفـة، بقيـتُ وحـدي كي أفكّـر.

«مـاذا حـدث؟» سـألتُ نفـسي، ثـم تابعْـتُ هامسًـا: «هـل يعمـلُ عقـلي؟ وهـل أفهـم مـا يحـدث لي؟ وهـل أرادوا قتلنـا لأنّنـا طالبْنـا بالحرّيّـة فقـط؟».

تخيّـلي! هـذا هـو أنـتَ... لقـد عشـتَ كلّ ذلـك. أتيـتَ، ووصلـتَ إلى هنـا، إلى هـذا المركـز. أنـتَ ببسـاطةٍ تريـد... لا أتذكّـر، لقـد وصَلْـت. أنـتَ تُريـد فقـط... لم يَعُـدْ لديـك مـكانٌ خـاصّ بـك، وليـس لديـك أيّ شيء. أنـت وحيـدٌ، منفـيٌّ. والآخـرون معـك مـاذا يفعلـون؟ مِـن أيـن أتَـوا؟ ومـن أيّ بلـد فـرّوا؟

كنـتُ أقـفُ بحـزمٍ أمامهـم. أمّـا في سريـر الغرفـة الصّغـيرة، فتكـوَّرتُ تحـت البطّانيّـة، ووجهـي عـلى ركبتـيّ. آه. ودِدْتُ لـو يـأتي مَـن يُعيننـي عـلى مـدّ رجـلَيّ، ويَربـط يـديّ بحبـلٍ ويسـحب، ويسـحب، لـكي يسـتقيم ظهـري. فقـدْتُ عضـلاتي، أذابهـا الوهـن.

في رأسي أزيزٌ مؤلمٌ: ززززززز... تاك تاك تاك تاك. أصواتٌ تصطدم بدماغي. الطّائرات، المعتقلون، القتلى، المحروقون. ناس، ناس، ناس. تاك تاك تاك. فتحتُ هاتفي، على الشّاشة نقرتُ. وهذا الأزيز... ما رأيتُه من فظائعَ يفُوق الخيال.

عليّ أن أشهدَ. قلتُ لنفسي: «لا يمكنُكَ لا الهربُ ولا كبْتُ ألَمِك. أَنْ تكون صادقًا مع نفسك ومع المجتمع الهولنديّ الذي رحّب بك، هذا هو المطلوب».

محظوظٌ أنا؛ إذ خرجتُ على قيد الحياة محتفظًا ببعض رُشدي. هذا قدَري وحظّي. يُقال عند المسلمين: إنّ النّجاة حياةٌ جديدةٌ.

سأعمل من أجل القضيّة بأسلوبٍ صادقٍ وشفّافٍ. سوف أَشهد لكلّ المساجين، لكلّ القابعين في السّجون. إنّه واجبي الأخلاقيّ بوصفي سوريًّا، تجاه شعبي وقضيّتي. هناك في الزّنازين مَن ينتظرون موتًا لم يَضرِب لهم موعدًا مُحدّدًا... مغيّبون في قبوٍ، أو مكتبٍ... أو قاعة تدريسٍ حُوِّلت إلى زنزانةٍ قذرةٍ... مغيّبون عن أنفسهم... عينُ العالم لا تراهم كما أَعين عوائلهم، التي ترجو الشّرطةَ العسكريّة والمحاكم والفاسدين تزويدها بمعلومةٍ مطَمْئِنةٍ عنهم. كم عدد المفقودين الّذين لا خبَرَ عنهم البتّة؟

التّكيُّفُ مع البلد الجديد على رأس أولويّاتي.

هنا، يُنقل اللّاجئون من مركز إلى آخر بضعة أيّام أو شهور، ريثما يجدون لهم شقّةً. الطّعام لا يكفي. ذات مرّةٍ اصطدنا بطّةً وطهوناها، لحمُها مدهنٌ: يا له من صيدٍ أرعن. وفي مرّة أُخرى، اصطدنا سمكةً، وبينما كنّا نشويها هُرِعَ نحونا حرّاس المركز وقالوا: «ماذا تفعلون؟ صيدُ السّمكِ ممنوع». كنّا قد نظّفنا السّمكة، وحشَوناها بالفلفل الأحمر وخليط الخضار. لفَفْناها

بـورق الألمنيـوم وثقبناهـا بعُودَيـن، ووضعناهـا عـلى نـارٍ أشـعلناها مـن حطـبٍ في زاويـةٍ مزروعـةٍ بالعشـب. القصّـة مـا زالـت تضحكنـي إلى اليـوم.

سألَني أوّل صحافيّ التقَيتُه في هولندا عمّا يُعجبني في هذا البلد.

ـ «الدّرّاجات الهوائيّة» أجبتُه متذكّرًا درّاجتي النّاريّة في دير الزّور.

نظـرتُ إلى قدمَـيّ وهـو يطـرح عـلَيَّ أسـئلته، وإلى النّـدوب السُّـود الموشـومة عـلى جسـدي بسـبب التّعذيـب، حرقًـا بالكهربـاء والسّـجائر والمكـواة السّـاخنة. أَصغيـتُ إلى أَسـئلته متفحّصًـا أسـفل قدمـيّ.

اقـتَرَح عـليّ أَن أُجـرّب ركـوب الدّرّاجـة. كيـف لي أن أفعـل وأنـا في هـذا الوضع؟!

كيـف لي أن أشرح لـه ولجميـع مَـن يسـأل أَنّنـي عائـد مـن جهنّـم؟ حـين سـأروي قصّتـي سـتفهمين.

بعـد لقـائي بالصّحـافيّ الأوّل، التقيـتُ بآخَـر ثـمّ بآخَـر. أَدليتُ بشـهادتي مـرارًا وتكـرارًا في هولنـدا وفرنسـا وإيطاليـا وماليزيـا، وأيضًـا وصـل صـوتي إلى الولايـات المتّحـدة، صـوتي وصـورتي، عـبْر مجموعـةٍ مـن الأفـلام. أيضًـا شـاركتُ في مظاهـراتٍ كثـيرةٍ في شـوارع أوروبـا.

كنـتُ متأهِّبًـا دومًـا، ولا أعـرف مـا الّـذي ينتظـرني، وأيّ عـبءٍ ثقيـلٍ ملقًـى عـلى عاتقـي، أنـا الإنسـان الخائـر القُـوَى.

في كلّ مـرّةٍ أقِـفُ فيهـا مثبِّتًـا قدمـيَّ عـلى الأرض، وناظـرًا باتّجـاه الطّريـق الصّحيـح الّـذي لا طريـق غـيره في عُـرفي، كنـتُ أُضرَبُ في «بيـت أبي»، وأُعـارَض، وأُدفَـع دفعًـا إلى الجنـون. خذلنـي مَـن خِلتهـم أصدقـائي. رأيتُهـم «يتاجـرون» في قضيّتنـا.

أُقسمُ لكِ إنّني مُنهَكٌ. لا أُتاجِر في الدّم، ولا أَبيع دمَ عائلتي وشعبي. تجّارُ الدّم فَسْدَى أُمِّيّون. الأُمِّيُّ هو أُمّيُّ الأخلاق، وهذه زبدة ما علّمَتني إيّاه التّجارب.

في يومٍ من الأَيّام سيستيقظ العالم. المَصالحُ آفةٌ، لا بدَّ من دفنها وتنظيف مخلّفاتها. ففي يوم القيامة «يوْمَ تَبْيَضُّ وُجوهٌ وتَسْوَدُّ وجوه»، سيُحَصحَص الحقّ. يومها سأقول لكلّ مَن سخر منّي: «أرأيتم؟»، في النّهاية لا غالبَ إلّا الحقّ.

الفصل الثّاني

شاركتُ في برنامج يَبثّه التلفزيون الهولندي. كنا ثلاثةً: رجُلًا إفريقيًّا، وآخَرَ هولنديًّا، وأنا. تحدّثتُ عن هروبي من سوريا ووصولي إلى هنا، وعن أسباب الاحتجاجات، والحرية، والكرامة. في اليوم التالي، تلقّيتُ مجموعة من الرسائل. في إحداها عرَضتْ عليّ سيدة هولندية متقدّمة في السنّ أن أقابلها. كانت جدّتُها قد عاشتِ الحرب العالمية الأولى، وهي متخصِّصة في علاج صدمات الحروب بالأعشاب. زُرتها مع صديق. فأعطتني علبتَين من الأدوية تفوح منهما رائحة خلاصة الحشيش.

عندما خرجنا، ضحكنا (أنا والصديق).

ــ أهذا هو ما سوف يشفينا؟

قد نحتاجُ إلى متخصّص يفتحُ رؤوسنا، ويفكّكُ أدمغتنا، كي يرى ما في داخلها، ويتحقّق من حُسن سير الأوردة، علّه يصحّح ما

فَسَـد. مـا أَحْوجنـا إلى شـخصٍ قـادر عـلى الترتيـب والتنظيـف: نَـزْعِ البراميـل والصواريـخ والمـواد الكيميائيـة؛ والتعذيـبِ والسـجن؛ وتنحيـةِ مـا حـدث خـلال السـنوات السـبع الماضيـة، وسـنَتَي الاعتقـال، وأشـهُرِ الثـورة... واسـتئصالِ ٧٠٪ مـن ذاكـرة تالفـة.

عندمـا وصلـتُ إلى أوروبـا، كنـتُ قـد شـاهدتُ مـا لا يوصـف. أعـرف بالتفصيـل أَلَـمَ كلِّ مَـن عـانى. عـلى فكـرة، زنازيـن السـجون حيـث عشـت، لا تلفزيـون فيهـا.

شـهادتي أمـام العـالم هـي جـزء يسـير مـما عشـته. أن تَسـمع أو تتحـدّث عـن موضـوعٍ مـا نُزهـة، إن قارنتـه بمـا عشـناه.

أَنكَسِرُ كلّـما راجعـتُ مـاضِيَّ. أريـدُ الحيـاة، وأريـد أن أعيشـها هـذه الصعبـةَ المقلقـة. أجلـسُ مـع وَحْـدتي، فينفتـح صنـدوق الذكريـات، وأعـود إلى هنـاك. أحيانًـا أرى منظـرًا طبيعيًّـا، وصـورةً فوتوغرافيّـة تعيـدني بلمـح البـصر إلى سـوريا. الأمـر مـؤلم، والعـودة إلى هـذه الذكريـات أمـر متعـب يحبطنـي. أشـعر وكأن رأسي سـوف ينفجـر. زييييييييييييييييييييييييهـم... يثقبونـه بصواريخهـم. رأسي سـينفجر. الوجـع عميـم. السـجن، المجـازر، حـروقُ التعذيـب. وجعـي ووجـع الآخريـن المقصوفـين، وسـاكني الخيـام.

وجعـي رهـن يـدي. الجـرح هنـا في جـوفي، وكأنّنـي بِتْـتُّ نصفَـين. أوّاه. أشـعر بهـواء يتـسرّب إلى داخـلي، يدمّـرني. أشـعر بنصـل يَدخُـل فِيَّ، ويَخـرج ببـطء.

لقد كان موتًا بطيئًا، بطيئًا جدًّا، رويدًا رويدًا. أتفهمين؟

اليـوم، بسـبب العمـلِ تتراجـع معانـاتي، وكلُّ مـا يصاحبهـا مـن تعقيـد. يريدوننـي مجنونًـا، ويدفعوننـي إلى الجنـون دفعًـا. كـم عـدد أفـراد

عائلتـي المعتقلـين والمـوتى؟ لـن أكافئهـم، ولـن أصـير متطرّفًـا. أنـا أؤمن بمبـادئ الديمقراطيــة، وبالعدالــة. حتــى ولــو طــال الزمــن، ســنحصل عــلى حقوقنــا. كلُّ شيء ســيعود إلى نصابــه، جيــلًا بعــد جيــل، ســنعيد بنــاء مــا تَهــدّم.

لحســن الحــظ الــكلامُ مــا زال ممكنًــا. مــا إنْ وصلــتُ إلى أوروبــا حتــى أَدْلَيــتُ بشــهادتي. هــل تتذكريــن يــوم التقينــا أوَّلَ مــرة في منــزل عُمَــر؟

❖ نَعَــم عُمَــر، وخليــل أيضًــا، وشــخص أو شــخصان آخَــران، انمحــتْ صورهــم مــن ذاكــرتي. هــم ســوريّون، لجَــؤُوا منــذ زمــن بعيــد أو في الآونــة الأخــيرة إلى فرنســا. «أجِــبْ عــن الســؤال» قــال أصدقــاؤك. كان ذلــك في ربيــع عــام ٢٠١٥، في باريــس، يــوم التقينــا أوَّل مــرة. يــدي، آه مــن يــدي. تُحــاول تدويــن قصّتــك مــن البدايــة إلى النهايــة، بتسلســل منطقــيّ وتواريــخ، وكأنّنــي كنــتُ أحــاول جمْــعَ شــظاياك.

«أجِــبْ عــن الســؤال يــا مــازن» ظــل أصدقــاؤك يــردِّدون. لقــد كنــتَ تُــدلي بشــهادتك وأنــتَ تُمثّــل. تقــفُ ثــمّ تُقرفــصُ ثــمّ ترفــعُ ذراعيــك ـ ذراعَيْــك الطويلتَــيْن ـ فــوق رأســك، وتخطــو خطوتــين، وخطــوة ثالثــة. وأنــا أحــدّق إليــك بانخطــاف وخــوف وذعــر. تَشــبّثتُ بمــا رويتَــه لي مــن وقائــع، كي لا يذيبهــا الزمــن. تشــبّثتُ بدقائــق التفاصيــل، لا لأنّنــي أخــشى ألّا أقتنــع، بــل كي لا أغــرق وينكــسر قلمــي.

جُمَلُـكَ منجَّمَــة، متســارعة. رأيتُنــي أعْــدُو خلفهــا، وخلــف لهجــة ديــر الــزور العصيّــة، تلــك التــي لــن أعتادهــا أبــدًا. كنــتَ كثــير الحركــة. مجنــونٌ مَــن يتوقّــع منــك أن تجلــس بهــدوء.

كلامُــك حِصْنُــك. أيّامــذاك لم تــذرف أيّــةَ دمعــة، على نقيض ما سَيَحدثُ

لاحقًـا. ليتَـك بكيـتَ، لرُبَّمـا سـاعدْتَنا. أفليسـت دمـوعُ الناجـي كرمًـا لاواعِيًـا، أو محطّـةً تُعيننـا عـلى هجـرِ مـا يحيـط بنـا مـن همجيّـة؟ كأنّ مـاءَ العيـونِ أرضٌ نائيـةٌ مُحايـدةٌ تجمعُنـا. بـين الصمـتِ والعويـل، فليكُـنْ عويـلٌ وتنهُّـدات وإنسـانيّة (إنسـانيّة خفِـرَة) شـاحبة، تؤكّـد لنـا أنّنـا عـلى قيدهـا. فالمُغيّـبُ الصامـت يتركنـا وجهًـا لوجـه نُنـازلُ شـياطيننا، وهـذه قصّـة أخـرى.

كنّـا سـتّة في غرفـة الجلـوس، تلـك العابقـة بدخـان السـجائر، وفَـوْح رائحـة الشـاي الأسـود المحلّى بكثـير مـن السـكّر. كنّـا سـتة، بَيْـد أنّـكَ سـيّد المـكان. أنـتَ؟ لا... عنَيـتُ معاناتـك. ⁂

أردتُ للسرديّـة أن تُفهـم كيـف ترابطـت مـن كلّ زواياهـا، وتتالـت فيهـا الأحـداث... اعتقـالي، أهـو بسـبب الاحتجاجـات أم المظاهـرات؟ أهـو مرتبـط بمـا ارتُكـب مـن جرائـم قبـل الثـورة وخلالهـا؟ قصتنـا كالنسـيج، الـذي تتشـابكُ خيوطـه وتتضافـر. لـكي نفهـم، لا بـدّ مـن تفكيكهـا خيطًـا خيطًـا، وإعـادة حبكهـا مـن الثـورة إلى السـجن، إلى المنفـى. لعلّنـي شـاهدٌ بالفطـرة، وكاشـفُ حقائـق لا يُـوارِب، حتـى ولو ظـنّ نـاسُ بلـدي أنّنـي مخطـئ. أسـلوبي هـو عكـس اللَّـفّ والـدوران، حـين أبـكي تهطـل دموعـي مِـدرارة.

قبـل لقائنـا الأول، اتصـل بي شـقيقي الأكـبر عـبر الهاتـف. أزعجنـي اتّصالـه. أبـو الجـود رجُـل قـويّ لا يخـاف المـوت، ولكـنّ صوتـه لم يَـرُق لي. أبلغنـي أنّ «القصـف يفُـوق الخيـال». أعْـيُن السـوريين تُراقـبُ السـماء المزدحمـة بطائـرات يَفُـوق عددُهـا سـيارات الديـر أو الرِّقَّـة.

كنيـة أخـي: أبـو الجـود، لأنّ ابنتـه البكـر اسـمها جـود. أبـو الجـود (أو فـوزي)، غلـب عليـه اللقـب، وهـو يَكـبرني بثمانيـة عـشر عامًـا.

أبـو الجـود رجـلٌ رصـينٌ، وهـادئ، يدخّـن سـجائرَ «حمـرا طويلـة» مـع قهوتـه، وهـو يقـرأ أو يكتـب عـلى حاسـوبه. عمِـلَ في مختـبر طبّـي. يفكّـر ويقـرأ، يفكـر ويقـرأ. رجـلٌ متّـزن. إن لم تُوجَّـه إليـه الـكلام يصمـت، وإنْ تَحـدّث فصَوتُـه منخفـض هامـسٌ، ويدعـوك إلى الاقـتراب منـه.

اليـوم، شـقيقي طريـدٌ، يتنقّـل مـن مخبـأٍ إلى آخـر. فالنظـام وداعـش يطاردانـه.

كيف لي أن أشعر بالطمأنينة بعد أن قتلوا عائلتي وأصدقائي؟

صِرنا شتاتًا.

الفصـل الثالـث

والـدي تاجـرُ أغنـام، اعتنـى هـو وعائلتـه بـأرضٍ مترامية، تَبعـد بضعـة كيلومـترات عـن ديـر الـزور: مزرعـةٌ، وحقـول، وإسـطبلات، ودجـاج، وأشـجار مثمـرة. عشـنا أحـرارًا، نتـصرّف في وقتنـا عـلى هوانـا.

اعتدنـا التنـزّه مسـاء كلّ خميـس عـلى ضفـاف الفـرات. فالجمعـة هـو يـوم عطلتنـا الأسـبوعيّة.

مـن مقاهـي الكورنيـش، تَصـدحُ أغـاني أم كلثـوم حتـى يتقـدّم الليـل، والقـوارب تمخـر عبـاب النهـر. عُـرفَ الدَّيـر بمطاعـم الكبـاب والمشـاوي.

أمّـي مـن جهتهـا تُحـضّر مـا لـذّ وطـاب في المنـزل. تَفـرم اللحـم يدويًّـا، ثـمّ تضيـف إليـه البصـل وقليـلًا مـن الملـح، والبقدونـس، والفلفـل الحار.

حين يَجهَزُ الخليط تُوزّعه على أسياخ، خمسين سيخٍ على الأقلّ، ويبدأ الشواء. أُحبُّ اللحم. في رغيف كبير من الخبز، أضَعُ ما لا يقلُّ عن ٢٥٠ غرامًا من لحم الضأن، وأُضيف إليه البصل، وآكله مع الفلافل والبندورة والجبن.

في الربيع، اعتدنا نصْبَ خيامٍ في الصحراء: واحدة للطبخ، وواحدة للنوم، وواحدة للغسيل، وواحدة نُؤثِّثُها بوسائد سميكة، نلقيها على الأرض ونجلس عليها، كما هو الحال في غرف الجلوس البدويّة. في خيمة أخرى نضعُ كراسي وطاولات للحفلات وللشرب. أحضرنا مُولِّدًا كهربائيًّا كي نُمضي في المكان أيّامًا عديدة. خيامٌ من فئة الخَمْسة نجوم، نُمضي فيها لياليَ من الأنس.

يَبردُ الجوُّ أحيانًا، فنرتدي عباءات من الوبر، ونجتمع حول مدفأة نضع عليها إبريق شاي، نسكبه في أكواب فرنسية مرقّمة في أسفلها. كيف عرَفْنا أنها فرنسية الصنع؟ لأنها لا تنكسر عندما تَسقطُ على الأرض. أنشأنا ملعبًا لكرة الريشة وللكرة الطائرة. اصطدنا بالبنادق الأرانبَ والحجل والسُّمَانَى. ذهبنا للصيد على الدرّاجات النارية أو في السيارات، وكان الشباب يعزفون الموسيقى.

نوسّع للنساء حين يأتين يومَي الخميس والجمعة، وننظّف الخيام، ونرشّ العطور لإخفاء رائحة ما استهلكناه من عرق.

مع الربيع تُزهر الأرض من البوكمال إلى الرِّقَّة، فالفرات قريب. أرضُ دير الزور والحسكة صفراء اللون، خصبة ومعطاء بسبب أمطار الشتاء. أمّا في حماة وحمص فلونُ الزهر أحمر. هذا بلدي، كيف لي ألَّا أعرف لون أرضه؟ أنا ابن البلد، وأعرف الصحراء زاويةً زاويةً عن ظهر قلب.

في مساء الخميس، جرَت العادة أن يجتمع إخوتي الأكبر سنًّا في

بيت واحد منهم. سهرات طرب وسمر تدوم حتّى ساعة متأخّرة. أنا أصغرهم. فارِقُ العمر شاسع بيني وبينهم. أنعس، فأنام. في البداية، لم أفهم بوضوح أحاديثهم عن سطوة أجهزة الأمن، التي تَدخل البيوت وتعتقل بلا مذكّرات توقيف. سمِعتُهم يتكلّمون عن النظام وفساده. بدأتُ أفهم فحوى مواضيعهم حين بلغتُ الثامنة عشرة.

يا أبناء الضواري، عليكم اللعنة.

الفصل الرابع

رَوَّج النظامُ صورةً زائفة عن سكان دير الزور. صوَّرَنا بَدْوًا نعيش في الخيام. وسائل إعلامه، تلك التي يسيطرُ عليها بلا أدنى ريب، درجَت على تصويرنا باعتبارنا «منطقة صحراويّة نائية»، من مرتبةٍ أدنى؛ مواطنين من الدرجة الثانية.

ناسُ منطقتِنا بسيطون كرماء، طيّبون، متضامنون. يعملون بجدّ، ويثمّنون قيم العائلة. منطقتنا غنيّة بحقولها النفطيّة، وأراضيها الزراعيّةِ الخصبة المعروفة بالقطن والقمح. أرغمَتِ الدولةُ الفلاحين على أن يبيعوا لها كلَّ المحاصيل. أصدرت مرسومًا صنّفت فيه أنواع القمح وأسعاره. فلكلّ صنفٍ سعر. كسْبُ المزارعين الضئيل ـ والوضع على ما هو عليه ـ أرغمهم على هجرة القرى إلى دمشق أو لبنان، للعمل في المصانع، أو نواطير بنايات.

الأرضُ وما تُنتجه، آخِرُ هموم النظام. فعَيْنه على مداخيل النفط، تلك التي تُهَرَّب إلى جُيوب ناسه المتغاضين عن إدخال هذه الأموال

في ميزانيّـة الدولـة. بقـرةٌ حلـوبٌ، لا أكـثر ولا أقـلّ، هكـذا عامـلَ النظـامُ منطقتنـا. أمّـا الوظائـفُ المتاحـة لأهـل الديـر في شركات النفـط، فهـي أدنى رتبـةً مـما سُـمح بهـا لِعلَويـيّ طرطـوس أو اللاذقيـة عـلى سـاحل البحـر الأبيـض المتوسـط مـن داعمـي النظـام. نحـنُ الحمّالـون والحـرّاس والفنيّـون، وهـم أحيانًـا المهندسـون.

في صبـاح كلّ يـوم، تُقِلُّنـا حافلـةٌ إلى مـكان عملنـا في شركـة شـلومبرجيه النفطيّـة، حيـث عملـتُ قبـل الثـورة مـع خمسـة أو سـتة أشـخاص من الديـر. أمّـا الآخـرون فكانـوا مـن اللاذقيـة أو طرطـوس. بالنسـبة إلى الوظائـف العامّـة في المدينـة، فـإنّ الأولويّـة للعلويّـين، ومـن بعدهـم للمسـيحيين، وهـم بِدَورهـم أقلّيـة. أمّـا أهـل الديـر ـ أيِ السُّـنّة ـ فيوظَّفـون عـلى مضـض. كنّـا عندهـم حـشرات بـلا أدنى قيمـة.

أراد لنـا النظـامُ أن نبقـى جاهلـين. وفي الانتخابـات، دعـمَ الجهلـة؛ إذ يخـشى أهـلَ العلـم والمعرفـة. طُمـوحُ بطانتـه التنقّـل مـع حـراسٍ في سـيارات «مفيّمـة» الزجـاج، وعقْـدُ صفقـات مـع أجهـزة المخابـرات. في البرلمـان، رأيناهـم لا يطالبـون لمنطقتنـا بِبُنًـى تحتيّـة، بـل بعلـف للأغنـام. لا جامعـة ولا عمـل في منطقتنـا، وهـم كانـوا يطالبـون بالتـبن.

❖ تُعتـبرُ مدينـة ديـر الـزور، المعروفـة محليًّـا بــ«الديـر»، مـن أكـبر حـواضر شرق سـوريا، بحسـب يوميّـات الثـورة السـورية. وهـي عاصمة المحافظـة التـي تحمـل اسـمها، والتـي تضـم أيضًـا الميادين والبوكـمال [أو الأبوكـمال]. تقـع عـلى بعـد ٤٥٠ كـم شـمال شرق دمشـق.

تُعـدُّ هـذه اليوميّـات، التـي نشرهـا المعهـد الفرنـسي للـشرق الأوسـط (إيفبـو)، وموقـعُ الذاكـرة الإبداعيـة الإلكـتروني، مَصـدرًا فريـدًا لشـهادات عـلى بدايـة الانتفاضـة السـورية وسـنواتها الخمـس، مـن

الأول مــن آذار ٢٠١١ إلى كانــون الأوّل ٢٠١٥. وهــي تحــكي كيــف أن نســاءً ورجــالاً في خمســين مدينــة أو حــيٍّ أو قريــة، شــاركوا فيـما يُفضِّـل المؤلفـون أن يطلقـوا عليـه تسـمية «انتفاضـة»، حيـث إن «المسـار» الثـوريّ «لم يكتمـل بعْـدُ». [«ثـورة»، «انتفاضـة»، «عصيـان»، لا كلمـة دقيقـة أو متّفـق عليهـا لتوصيـف مـا حـدث].

يَـروي الكتـاب كيـف أنّ مدينـة ديـر الـزور «عُرفـتْ مركَـزًا حضاريًّـا يتبـع مملكـة مـاري، التـي يعـود تاريخهـا إلى ثلاثـة آلاف سـنة قبـل الميـلاد، وكيـف أنّهـا عُرفـت بجسـورها السـبعة عـلى نهـر الفـرات. ويُعـدُّ الجسر المعلّـق، الـذي بنـاه الفرنسـيون عـام ١٩٢٥، مـن أشـهر آثارهـا. سُـمِّيت الديـر بسـبب مجموعـة مـن الأديـار التاريخيّـة المبنيّـة في المنطقـة، وهـي عـلى التـوالي: ديـر الرمـان، وديـر البصـيرة، ثـم ديـر الرحمـة في العهـد العثـماني نسـبةً إلى قلعـة بُنيـت في خراجهـا. أمّـا كلمـة «زور»، فـلا تفسـير واضحًـا لهـا. تقـول بعـض المصـادر إنّهـا: «الغابـة»، أو «الأشـجار»، لكثرتهـا في المنطقـة المحيطـة. ❖

كان والـدي تاجـرَ مَـواشٍ معروفًـا في المنطقـة. رجُـلٌ مسـتقيم، كلمتـه كلمـة، لا يحيـد عنهـا. مِـن بـين كلّ الحيوانـات المحيطـة بنـا أحببـتُ الخـراف، فهـي مباركـة عنـد الـربّ. في صغـري سـاعدتُ والـدي أكـثر مـن مـرّة، وهـو يُعـين نعجـة تعـثّرت ولادتهـا. فـإذا مـا مـات مولودهـا، نخيـطُ مـن جلـده معطفًـا. كان صـوف الصغـير ناعـمًا ملمسـه، يُدخـل السـعادة إلى قلبـي.

أكـثر مـن مـرّة، أيقظنـي والـدي في منتصـف الليـل: «هيّـا يـا ابنـي إلى العمـل».

عندمـا كـبرتُ، رافقتُـه في رحلاتـه في جميـع أنحـاء سـوريا، وهـو يبحـث عـن

أجـود القطعـان. دوّنـتُ ملاحظـاتي عن هـذه الأسـفار. كان والدي مِثـل أمّي لا يقـرأ، بَيْـد أنّـه لا يغلط لا في الحسـاب ولا في الأخلاق. نعـم... وُلد عـام ١٩٢٥ في ظـل الانتـداب الفرنـسي، ثـم إنّـه عمـل دركيًّـا قبـل اسـتقلال سـوريا.

عالجتُـه مـدّة خمـس سـنوات، حيـث أصيـب بغرغرينـا أدّت إلى بـتر ساقه. كلَّ صبـاح، كنـتُ أحمـل لـه دسـت مـاء، وأُشرفُ عـلى نظافتـه. في تلـك المرحلـة، كان أغلـبُ الإخـوة قـد غـادروا المنـزل. بقيـتُ أنـا وشـقيقٌ لي مـع أبي ومـع والـدتي. عندمـا بلـغ والـدي السِّـتِّين مـن العمـر، طلـب منـه إخـوتي الأكـبر سـنًّا أن يتقاعـد. فلـمّا وافقهـم الـرأي، أصابـه مـرض السـكري.

اعتنيـتُ بـه كـما يَعتنـي أهـلٌ بطفلهـم. صـار يتمنّـى المـوت ليُجنّبنـي هـذا العنـاء: «تعبُـك راحتـي يـا أبي» كنـتُ أقـول لـه.
ولكـن، لا أعـرف لِـمَ أَسردُ عليـكِ هـذه القصّـة. أردت أن أخـبرك عـن أمـور أخـرى.

لوالـدي زوجتـان، أنجـبَ منهـما ثمـاني عـشرة بنتًـا وولـدًا، وقـد كنـتُ آخـر العنقـود. العِلـمُ بالنسـبة إليـه قيمـة تتيـح للإنسـان أن يَـبرز، وهـو فخـورٌ بذرّيَّتـه. فبينهـم مُحـامٍ، وفنـيّ مختـبرات، وطبيب أسـنان، وممـرّض، ومهنـدس زراعـي، ومعلّـم رسـم وجغرافيـا، ومُسـاعِدة اجتماعيـة، وموظّـف.

في السادسـة صباحًـا، كانـت الوالـدة توقظنـي كي أسـتعدّ للذهـاب إلى المدرسـة، وأتنـاول وجبـة الإفطـار. هنـا في شـقتي، أُحمّـص الخبـز مبـاشرة عـلى الغـاز. في الديـر، كان لنـا فـرن ننقلـه مـن السـطح إلى باحـة البيـت. قبـل اسـتيقاظي كانـت الوالـدة قـد أعَـدّت عجنتهـا

وخبـزت. فـآكلُ مِشـطاحي مُضيفًـا إليـه اللَّبْنـة أو الزبـدة، في الوقـت الــذي تُعِــدّ لي فيــه زوّادتي المؤلّفــة مــن شــطائر بالجــبن أو الزعــتر والزيــت، أو بالدجـاج.

ما ألذَّها! تَدسّها في حقيبتي وتسأل:

ــ هـل أخـذت كلّ مـا تحتـاجُ إليـه؟ وهـل راجعـتَ فروضـك بشـكلٍ جيّـد؟

ــ فـروضي أنجزتُهـا البارحـة مـع شـقيقي أو شـقيقتي التـي هـي أكـبر منّـي. ٦ زائـد ٥، مـازن؟ ضـع خمسـة في رأسـك وعـدّ سـتّة بأصابعـك.

❖ أنـتَ في العـاشرة مـن العمـر، بفـرح تتذكّـرُ سـنوات الطفولـة التـي عشـتها في ديـر الـزور. ضحكاتـك تُرجـرج جـدران شـقتك في هيلغـوم، التـي تَبعـد نصـف سـاعة مـن أمسـتردام. عينـاك تبتسـمان، تمـشي، وتتراقــص، وتــكاد تقفــز بقامتــك النحيفــة الهشّــة، وتترنّــح أحيانًــا، وتـكادُ تتعـثر. لكنّـك تبقـى جالسًـا.

يــداك الرشــيقتان تُقطِّعــان البنــدورة، والكوســا بدقّــة وأنــت تُدنــدن مــا تحفظــه مــن أغــانٍ لفــيروز. تــكاد النــار تُحــرقُ شريحــة الخبــز، فتمسـكها كالحـاوي، وتتلاعـب بهـا مـن يـد إلى أخـرى قبـل أن تسـتقرّ عــلى الطاولــة. تتمتّــع بالطبــخ للأصدقــاء. تذهــب إلى شرفتــك المطلّــة عــلى مبنــى آخــر، لمراقبــة أســياخ اللحــم والطماطــم والبصــل. تجلــس القرفصـاء أمـام مَنْقَلِـك المتواضـع. تديـر ظهـرك للنافـذة. أيـن أنـت؟

يجتاحنـا الحنـين. نتذكّـر كـرمَ الولائم هنـاك، ونظـراتٍ تدعـو إلى اللطف، وضيافـةً فطريّـة تحضنُنـا بحنـان أمومـيّ. هكـذا أنـت. أهـذا مـا جذبني إليــك؟ أهــو الحنــين إلى الأمســيات الدمشــقية، أم أنهــا هــذه الفجــوةُ

الهائلـة التـي نُبحـر فيهـا معًـا للوصـول إلى هـذه الأرض البعيـدة، ولِنَعـبر ظلماتهـا معًـا؟ أنـت الآتي مـن مـكان بعيـد.

حـلاوة طفولتـك ـ سـنواتك العـشر ـ تَغمـر الغرفـة اليـوم. فاسـمح لنـا بـأن نـسرق بعضهـا منـك يـا صبـيّ ديـر الـزور. ❖

كان عبـد الرحمـن الرفاعـي أسـتاذًا صارمًـا مُـصرًّا عـلى تعليمنـا. فـإنْ كتبنـا بـلا تـأنٍّ يعاقبنـا بـأن يطلـب منّـا مَـدَّ أيدينـا، فيضربنـا عـلى أطـراف أصابعنـا، ثـمّ ننفـخ عليهـا مـن شـدّة الألم. وإن أبعدنـا أيدينـا لحمايتهـا يرفـع وتـيرة عنفـه، ويسـتحيلُ لـون الأصابـع أحمـر.

الأنْـكَى، في فصـل الشـتاء وبسـبب الـبرد، أنَّ موقـد التدفئـة اليتيـم لم يكـن يكفـي الفصـل كلـه. ولمّـا كنـتُ طويـل القامـة، كان يُجلسـني الأسـتاذ في آخـر الغرفـة، بعيـدًا عـن الـدفء.

ذات مـرّة، حصلـتُ عـلى علامـة ممتـازة، فكافأتنـي والـدتي بمبلـغ خمـس لـيرات. حملتُهـا وهُرعـتُ إلى محـل البقالـة الصغـير، حيـث تجـد بحسـب المواسـم راحـة الحلقـوم والكعـك والآيـس كريـم.

بعـد الـدرس، كنّـا نلعـبُ بالكـرة في شـارع لا تمـرّ فيـه سـوى سـياراتٍ قليلـة، وكنّـا بحجرَيـن نُحـدِّد موقـع الشـباك.

بعـد حصـولي عـلى البكالوريـا، درسـتُ مـدة عامـين في المعهـد الصناعـي. لم يكـن التدريـس جيـدًا؛ أمّـا المعلّمـون فحـدِّثْ ولا حـرج، ديدَنُهـم إهانتنـا وكسْرُنـا. حَلَمـتُ بوظيفـة في مجـال النفـط: التعديـن والمنتجـات المُشـعَّة والتلحيـم. هكـذا صِرتُ تقنيًّـا، وعُيِّنـتُ في شركـة شـلومبرجيه، وهـي مـن المؤسّسـات الفرنسـيّة العملاقـة في هـذا المجال.

الفصــل الخامــس

جَنّنـتُ هـذا النظـام. التخضيـعُ أسـلوبهم، وهـذا مـا لا أقبلـه. حاولـوا معنـا مـرّة ومرّتـين وثلاثـة، ولم يفهمـوا إصرارنـا. لا يريـدون. انتهـى الأمـر: خـلاص. لم يبـقَ لنـا سـوى السَّـحق. لمـاذا؟ لقـد نشـأنا والقسـوة هـي النظـام. بعـد عيـشي في أوروبـا، أضحيـتُ أكـثر تفهّـمًا ومرونـة.

أحـترم النـاسَ، ولكنّنـي لا أقبـل منهـم أن يُخطئـوا معـي. عندمـا كنـتُ صغـيرًا رأيـتُ كيـفَ اعْتُقـل إخـوتي مـن المنـزل. لقـد عارضـوا النظـام، فأرسـل أمْنَـه واعتقلهـم عـدّة سـنوات. إخـوتي أكـثر منـي حكمـة، مسـتعدّون للتحـاور مـع سجّانيهم؛ أمّـا أنـا فـلا. لكنّنـي فعلـتُ مـرة واحـدة فقـط، لمحاولـة إخـراج أخـي عبـد العزيـز مـن السـجن، وهـو طبيـب أسـنان. فاعتقالـه كان ضربـة قاسـية لجميـع أفـراد الأسرة. يَعـرفُ سـكّان الديـر أنـه رجـل طيـب وحكيـم، وأنـه حـاول حـلَّ النزاعـات بـين القـرى والعشـائر. فـإنْ وقعَـت مشـكلة، تجـده يحـاول تهدئـة الأوضـاع.

أمّـا النظـام، فقـد سـعى لتأجيـج المشـاكل، كي يبسـط نفـوذه علينـا، وعـلى منطقتنـا الغنيّـة بنفطهـا ومحاصيلهـا عـلى أكمـل وجـه.

في كلِّ شـهر، كانـت المخابـرات تسـتدعيني أنـا وإخـوتي للضغـط علينـا. يتركوننـا ننتظـر في الخـارج حتـى يرانـا المارة أمـام مبنى الأمن السـياسي أو العسـكري، ويظنّـوا أننـا مـن الوشـاة. عندمـا يُسـتدعَى أيّ شـخص، تـراه يـأتي صاغـرًا كالكلـب.

ــ لمـاذا لا تتحدّثـون بـأدب إلى النـاس؟ كنـتُ أسـأل المحقّقـين: ألسـتَ إنسـانًا مثـلي؟ ألسـتَ سـوريًّا مثـلي؟ بلدنـا واحـدٌ، أليـس كذلـك؟

رئيسكم وافق على دستور كُتبَ فيه احترام الناس.

ـــ رئيسكم؟ هو رئيسك أيضًا.

ـــ لا، ليس رئيسي.

أمام باب مبنى التحقيق مَقعد خرساني. لففْتُ سيجارة حشيش قبل أن أجلس عليه. كنتُ أعلم أن الانتظار في الشمس سيكون طويلًا. رجال المخابرات ليسوا أسوياء، وبفضل الحشيش أحاول أن أصير مثلهم.

بسخرية وانفعالٍ فتحتُ حديثًا مع ريفيِّين، عرفتُهم من كوفيّاتهم، ينتظرون دورهم مثلي.

ـــ ماذا يريد منك هؤلاء الأوغاد؟

خافوا منّي، وابتعدوا وهم يفكرون: مش ناقصنا مشاكل.

سيكارة الكيف أراحتني؛ أمّا هم فميّتون من الخوف من سخريتي وتعليقاتي.

للمحافظة على المواشي قبل الإتْجار بها، كان لنا خانٌ بحظائر وإسطبلات. لقد أخبرتكِ عن تجارة الوالد، أليس كذلك؟ يزوره المشترون للتفاوض على البضائع. بُنِي الخان على قطعة أرض فسيحة مزروعة بالأشجار المثمرة. كان يَبعد زهاء ٤ كيلومترات عن الدير ونهر الفرات، ونِصفَ ساعة سيرًا على الأقدام. انظري، سأرسم لك الطريق: أمامك شارع الدير الرئيسي الذي يفضي إلى شارع الملعب، وإلى يمين دوَّار غسان عبود سِيرِي في خطٍّ مستقيم، على ضفّة نهر الفرات منحدرٌ خفيفٌ، وبعد ٢٠٠ متر تكُونين قد وصلت.

جنبًا إلى جنب، مجموعة من الخانات حارسُها بعثيٌّ حتى العظم.

البعـث هـو الحـزب الوحيـد المرخّـص لـه، وهـو حـزب الأسـد. ذات يـومٍ، ركبـتُ دراجتـي الناريـة لملاقـاة شـقيق لي، مُـوكلٌ إليـه الاهتـمامُ بالمـواشي. أخـبرني أنَّ الهـدوء مخيِّـمٌ عـلى الديـر:

ــــ اذهَبْ وتحَرَّ لِنفهم ماذا يحدث.

عـدتُ أدراجـي، والشـوارع خاليـةٌ فعـلًا. أخَـواتي في البيـت متسـمّرات أمـام التلفـاز:

ــــ ادْخُل، ادْخُل، لقد مات ابن العاهرة.

لقـد مـات حافـظ الأسـد. كنّـا في حزيـران ٢٠٠٠. لَكَـمْ تَحمّلنـا! بسرعـة كبـيرة انتـشرت دوريّـات الأمـن في الشـوارع، خافـوا مـما قـد يحـدث مـن ردود الفعـل.

خرجـتُ لـشراء حلويّـات وقطائـف عـلى دراجـة ناريـة. عنـد وصـولي إلى الخـان، قدّمـتُ منهـا للحـارس.

ما المناسبة؟

ــــ موت الطاغية.

قدَّمتُ لأخي، وأنا أُعْلِمه بوفاة الرئيس.

ــــ عن جدّ؟

لم يُـرِدْ أن يصدّقنـي، وسـألني أن أُقسـم بـرأس أمّـي وأبي. سـألتُه أن يحـضر لي عصًـا. منـذ خمـس سـنوات ودِدْتُ أن أضرب الحـارس البعثي المفـروض علينـا مـن قِبلهـم. دعَمَـت عائلتَنـا الكثـيرُ مـن النـاس. في كل عيـد أضحـى كنّـا نذبـحُ خمـس بقـرات، ونقطّـع اللحـم، ونعطـي كلَّ

أسرة حِصّتها بالتساوي، كي لا تقول نساء الدير المعروفات بسلاطة ألسنتهن: حصّة فلان أكبر.

يومها لم أَضرب الناطور.

الفصل السادس

شعرتُ بأنّني أطير. كنتُ سعيدًا، حُرًّا، منتشيًا.

ظننتُ أنّ النظام سيقعُ بالضربة القاضية.

تابعتُ عبْر الإنترنت ما سُمّي بعد حين «الربيع العربي» في تونس ومصر.

رأيت ـ قبل سنوات طويلة من قيام الثورة ـ كيف اعتُقل إخوتي الأكبر سنًّا. كنتُ أستمع مساءً إلى أحاديثهم، ثمّ كبِرتُ وأدركتُ معنى كلامهم عن الجرائم، وصراعِهم السريّ والممنوع، للوقوف في وجهها. كنّا نُصابُ بقشعريرة لذيذة ونحن ننادي بالحريّة، بِحريّةٍ تعيشُ فينا، حرّيةٍ لا أثر لها في واقع مفروض علينا لا يتزحزح.

الحريّة تُرَفرِف، وتطير، وتحملني على جناحيها.

لم نصدّق. أُقسم لكِ أنّنا سنطير. الحريّةُ صاعقٌ هزّ أجسادنا. كم كنتُ سعيدًا يوم مشيتُ خمسمائة متر في مظاهرتي الأولى، خمسمائة متر فقط!

فور وصول الشَّبِّيحة وميليشيات النظام والأمن، هجموا علينا وفرّقونا.

بـدأ النـاس يفكـرون، ويطالبـون بحقوقهـم، لعلّهـم لـن يصمتـوا بعـد اليـوم. لقـد سـقط الجـدار الـذي ظـل جاثمًـا عـلى صدورنـا طـوال أربعـين عامًـا، أربعـين عامًـا مـن حكـم الحديـد والنـار والبـارود. أراد النظـام أن يُبقـي النـاس نائمـين، حتـى يتمكـن مـن اقـتراف شـنائعه مـن نهـب وتجويـع.

أبـواب دارنـا مُشرعـةٌ دومًـا. هكـذا نحـن، كـما تعرفـين. وضَعْنـا الفُـرش والوسـائد أرضًـا، فتحوّلـت الغرفـة إلى ديوانيّـة. اجتمعنـا لمناقشـة مظاهرتنـا الأولى، إبراهيـم ومحمـود وزيـاد وقُـصَيّ، جميعهـم يعيشُـون اليـوم خـارج البـلاد. هـو يـوم اسـتثنائيّ. ففـي الأيـام العاديـة، كنـا نعـود مـن العمـل، ونسـتحمّ، ثـم نواعـدُ الأصدقـاء، ونتجـوّل في السـوق، ونلعـب بالـورق، ونمـشي عـلى كورنيـش نهـر الفـرات، ثـمّ نعـود إلى البيـوت لاحتسـاء القهـوة ومشـاهدة الأفـلام. وفي اليـوم التـالي، يتوجّـه كلّ واحـد منّـا إلى عملـه.

في منطقتنـا، الجامعيـون كثـيرون، مثقّفـون وأَكْفَـاء، بَيْـد أنّهـم عاطلـون مـن العمـل. لـذا، وجدناهـم جاهزيـن للتعبـير عـن سـخطهم.

في شـباط ٢٠١١، لعـب فريـق ديـر الـزور لكـرة القـدم في ملعبـه الغاصّ بأكـثر مـن ١٥٠٠٠ مشـجّع، ضـدّ فريـق اللاذقيّـة. يومهـا قـرّر الحَكَـم التلاعـب بالنتيجـة. فريقنـا «الفُتـوّة» خـسر أمـام فريـق «تشريـن» المدعـوم مـن أحـد أفـراد عائلـة الأسـد. اشـتُرِيَت ذِمـم الحُـكّام. فاستشـاط الحضـور غضبًـا ضـدّ الدولـة، واندلعـت أعـمال شـغب أدَّت إلى إحـراق سـيّارات في حـيِّ العـمال، ووقعـت اشـتباكات. فرمـى الأمـن قنابـل الغـاز المسَـيّلة للدمـوع. وجميـع سـكّان الديـر يتذكـرون هـذا اليـوم. وعـلى إثـره عُلّقـت جميـع المباريـات.

بعدهـا مـرّت الأيّـام. وبِبُـطءٍ جمَعْنـا النـاس، ونظّمنـا مظاهرتنـا الأولى.

فتَعرّفنا إلى فئة شابة موهوبة، تُفكّر بهمّة ودقّة، وتحلم بالتغيير. تيقّنَّا أننا قادرون على أخذ الزمام، وقادرون على التحرّر. هذه هي الثورة، أن نعمل رويدًا رويدًا لرفع الوعي، ودفع الناس إلى استخدام عقولهم، وتطوير أفكارهم.

لتيسير أمورنا، قررنا الخروج من مسجد عثمان. فالكنائس مراقَبة من كثب، والاجتماعات ـ ما عدا تلك المعقودة في الجوامع ـ ممنوعة منعًا باتًّا. من هناك قضت خطّتُنا أن نتوجّه نحو ساحة غسان عبود ونحن نهتف: «واحِدْ واحد واحد، الشعب السوري واحِد».

صوَّرتُ بهاتفي الخلوي خروجنا الأوّل، ثمّ اقتنيت كاميرا صغيرة من ماركت توشيبا، لِنُظهر لهم ما نحن قادرون عليه. صارت كُنيتي بين أصدقائي «الوسواس الخنَّاس»، وكانوا يسترسلون قائلين: «الذي يوسوس في صدور الناس»، وهم يمازحونني. «واحِدْ واحد واحد، الشعب السوري واحد!». ولم يتأخّر جواب الشبّيحة: «بالروح، بالدم، نفديك يا بشّار». فهجموا علينا وفرَّقونا.

في الحقيقة، لم نعتقد أنهم سيأتون لقمعنا على الفور. نحن عنيدون في هذه المنطقة الحسّاسة ذات الوعي السياسيّ. ظنَنَّا أن ساعة «الربيع» قد دقّت، وأردنا مساجلة الدولة علّها تصغي لمطالبنا. لكنّنا مُنِينا بالفشل. عدتُ إلى المنزل منزعجًا وغاضبًا ومكسور الخاطر، فغفوت خائبًا.

بسرعة تعلَّمْنا من أخطائنا. لا بدّ لنا من خداع النظام، وإخفاء نوايانا، حتّى تحين الساعة. نحن أبناء هذا البلد، ونعرف كيف يتصرف النظام. وعليه، أخَذْنا نُعدّ العُدّة للتظاهرة المقبلة. بعد أسبوعٍ، نظّمنا اعتصامًا، وزوّدنا المخبرين بمعلومات كاذبة عن

مـكان التجمـع، فاسـتعَدُّوا، بَيْـد أنّهـم لم يجـدوا سـوى عـدد قليـل مـن النـاس. بعـد حـين، أدركـوا أننـا قـد تجمّعنـا كلّنـا في مـكان آخـر.

التغيـير كان مطلبنـا الوحيـد. فالحريـات محتجَـزة، والتعبـير عـن الـرأي ممنـوع، ولـو تَجمّـع ثلاثـة أو أربعـة أشـخاص معًـا، لَقُبـض عليهـم، وهـذا مـا حـدث لإخـوتي. مـا طالبْنـا بـه مـن حقـوق بديهـيّ، مثـل: حريّـة التعبـير، ومجموعـة مـن الإصلاحـات، ووضـع حـدّ للفسـاد، ورفـع حالـة الطـوارئ.

عندمـا وصـل بشـار إلى سـدّة الحكـم، أمِلْنـا في تغيـيرٍ مـا. قلنا لأنفسـنا: «هـذا شـخص متعلّـم، درس في بريطانيـا العظمـى، البلـدِ الديمقراطي».

بعدمـا صـار ابـنُ الطاغيـة عـلى رأس السـلطة، شـهِدْنا نوعًـا مـن الانفتـاح، حيـث سـمح بانتشـار الإنترنـت والهواتـف المحمولـة. أيضًـا ظنَنَّـا أنّـه سيسـمح بهامـش مـا للإعـلام، بَيْـد أنّ هـذه الظواهـر جـاءت لخدمـة فئـة واحـدة مـن النـاس.

بـدأ النـاسُ يتابعـون مـا يحـدث في الـدول الجـارة، حيـث لم يَسْـعَ المتظاهـرون الصادقـون والمثقّفـون لِلمجـد والمناصـب.

ما رآه السوريّون نبّههُم إلى ضرورة المُضيِّ قُدمًا.

هنـا افتتـح النظـام حمـلات الاعتقـال والقتـل. ومـع سـقوط أوّل القتلى فَهِمـتُ مـا سـوف يحـدث. فمَـن يَقتـلُ شـعبه خائـنٌ بـلا ريب.

اعتقـال أطفـال درعـا هـو مـا أشـعل الـشرارة. سرعـان مـا سُجن الثـوار الحقيقيـون أصحـابُ الرؤيـة الواضحة.

ذات ليلـة، سِرنـا ونحـن نهتـف مـع جـيران لنـا في الحـيّ. كنـتُ أسـيرُ وأُصـوّر، فهُـرع الأمـنُ لتفريقنـا، بعضهـم بالـزي العسـكري، وبعضهـم

الآخـر بالملابـس المدنيـة. حاصرونـا، وقبضـوا عـلى أخـي عبـد العزيـز، وابنَـيْ أخـي: إيـاد وفهـد.

ـ إلى أين تأخذونهم؟ سأل أخي الكبير أبو الجود.

ـــ ابتعِـد، وإلا فسـنأخذكم معهـم. ليلتـذاك اعتقلـوا أيضًـا إبراهيـم، وأبـا النـور، وأبـا عنـود، وبسَّـامًا.

ادّعـى النظـام أن مسـيرتنا تسـتحقّ العقاب. وأجهـزةُ الأمـن والمخابرات مقتنعـة بأنهـا دومًـا عـلى حـق، وبـأن الشـعب هـو المخطـئ. فقالـوا: إنّ موقفنــا خاطــئ «غلَــط»، وموقفهــم هــو «الصحيــح»، وكلُّ مــا ندّعيـه هـراء.

يـا لهـا مـن مهزلـة. دسـتورنا ضامـنٌ للحرّيـة، مـن حيـث المبـدأ. لقـد طبّقْنـا مـا قرأنـاه في دسـتورٍ، هـو مجـرد شـعارٍ يخدعـون بـه الشـعب.

أخــذ إعلامُهــم يتحــدث عــن مؤامــرة حيكــت في الخــارج. نكتــة. الشــعب يطالــب بحقوقــه في بلــد لا حقــوق فيــه للشــعب!

اشـتدت الاحتجاجـات في جميـع أنحـاء البـلاد. كلّ جمعـة ينـزل آلاف السـوريين إلى الشـوارع. وفي الديـر، تَجمّـع عـشرات آلاف المتظاهريـن خـلال فصـل الصيـف. فأقـام الأمـنُ حواجـز نمَّـت عـن خوفـه؛ إذ أضحـى المتظاهـرُ عـدوًّا لهـم. حينهـا لم يكـن الجيـش قـد تَدخّـل بعْـدُ. في آب، وصلـت دباباتهـم إلى الديـر، عـشراتٌ مـن الدبابـات.

هكـذا تسـارعتِ الأمـور: تأسَّـس الجيـش السـوري الحـر في تمـوز ٢٠١١، فابتكرنـا فكـرة التظاهـر تحـت حمايتـه، إذ تمركـز الجيـش السـوري الحـر عـلى الهضـاب، وفي عـدة أماكـن. عندمـا كنـا نتظاهـر ويصـل جيـش النظـام، كان الجيـش الحـر يطلـق النـار عـلى الإطـارات لـصرف انتباههـم، وليسـمح للمتظاهريـن بالفـرار.

كانـت الثـورة تتقـدم؛ أمّـا المعارَضـة السياسـية فتتباطـأ، ولا تُواكبهـا. المعارضـون السياسـيون لم يُعطـوا الشـبابَ فرصـة. أغلـبُ الشـباب الذيـن قـادوا هـذه الثـورة كانـوا مـن الجامعيـين المثقفـين، القادريـن عـلى التفكـير الناضـج، وعـلى قيـادة البـلاد نحـو الديمقراطيـة. كانـوا سـيُطوّرون المؤسسـات، ويحاربـون الفسـاد، ويعملـون مـن أجـل سـوريا، ويخفّفـون مـن سـطوة الأجهـزة.

لكن، لا.

أَعْـرف مـا حـدث. لقـد عملنـا انطلاقًـا مـن غيرتنـا عـلى منطقتنـا وبلدنـا وشـعبنا. بيـد أنّهـم لم يتركـوا لنـا شـيئًا وقتلونـا.

مَن اعتقلوه، اعتقلوه.

ومَن قتلوه، قتلوه.

ومَن مات تحت الركام، فقد مات.

الفصـل السابـع

تَخونني الذاكرة. هل كنّا في نيسان أو أيّار ٢٠١١؟

بعـد أن حطّمنـا تمثـال باسـل الأسـد (شـقيق مَـن تعرفـون) وهـو يمتطـي جـواده... أسـقطوه بخراطيـم سـيّارات الإطفـاء، ورجمـوه بالحجـارة، ثـم أحرقـوه وهـم يهتفـون: «الشـعب، يريـد، إسـقاط النظـام... الشـعب، يريـد، إسـقاط النظـام... الشـعب، يريـد، إسـقاط النظـام». حـدث ذلـك أمـام البلديـة...

انتظـري، دعينـــي أتذكّــر. نعــم، كان ذلــك في نيســان يــوم ٢٢، يــوم الجمعـة. أحرقنـا تمثـال باسـل يـوم الجمعـة. بعـد يومـين اعتُقلـت يـوم ٢٤. صحيـح، ٢٤ نيسـان٢٠١١.

الواقعـة موثّقـة بأفـلام فيديـو. لـذا، تَمكّـن أمـنُ الدولـة مـن الوصـول إلينـا. ذكـر أحدهـم اسـمي، معترفًـا بأنّنـا كنّـا نُرسـل مـع أصدقـاء ناشـطين، مـن مـكان سرّي، المقاطـعَ المصـوّرة، لقنـوات التلفـزة العربية. أخفينـا مُعَدَّاتنـا في الطابـق السـفلي في مكتـب أحـد معارفنـا، المرتبـط سرًّا بشـبكة الإنترنـت. وصـل خمسـة عـشر مـن رجـال الأمـن إلى المـكان. فهـد (ابـن أخـي) كان هنـاك، فاعتقلـوه. وكان اعتقالَـه الأول.

كنـتُ في بيتـي مدّعيًـا أنّنـي مشـغول، وأنـا ممـدَّد عـلى سريـري، حـين اتصـل بي رئيـسي في العمـل طالبًـا منّـي الحضـور. اتّصـالٌ غريـب، مـن مديـر شركـة دوليـة لا تكـذب مـن حيـث المبـدأ. توجّهـتُ إلى مـكان عمـلي، ووقفـتُ أمـام خزانـة أضـع فيهـا ملابـس العمـل، وإذ بهـم يقيّـدون يـدي مـن الخلـف. سـخرت منهـم:
ـــ مرحبًـا، إذا كنتـم تسـألون عنّـي، فلِـمَ لم تأتـوا مبـاشرة إلى منـزلي، أو تطلبـوا منـي الحضـور؟
ـــ ولا كلمة.
بدأ الاستجواب وأنا معهم في سيارتهم القديمة.
ـــ أين كنت يوم الجمعة؟
ـــ عند أخي.
ـــ أيّ واحد منهم؟
ـــ أبو الجود.
ـــ ماذا كنت تفعل؟
ـــ دعاني إلى تناول الغداء معه.

ضربوني.

عندمـا وصلـتُ إلى فـرع الأمـن، نزعـوا حزامـي وأفرَغـوا جيـوبي، وأنزلـوني إلى القبـو. فتحـوا زنزانـة وأدخلـوني. زكريـا! كان زكريـا هنـاك. صديـق يعيـش في الحـي، ولم نسـمع عنـه منـذ أيـام. اختفـى. ولا نعـرف مـاذا حـلّ بـه حتـى اليـوم.

ــ مازن! هتف زكريا.

ــ «أنتما معارف؟» سأل الحارس.

أغلـق البـاب، ووضعنـي في زنزانـة مجـاورة، حيـث وجـدتُ أبـو عبـد اللـه. أردتُ أن أضحـك. بُلَـداء.

لم أقـل شـيئًا كي لا يتكـرّر مـا حـدث قبـل قليـل. كان أبـو عبـد اللـه، أو «غـابي» كـما يُلقَّـب، بائـعَ كُتـب في الديـر. اسـمه الحقيقـي جـاك جـورج عبـد اللـه حشيشـو، مسـيحيّ. اعتُقـل أوَّل مـرة، ولـن تكـون الأخـيرة، فسـوف يُسـجن مرّتـين بعـد ذلـك.

ــ «جهِّـز أموالـك، أخـبرني، أتريـدُ تبْغًـا؟ طعامًـا؟ سـأعود بعـد سـاعة» قـال الحـارس.

حـين اعتُقلنـا طُلـب منّـا إفـراغ جيوبنـا، والاحتفـاظ بأموالنـا لـشراء طعامنـا. حـين غـادر الحـارس تهامسـتُ مـع غـابي. لقـد اعتُقـل قبـلي بسـاعة. شـاهَدوه في فيديـو المظاهـرة، كان واقفًـا يشـاهد مـا يحـدث ولم يشـارك في تدمـير التمثـال.

عـاد الحـارس ومعـه خبـزٌ وجـبن وسـجائر مـن ماركـة «الحمـراء». بمجـرّد أن فتـح البـاب، انعكـس الضـوء عـلى شرائـط الفلورسـنت التـي تُميّـز ملابـس عمـلي.

بعد يومين، اقتادوني إلى الاستجواب.

ــ أين كنت يوم الجمعة؟

ــ قلتُ لك إنّني تناولتُ الغداء عند أخي.

كان يمسكُ ما يشبه الهراوة الكهربائية ويضربني بها.

ــ أنتَ تكذب.

ــ لا.

نـزع أحدهـم عصبـة كانـت تغطّـي عينَـيَّ، وقـرّب منّـي جهـازه الخلـوي كي أشـاهد الفيلـم. نعـم، هـذا أنـا في الصـور. اليـوم أضحـك، لكنّنـي سـاعتذاك كنـتُ في موقـفٍ محـرج.

ــ خرجتُ، كما خرج كثيرون غيري، نطالبُ بكرامتنا.

ــ مـاذا ينقصـك؟ تعمـل في النفـط، وتتقـاضى راتبًـا، عنـدك مـا يكفيـك مـن المـال.

ــ المـال لا يكفـي. خرجنـا نطالـبُ بالحريـة وبحقوقنـا، وبحريـة الصحافـة والتظاهـر. خرجنـا نطالـب بإنهـاء حالـة الطـوارئ، وهـا أنـا أُعْتَقـل. أيـن الحريـة؟

ضربوني ضربًا محتمَلًا في البداية.

بعـد عـشرة أيـام، أحالـوني إلى المحاكمـة. ضبّـاط مـن الشرطة يحرسـون بـاب القـاضي، فكّـوا أصفـاد كلّ المسـتدعَيْنَ للمثـول أمامـه، ثـم قرعـوا البـاب.

ــ ادخُل يا مازن.

القـاضي والكاتـب، وملـفّ خـاصٌّ بي عـلى الطاولـة، وشـقيقي الأكـبر، هـذا مـا لاحظتُـه.

«اجلـس يـا مـازن» قـال القـاضي. مـا قمـتَ بـه لا يخصّـك وحـدك. إخوانكـم محترمـون في المدينـة، أرجـو منـك التعهّـد بعـدم الخـروج للتظاهـر مـرة أخـرى. وقِّـعْ هنـا (أشـار إلى ورقـة أمامـه).

ـــ حسنًا.

«انتظِرني في الخارج» قال أخي.

بقـي ليشـكر القـاضي، ثـم عدنـا إلى المنـزل معًـا، حيـث اسـتُقبلت بالزغاريـد. لقـد مكثـتُ في قبوهـم عـشرة أيّـام عـلى الأقـلّ.

بعـد حـين التقيـتُ بِغـابي عنـد أبـو الجـود، في اجتـماع مـع لجـان التنسـيق. أخـبَرني أنّـه تَعـرّض لـضرب مـبرّح يمنعـه مـن الجلـوس.

كنـتُ يانعًـا يـوم دخلـتُ أوَّل مـرة مكتبتَـه الواقعـة وسـط الديـر، في واحـد مـن أكـثر الشـوارع ازدحامًـا، جـوار محـل حكومـيّ لبيـع الكهربائيّـات. كنـتُ أقصـدُ مكتبتـه مـع الوالـدة أيّـام تَسـوُّقها، أو مـع أحـد أشـقّائي. هـو يعـرف غـابي؛ إذ كانـا معارِضَـين يسـاريَّين «عتيقَـين» للنظـام الأسـديّ، الـذي أحَـبَّ الجهـلَ للنـاس، أمّـا أبـو عبـد اللـه، فـأراد نقيـض ذلـك.

شراءُ الكتـب أو اسـتعارتها: الصيغتـان ممكنتـان في مكتبتـه، حيـث القواميـس، وروايـات أحـلام مسـتغانمي، والكتـب الشـيوعية عـن لينـين وماركـس. أمّـا الكتـب الممنوعـة فغـير معروضـة عـلى الرفـوف أو في الواجهـة تمامًـا، كمنشـورات المعارَضـة التـي تُـوَزّع سرًّا.

أتذكّـر أنّنـي اشـتريت مـن مكتبتـه كتـاب «الـصراع عـلى السـلطة في سـوريا»، عـن عهـد الأسـد وحـزب البعـث، للمؤلِّـف نيقـولاوس فـان دام. هـو طبعًـا مـن كتـب «تحـت الطاولـة». كان عمـري ١٧ عامًـا لمّـا قرأتُـه، وقـد كانـت قـراءتي الفعليّـة الأولى.

مكتبـات الديـر الأخـرى أدارهـا مقرَّبـون مـن النظـام، يبيعـون كتبًـا مَرضيًّـا عنهـا عـن مآثـر حـزب البعـث. غـابي شـخصيّة عامّـة. وقـد كرّمنـاه كلنـا يـوم وفاتـه، بغـضّ النظـر عـن دينـه الـذي لم يكـن يهمّنـا.

أيّـد بعـضُ السـوريين المسـيحيين النظـامَ، وعارضـه بعـض آخـر مـن مثقفين مثـل أبـو عبـد اللـه... لم يَـرُقْ موقفُـه للأمـن بالطبـع، فحاولـوا إسـكاته ومحاصرتـه بالعقبـات. كانـوا يَقطعـون الكهربـاء عـن مكتبتـه باسـتمرار زاعمـين أنّـه لم يدفـع الفواتير، فيُشـعل الشـموع لتـضيء بين الرفـوف. عندما أغلقـوا مكتبتـه، جلـس عـلى الرصيـف المقابـل، مـدّ سـلكًا عـلى الحائـط، وعلّـق الكتـب والصحـف بملاقـط غسـيل.

في منزلنـا مكتبتـان، يعـود فضـل وجودهـما وتنظيمهـما لِأبـو الجـود. فيهـما روايـات وكتـب سياسـيّة. كان عمـري ١١ عامًـا عندمـا قُبـض عـلى شـقيقي الأكـبر أوَّلَ مـرة. مكـثَ في السـجن مـدّة خمـس سـنوات. إحـدى أخـواتي التـي تكـبُرني سـنًّا، هـي طالبـة جامعيـة، كانـت تخـشى مـن زيـارة المخابـرات لنـا لتفتيـش البيـت. كانـت تتأمّـل رفـوف المكتبـة بقلـق، مستشـعرةً مـا قـد يحـدث. فهمَـتْ قبـلي مـا يـدور في خلدهـم.

في حديقـة البيـت أشـجار مثمـرة، وحمضيـات تبسـط ظلّهـا. وفي زاويـة أخـرى عريشـة تُعربـش عـلى حائـط يحتضـن سرّنـا، حفرنـا فيـه كـوّة نخبّـئ فيهـا الكتـب المحرَّمـة. أخرجَـتْ شـقيقتي كتبًـا مـن المكتبـة وأعـدّت قائمـة بهـا، وصـارت تقـول: «ائتُـوا بهـذا وبهـذا...»، وكنـتُ مـع شـقيقي صـدام ـ وهـو أكـبر منّـي بقليـل ـ نضعهـا في صنـدوق، ثـم نحيـط الصنـدوق بِـوَرق مـن بلاسـتيك، ونلفّـه ببطّانيـة. نقـرأ

الكتـب المحظـورة ثـم نخفيهـا داخـل حائـط، نغطّيـه بخشـبة وبـتراب الحديقـة.

«المخابـرات يعرفـون هـذه الحيَـل، مـن الأفضـل إيجـاد مخبَـأٍ آخـر» هـذا مـا نصحـت بـه والـدتي فيـما بعـد. فحمَلْنـا الممنوعـات إلى الخان، حيـث حظائـر الحيوانـات.

خـلال اعتقالـه الثالـث مـدّة عـام، تـوفي غـابي عـن ٦٨ عامًـا. كنـتُ قـد وصلـتُ إلى أوروبـا.

الفصــل الثامــن

تعَمْلـق بُغـضي، واستشَـطْتُ غضبًـا، حـين اعتقلـوا إخـوتي وأبنـاء إخـوتي، ورأيـت الدمـوع في عيـون أخـواتي. صـار دمـي يغـلي. ثلاثـة عـشر فـردًا ـ وأنـا مـن ضمنهـم ـ رهـن الاعتقـال.

حافظ الأسد اعتَقل إخوتي الكبار لأسباب سياسية:

- زهـدي: اعتُقـل عـدّة مـرات، مـن بضعـة أيـام إلى بضعـة أسـابيع، في السـبعينيات.
- عبد القادر: اعتُقل عدة مرات، بضعة أيام، في السبعينيات.
- أبـو الجـود: سُـجن في سـجن صِيدنايـا العسـكري مـن عـام ١٩٨٧ إلى عـام ١٩٩٢ (خمـس سـنوات)، ثـمّ سُـجن بضعـة أيـام في آذار ٢٠١١ مـع انـدلاع الثـورة.

• إخـواني الذيـن يقاربونِـي في العمـر اعتُقلـوا بعـد بدايـة الثـورة، عـلى يـد أجهزة بشـار الأسـد.

• عبـد العزيـز: اعتُقـل عـدة مـرات بضعـة أيّـام، آخرهـا في ١٣ شـباط ٢٠١٣، وهـو مغيّـب منـذ ذلـك الحـين.

• عبد الرزاق: اعتُقل عدة أيام.

• عمَّار: اعتُقل مرة واحدة، وعُذّب تعذيبًا شديدًا.

• صـدَّام: اعتُقـل مرتـين، إحداهـما بضعـة أيـام، والثانيـة مـدة شـهر، وعُـذّب كعـمَّار.

• أبـو فهـد: زوج أختـي، اعتُقـل في ١٣ شـباط ٢٠١٣، واختفـى منـذ ذلـك الحـين.

أبناء إخوتي الذين اعتُقلوا في أثناء الثورة:

• فهـد: اعتُقـل أربـع مـرات، ومـن بينهـا شـهر مـع صـدَّام، وعُـذّب تعذيبًـا شـديدًا. ثـم اعتُقـل معـي آخـر مـرة في آذار ٢٠١٢، وهـو مفقـود منـذ ذلـك الحـين.

• محمد: اعتُقل معي في آذار ٢٠١٢، واختفى منذ ذلك الحين.

• إياد: اعتُقل عدة أيام.

• داود: ابـن عمـي، اعتُقـل مـرة واحـدة، ومـات تحـت التعذيـب، ولم تُسـلّم جثّتـه إلى العائلـة

الفصـــل التاســع

مـرّةً جديـدةً صِرنـا (فهـد ابـن أخـي، وأنـا) مطلوبَـين. غادرنـا المنـزل وصِرنـا مشرّدَيـن، نتنقّـلُ مـن مـكانٍ إلى آخـر. توقّفـتُ عـن العمـل، وكان في رصيـدي شـهران مدفوعـاً الأجـر، فقـرّرتُ طلـبَ إجـازة. اعتُقِـل فهـدٌ في الديـر ثـلاث مـرات منـذ بدايـة الثـورة. كان في الثانيـة والعشريـن مـن العمـر، وهـو طالـب هندسـة مدنيـة.

كانـت والـدتي تعتنـي بـه كثـيرًا عندمـا كان صغـيرًا. أمُّ فهـد (والدتـه) هـي أختـي، كانـت معلّمـة، ووالـده مهنـدسٌ مـدني. كان منزلهـم عـلى بعـد خمـس دقائـق مـن منزلنـا. لـذا، أحَـبَّ «الهـرب» إلى عندنـا، إلى البيـت الكبـير، حيـث يسـكن اثنـان مـن أبنـاء عمومتـه حمّـود وإبراهيـم، وهـما ابْنـا شـقيقتي الأرملـة. كان يرتـاح في بيـت جـدّه وجدّتـه، وينـام في غرفتهـما.

أفهَمُـه تمامًـا، أفهـم حـبّ الصغـار لبيـوت الأجـداد. فيـه لعِـبَ مـع أبنـاء عمومتـه، وذهـبَ مـع أعمامـه إلى الخـان حيـث الأغنـام والحَـمام. يـترك المدرسـة، ويتوجّـه مبـاشرة إلى عندنـا. تقـول لـه والدتـه: «عُـد إلى البيـت»، فيجيبهـا: «هنـا بيتـي». تضحـك أمّـه فاقدة الأمـل مـن إقناعه، وتقـول لنا: «الحـلّ الأمثـل أن تتبنّـوه، ليصبـح ابنكـم».

بينـي وبينــه فــارق اثنــي عــشر عامًــا. تبنّيتُــه أيضًــا، ورأيتُــه يكــبر، فاهتممـت بتعليمـه الثـوري. لم يحمـل فهـد السـلاح بتاتًـا، ولا إخـوتي. العنـفُ لم يكـن في منهاجهـم، بـل دافعـوا عـن سـلميّة الثـورة ومـع ذلـك، قَبضـوا عليهـم.

ذات مـرة، اعتُقـل فهـد مـدة شـهرين. قُبِـضَ عليـه في الديـر، ثـم أُرسـل

إلى دمشــق، حيــث عُــذّب وكُــسرت ســاقاه. عندمــا أُفــرج عنــه كان في حالــة يُــرثى لهــا. ضيّــع حسّــه بالمــكان مــدة أســبوعَين. شُرّد عقلــه، وصــار يهــذي، ويهــين سـجّانيه.

«لا تخــرج بعــد الآن، لا تفعــل أيَّ شيء، ابــقَ في المنــزل، لا يمكننــا التعامــل مــع هــؤلاء النــاس»، هكــذا رجَتْــه والدتــه.
لكــنّ فهــدًا عنيــد. بعــد شــهر خــرج للتظاهــر، واعتُقــل مــرَّةً أخــرى، ثــم أُطلــق سراحه.

كنــا إذًا مطلوبَــين مــرّة ثانيــة. تشــاوَرْنا، وقرّرنــا مغــادرة الديــر إلى دمشــق. المدينــة أوســع، ســنغيبُ في الزحــام، ونضيــع بــين النــاس.

قرّرنــا الاســتقرار في العاصمــة نهايــة عــام ٢٠١١. فهــدٌ يعــرف عائلــة تســتطيع اســتقباله. أمّــا أنــا، فــلا أســتطيع التطفّــل. فمِــن غــير الحكمــة أن نبقــى معًــا، فــإن قُبــض عــلى أحدنــا، فَلْيبــق الآخــرُ حُــرًّا.
«كي لا تلاحظــك الأجهــزة عِــش في حيّهــم!» هــذا مــا فكّــرتُ فيــه. اســتأجرتُ غرفــةً فيهــا مطبــخ صغــير في كفــر سوســة (حــيّ جميــع أفْــرُع المخابــرات). نعــم، نِمــتُ في شــارعهم.

ثــم إنّنــي أعــرف شــخصًا قريبًــا منهــم، حــاول حمايتنــا، وشــاركنا في معلومــات عــن أصدقــاء مطلوبِــين. ســهرنا مــرّة معــه ومــع بعــض الزمــلاء. أوصلــوني إلى بيتــي، ومكثنــا أمــام البــاب فــترة كي يظــنّ مخــبر الحــي أنّنــي واحــد منهــم! إنهــا حِيَــلُ المخابــرات، مَــن لا يعرفهــا؟

قــوّاتُ النظــام تهاجــمُ وتحــاصرُ أحيــاء الغوطــة ـ مثــل داريّــا ـ في ريــف دمشــق. كنــتُ أعــرف داريّــا، كثــيرًا مــا زرتُهــا قبــل الثــورة، حــين كان عمــلي يأخــذني إلى دمشــق. هــي منطقــة ســكّانها ريفيّــون مــن الطبقــة

العاملـة. التقيـتُ في عـمان بزميـل لي في العمـل عنـد شـلومبرجيه، أعـارني شـقّته هنـاك. كنـتُ أصِـلُ إليهـا محمّـلًا بالجـبن واللحـم والزبـدة مـن مزرعتنـا، أقدّمها للجـيران. هكـذا توطّـدت علاقتـي بهـم. ورويـدًا رويـدًا فهمـتُ مَـن هـم الشَّـبّيحة داعمـو النظـام. معرفـة بواطـن النـاس في هـذا البلـد أمـر مفيـد.

في نهايـة عـام ٢٠١١، احتـاج سـكّان داريًّـا إلى حليـب لأطفالهـم، وبطانيـات وملابـس دافئـة وأدويـة. كثـيرًا مـا تَظاهـروا، وكثـيرًا مـا أُطلـق النـار عليهـم. بعـض الجرحـى خافـوا أن يقصـدوا المستشـفيات، كي لا يُعتـبروا مـن المتظاهريـن الإرهابيـين، فلـم يُعالَجـوا. بعضهـم اعتُقـل أو تعـرَّض للتعذيـب. نشـطاء داريًّـا المطلوبـون صـاروا فاريـن مـن وجـه «عدالتهـم». مـن جهتـي كنـتُ مطلوبًـا، أحمـل مجموعـة مـن بطاقـات الهويّـة المـزوّرة. لا مُـزاح مـع المخابـرات، ولا مـع نظـام ابـن كلـب.

❖ تقـع بلـدة داريًّـا عـلى بعـد ٨ كيلومـترات غـرب العاصمـة بحسـب مـا جـاء في «سـجلات الثـورة السـورية»، وهـي إداريًّـا تابعـة لمحافظـة ريـف دمشـق، تحدّهـا شـمالًا المـزّة ومطارهـا العسـكري وبلـدة المعضميّـة، وغربًـا جديـدة عرطـوز، وجنوبًـا صحنايـا، وشرقًـا قضـاء كفـر سوسـة وحـيّ القـدم. وتُعتـبر داريـا مـن أهـم بلـدات الغوطـة الغربيـة، ويعمـل قسـم كبـير مـن سـكانها بالزراعـة، وهـي معروفـة بكرومهـا وعنبهـا «عنـب داريًّـا» الـذي ارتبـط اسـمه بالثـورة. جـذور التسـمية سُريانيـة، وتعنـي «البيـوت الكثـيرة».

قبـل قيـام الثـورة بسـنوات، عَرَفَـت داريًّا تحـرّكات مدنيـة ومظاهرات، ضـد الغـزو الإسرائيـلي لمخيـم جنـين [الفلسـطيني] عـام ٢٠٠٢، وضـدّ

الغــزو الأمــيركي للعــراق عــام ٢٠٠٠. أيضًــا بــادرت مجموعــة مــن الشــباب إلى تأسـيس تجمّعـات هدفـت إلى تطويـر المجتمـع المـدني، فأخـذوا ينظّفـون الأمكنـة العامـة، ويشـجعون عـلى مقاطعـة السـجائر الأميركيـة، ويدينـون الفسـاد. سـارع النظـام إلى اعتقال أربعـة وعشرين شـابًّا. حُوكـم منهـم أحـد عـشر أمـام محاكـم عسـكرية سرية، بالسـجن مـدة ثـلاث أو أربـع سـنوات.

أيضًـا اسـتَدعت أجهـزة الأمـن خمـس عـشرة فتـاة، لكـنّ المجموعـة التـي تحمـل اسـم «داريًـا للسـلام» تابعـت عملهـا ثمـاني سـنوات قبـل انـدلاع ثـورة ٢٠١١.

في ٢٥ آذار ٢٠١١، أُطلــق عــلى تظاهــرة ذلــك اليــوم اســم «جمعــة الفخــر». خــرج أهــالي داريــا إلى الشــوارع أوَّل مــرة، دعــمًا لأطفــال درعــا. بعدهــا تتالــت المظاهــرات الحاشــدة أســبوعًا تلــو الآخــر في النهـار، وفي المسـاء عـلى ضـوء الشـموع. منـذ الأسـابيع الأولى طالـب المتظاهــرون بالحريــة، وسرعــان مــا هتفــوا بإســقاط النظــام.

في يــوم ٢٢ نيســان ٢٠١١، أُطلــق عــلى التظاهــرة اســم «الجمعــة العظيمـة». حـاول المشـاركون هـدم تمثـال حافـظ الأسـد. فاسـتخدمت قـوات الأمـن الغـاز المسـيل للدمـوع، وأطلقـت النـار بالذخائـر الحيـة، فقُتـل عـمار محمـود، ووليـد خـولاني، ومعتـز باللـه الشـعار، وهـم أوّل مـن سـقطوا في داريّـا. في اليـوم التـالي، سـار الآلاف للمشـاركة في جنازتهـم.

في الأول مــن أيــار ٢٠١١، حــاصر الجيــش داريًــا، وأقــام حواجــزَ عــلى مداخلهـا الرئيسـية، ثـم شـنّ حملـة اعتقـالات ضـد النشـطاء. واصـل

السـكان التظاهـر بأعـداد كبـيرة كلّ يـوم جمعـة، صباحًـا ومسـاء. شـارك الطـلاب في الحركـة، وعـلى الرغـم مـن فظاعـة القمـع، شـاركتِ النسـاء أيضًـا. اعتُقـل العديـد مـن الناشـطين، أشـهرُهم غيـاث مطـر، الـذي اشـتهر بالـورود وزجاجـات المـيـاه التـي كان يقدمهـا لرجـال الأمـن خـلال التظاهـرات. اعتُقـل في ٦ أيلـول ٢٠١١، وتُـوفي تحـت التعذيـب في ١٠ أيلـول ٢٠١١.

خـلال النصـف الثـاني مـن عـام ٢٠١١، انتـشرت دوريّـات الأمـن في الشـوارع للسـيطرة عـلى التجمعـات. ألقَـوا قنابـل غـاز مسـيّل للدموع، وأطلقـوا الرصـاص الحـي، لكنّهـم لم يتمكّنـوا مـن وقـف المظاهـرات التـي علـتْ وتيرتهـا في كانـون الأوّل خـلال «إضراب الكرامـة».

بعـد حملـة عسـكرية وحصـار وحـشيّ، وبعد مذبحـة أودت بحيـاة أكثر من سـبعمائة مـدني، أُطلق عـلى داريًّا لقب «سـتالينغراد السـورية» ❖

في دمشـق، تعرّفـتُ إلى: لينـا، وعمـر، ووافي، وأيهـم، وإبراهيـم. كنّـا نـوزّع المسـاعدات الإنسـانية عـلى الأحيـاء المسـتهدفة، مثـل: الحليـب، والملابـس، ومسـكّنات الألم، والمصـل، ومضـادات الالتهـاب، والكـمادات، وحقـن الكـزاز. أمـا المصابـون فكانـوا يُعالَجـون في أماكـن سرّيـة. كنـتُ أعـرف أطبـاء في دمشـق يزوِّدوننـا بالأدويـة. تنقلهـم لينـا إلى دومـا والغوطـة. أمّـا محمـد وفهـد، فقـد اهتـمّا بداريًّـا.

أحتفـظُ بذكريـات جميلـة عـن تلـك الفـترة. لقـد كنـتُ مطلوبًـا، نعـم. بَيْـد أنّ الحيـاة السريـة الخطـيرة مكثفـة. أعـود إلى شـقّتي كي أرتمـي مرهقًـا عـلى السريـر. أسـتيقظ صباحًـا لتنـاول الفتّـة الشـامية في منطقـة الميـدان، ثـم أجُـول في الأحيـاء: المـزّة، وبـاب تومـا، وجرمانـا، وركـن الديـن. أعيـشُ الخطـر، نعـم. حياتي خطـرٌ وقـوّة. إنِ اعتُقلت فسـأُقتلُ. لا

حواجـز في المدينـة حتـى الآن. التقينـا في مقهـى في أحـد أزقَّـة سـاروجة. «أصدقائي» في المخابرات أخبروني بأنني مطلوب.

❖ «في عـام ٢٠١٦، وافـق مـازن عـلى الإدلاء بشـهادته في وثائقـيٍّ بتوقيـع سـارة أفشـار، عنوانـه «مغيّبـو سـوريا: قضيـة ضـد الأسـد». يـروي هـذا الفيلـم الـذي عرضَتـه القنـاة الرابعـة البريطانيـة اختفـاء آلاف السـوريين وتعذيبهـم، ويتضمّـن وصفًـا لهـم بلسـان أحبّائهـم. وجـدَتِ المخرجـةُ وثيقـة أمنيّـة مكتوبـة بخـط اليـد، مؤلّفـة مـن عـدّة سـطور، ذُكِـر فيهـا اسـم مـازن: «رقـم ٣١٤، مرجـع: ٢٠٦٠٢، ١٩ كانـون الثـاني ٢٠١٢.

«مذكرة بحثٍ وتَحَرٍّ ـ الأمن السياسي».

مازن الحمادة بسيس ورفاقه.

إذا وجدتموهم، فالرجاء إلقاء القبض عليهم وجلبهم».

مذكّـرة الجلـب هـذه هـي ورقـة مـن بـين ٨٠٠٠٠ ألـف صفحة أرشـفَتْها منظمـة خاصـة، هـي «لجنـة العدالـة والمسـاءلة الدوليـة (سي.جـا)». مَحـاضر اسـتجواب، مذكّـرات جلـب، مَحـاضر اجتماعـات أعـلى أجهـزة النظـام، رسـائل رسـمية، وتعليـمات مكتوبـة، بعضهـا مُعَنـون «سرِّي للغايـة». هـذه الوثائـق وصلَـتْ إلى يـد الناشـطين والحقوقيين السـوريين حـين اسـتولى الثـوّار المسـلّحون عـلى مبـاني النظـام، وقـد أُرسـلت الوثائـق إلى أوروبـا لتحليلهـا في مختـبرات «لجنـة العدالـة والمسـاءلة». هـذه الوثائـق كنـز أرشـيفيّ مـن الأدلـة، التـي حُفظـت مـن الضيـاع والشـتات، وسـوف يَسـتند إليهـا المدّعـون في القضايـا المرفوعـة ضدّ مـن أجـرم بحـقّ سـوريا». ❖

الفصـــل العاشـــر

هاتفنـي فهـد وأبلغنـي أنّ: «طبيبـة تريـدُ لقـاءك». هـي مـن درعـا، لكنّهـا تعمـل سرًّا في داريًـا، وهـي محتاجـة إلى حليـب أطفـال وأكيـاس دمٍ وأدويـة.

ــــ أخبِرْهـا أنّنـا نسـتطيع لقاءها غـدًا في سـاروجة، ثم سـنذهب إلى الميدان مـع محمـد لنـأكل كـوارع غنم.

سـاروجة حـيٌّ قديـم وسـط دمشـق، فيـه أزقَّـة ومَتاجـر صغـيرة وبيـوت عربيـة تقليديـة، تَحـوّل بعضهـا إلى مَقـاهٍ.

في المسـاء، ذهبـتُ لتنـاول العشـاء عنـد صديقـي مُلهِـم مـن شـلمبرجيه، بدعـوة مـن والدتـه. فقـد نشـأت بيننـا علاقـة عائلية، وحـين أزور دمشـق أُحـضر لـه الجـبن مـن مزرعتنـا. في المسـاء أخـبرني أن الشركـة سترسـلني للعمـل في الأردن. جامـع جامـع (ابـن العاهـرة الـذي كان يديـر المخابـرات العسـكرية في الديـر)، اسـتدعاه وطلـب منـه أن يسـلِّمني.

ــــ بَدِّلْ رقم هاتفك وغادِر. وضْعُك أضحى خطِرًا.

ــــ للوطن وللثورة، أريد البقاء.

قبـل أيّـام، اتَّصَـل بي أحـد مديـرِي الشركـة لِيسـتفسر عـن مـكاني الجغـرافيّ:

ــــ أين أنت؟

ــــ في دمشق.

كنت أعرف أن هذا الرجل مقرَّب من المخابرات.

ــــ لنَلْتقِ.

ــ تمام، أعود إلى الدير صباح الغد.

استشعرتُ الفخ، فلِمَ لا أسخر منه؟

ــ أيّة ساعة؟

ــ سأصِلُ قُرب الظهر.

في اليوم التالي اتصلتُ به حوالي الساعة الحادية عشرة صباحًا.

ــ أين أنت؟ سألني.

ــ في المحصّن.

هـي منطقـة ينحـدر منهـا والـدي وجـزء كبـير مـن العائلـة، شرقـي الديـر. نمـرُّ عـبْر المدينـة للوصـول إلى هنـاك...

ــ ولكن كيف وصلتَ إلى هناك؟

ــ بكلّ بساطة، أرَيتُ الحاجز بطاقة هويتي وعبَرْت.

حينها فهِمَ أنّني أسخر منه. وقطعتُ المخابرة.

في يـوم موعدنـا مـع الطبيبـة، اتصلـتُ بفهـد وأخبرتُـه أننـي سـأكون في المقهـى ظهـرًا. يقـع المقهـى في بيـت قديـم مـن بيـوت سـاروجة، وهـو مؤلّـف مـن طابقَـين: المدخـل، والفِنـاء، والطـاولات الخشـبية، والوسـائد عـلى المقاعـد، والسـجّاد القديـم عـلى الحوائـط، ودرج يفـضي إلى الطابـق الثـاني، اختـاره الفنّانـون الشـباب مـن الجِنسَـين مـكانَ لقـاءٍ لـشرب العصائـر وتدخـين الأراكيـل.

لِكَـوني حـذِرًا، أجلـسُ دومًـا ووجهـي إلى الشـارع أو المدخـل. أمّـا فهـد الـذي ذاق أبشـع أنـواع التعذيـب عـلى أيـدي مخابـرات لا يُكِـنّ لهـا إلاّ الأسـوأ، فلـم يكـن يحتـاط بمـا فيـه الكفايـة، لربمـا بسـبب يُفُوعِه. لم

أكـن أريـد لـه أن يلتقـي بمـن قـد يعرّضـه للخطـر. فـإن جـرى توقيفنـا في الديـر، فسـيُهرع الأهـل والمعـارف إلى الدفـاع عنّـا؛ أمّـا في دمشـق، فمَـن سـوف يسـأل عنّـا ويسـاعدنا؟

أردتُ أن أعـرف مَـن هـذه الطبيبـة. يسـتحيل أن نقابلهـا في الشـقة التـي خزّنّـا فيهـا الأدويـة. بالنسـبة إلى النظـام، تُعتـبر المضـادات الحيويّـة وأكيـاس الـدم أكـثر خطـورة مـن الأسـلحة. كان فهـد يؤْمـن بالعنايـة الإلهيـة، وبـأن اللـه هـو الـذي سـيقرّر مصيرنـا.

«لنكـن حذريـن، ولنُخطّـط. وبعـد ذلـك، فلتكـن العنايـة الإلهيـة». هـذا مـا كرّرْتُـه عـلى مسـامعه.

حـين دخلـتُ المقهـى، نظـرتُ إلى مَـن حـولي. المـكانُ مزدحـم في هـذه السـاعة مـن النهـار. جلسـتُ في نقطـة تسـمح لي بمراقبـة الداخـل والخـارج.

وصلَتِ الطبيبة. كانت صبيّة، قدّرتُ أنّها في الخامسة والثلاثين.

ـــ سلام.

ـــ مرحبا، أنا مِن درعا، ولكني أعمل بين داريًّا والمعضمية.

ـــ أهلًا. إلى ماذا تحتاجين بالتحديد؟

ـــ أحتـاج إلى أكيـاس دم وحليـب للأطفـال وأدويـة بسـيطة. مـا الكميّة المتوافِرة؟

ـــ يـا لـه مـن سـؤال. هـل تريديـن بيعهـا؟ أم مـاذا؟ قـولي لي عـن حاجتـك كي أرى.

لينـاً تـزور الشـقة، وفي حوزتهـا قائمـة دقيقـة وواضحـة بمـا تحتـاج إليه: عـشرة أكيـاس مـن الـدم، وعشريـن علبة مـن المضـادات الحيويّـة مثلًا.

نثق بها، فهي صديقة. فهدٌ وأنا نَسخر منها بلطف: «هيا فهد، خذ القائمة وحضّر لها المطلوب؛ أما هي فسوف تجلي الأطباق».

بعد الاجتماع مع الطبيبة في المقهى، عدتُ إلى الشقة وجهزت حقيبة سفري، ووضعتُ فيها ما طلبَت. الملابس في القعر، ثم علب الحليب المجفف، والأدوية. تركت أكياس الدم في الثلاجة. قبل الخروج بقليل وضعتُها في الحقيبة ثمّ أضفتُ طبقة من الملابس للتمويه. فمَن يدري ما قد يحدث؟ مع فهد أقلَّتْنا سيّارة أجرة إلى ركن الدين، فوصلْنا وسِرنا باتجاه ساروجة. دخلْنا المقهى نفسه، وأنا أحمل حقيبة السفر.

جلستُ عند المدخل.

اتصل فهد بالصديق (صلة الوصل مع الطبيبة)، وطلب منه الحضور. ومن جهتي اتصلت بمحمد.

ـــ نحن في ساروجة، تعالَ وانضمَّ إلينا بعد ساعة، سنتناول الغداء في الميدان.

وصل الصديق والطبيبة، فأخذا الحقيبة وغادرا. بعدها وصل محمد وجلس مع فهد وهما يُديران ظهرَيهما نحو الباب. وأنا طلبتُ شايًا مرّة ثانية. رأيتُهم عند وُصولهم، رجالٌ مسلّحون في زيّ مدني. مثَّلتُ حركة تُوحي وكأنّني سأشهر مسدّسًا، بَيْد أنّهم سارَعوا إلى تصويب أسلحتهم نحونا. غطّوا رأسَي محمد وفهد بسترتيهما، ولكَمُوني وقلبوا قميصي لتغطية وجهي.

ـــ من أيّ فرع أنتم؟

أردت أن أعرف من هم.

ـــ سدّ بُوزك.

دفعونـا دفعًـا كي ننـزل الـدرج، وهـم يصفعوننـا عـلى الـرأس، ويركلوننا عـلى الأقدام.

نعم، آه، لم تمرّ مغادرتنا المقهى مُرورَ الكرام.

ـــ ما وِجْهتنا؟

ـــ سدّ بوزك.

اقتادونـا بـين الأزقَّـة قبـل أن نصـل إلى الشـارع الرئيـسي. كنـتُ أراقـب المسـار مـن خـلال قميـصي الـذي يغطـي وجهـي.

أُجْلِـسَ فهـد ومحمـد عــلى مقعــد الســيارة الخلفــي، وقــد ثُبِّــتَ رأسـاهما بـأذرع الضبّـاط؛ أمّـا أنـا فوضعـوني في الصنـدوق وانطلقـوا بنـا.

❖ انطلقـوا بـك، وانقطعـت أخبـارك. أكـواب الشـاي الثلاثـة التـي وُضعَـت عـلى طاولـة ذلـك المقهـى الجميـل في سـاروجة تَشـهدُ عـلى مـا حـدث. أُقفِـل صنـدوق سـيّارة «الهيونـداي» عـلى جسـدك المنثنـي. وأذرعُ القبضايـات يُطوِّقـان رقبتَـي فهـد ومحمـد. هـا أنتـم تنضمّـون إلى «شـعب الظِّـلّ»، شـعبٍ أُديـنَ بـلا سـبب.

اليـوم، ولّى زمـن الاعتقـالات البدائيّـة، تلـك التـي سـمعتُك ترويهـا، وابتسـامة متهكِّمـة ترتسـم عـلى شـفتيك. مـع بدايـة الثـورة، وصلَـت فيديوهـات إلى مَـرْأى العـالم ومَسْـمعه: الشـعارات، وأزيـز الرصـاص، والمظاهـرات، وقصـص مـن هـذا القبيـل. رأينـا كلّ ذلـك، ثـمّ رأيناكـم فَـوْر إطـلاق سراحكـم تَعُـودون إلى الشـوارع، رافعـين لافتـات يدويّـة الصنـع، ترفعونهـا عاليـة علّهـا تعانـق السـماء.

الآن، لم يعد القمع «البسيط» قادرًا على إسكاتكم. لقد سيطر الذعر على النظام، فلجأ إلى الخطف والتعذيب. تُطوِّق الدباباتُ الأحياء، وتُطلَق الصواريخُ على المنازل، والتفجيرات، والبراميلُ المتفجرة التي تُدفع بالأقدام من المروحيّات. نعم بالأقدام. نعم، رأى العالم هذه المَشاهد، عندما وثّق الجنود فرحتهم. يَقتلون على قاعدة «حظّك نصيبك»، ويُسقِطون براميلهم المعبّأة بالخردة. بعد ذاك، استَخدموا غاز السارين والكلور، فهجّروا آلاف الأطفال والنساء والرجال.

مقاومةٌ وموتٌ في الطرقات، وبيوت مدمّرة. صمتٌ وصراخٌ، صراخٌ يصمّ الآذان. وتحت الأرض، مَن يستطيع أن يسمع «شعب الأشباح» المتواري عن الأنظار والحُبّ؟ كيف لنا أن نقارب هذا الاختفاء، وهذا الغياب؟ لقد فقدتَ الوعي في ذلك اليوم من شهر آذار ٢٠١٢. مَن الذي سوف يخبر كيف ألقَوا بك في صندوق سيارة «الهيونداي»؟ ومَن الذي سيبلّغ والِدَي فهد ومحمد؟

رُعْب الدولة السورية ونظام الأسد عتيقان ومُقَوْنَنَان. ففي عهد حافظ الأسد (١٩٧٠ ـ ٢٠٠٠)، خيّم الصمتُ والتعتيم على ملفّ السجون، فأضحى المعارضون فئة لا يأتي المجتمعُ على ذكرها. هم في بالِ مَن يعرفهم طبعًا، بَيْد أنّ الحديث عنهم ممنوع. مَن يَجرُؤ على السؤال علنًا عن أخبار أحبَّائه المعتقلين أو المفقودين؟ مَن؟ يُعَدّون على الأصابع. يَهمسون همسًا، بالسرّ، في أمكنة مفتوحة حيث لا شاهد ولا رقيب. «مُخْتفٍ»، «أخوها مفقود»، «تبحث عن والدها المسكين الذي اختفى». يحاولون الكلام عن الموضوع بعيدًا عن الأطفال، كي لا يغلطوا في نقل ذلك إلى خارج البيت. مجرّد الكلام عن الموضوع أو لقاء بعائلة مفقودٍ، يُعرّض المتكلّم للاعتقال.

مع الثورة، شعَر النظام بالتهديد. ذُعِرَ، فأطلق العنان لعنفٍ من

طـراز غـير مسـبوق، ضدّ الشـجعان الذيـن تجـرّأُوا وطالبوا بالحريّـة والتغيير السـياسيّ. ١٠٠٠٠ ـ ٣٠٠٠٠ ـ ٨٠٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠٠ ـ ١٣٥٢٥٢، هـي أرقـام مَـن اعتقلهـم النظـام بـين آذار ٢٠١١ وآب ٢٠٢٢، أثنـاء مظاهـرة، أو عنـد حاجـز، أو وهـم عائـدون مـن العمـل، أو وهـم ذاهبـون لـشراء كيـس أرزّ مـن البقالـة. ٩٥٦٩٦ هـو رقم المفقودين السـوريين. خمسـة وتسـعون ألف اسـمٍ مـدوّن في سـجلّات «الشـبكة السـورية لحقوق الإنسـان»، الأمينـة على هذه المعلومـات المؤلمـة والأساسـيّة. سـوريا اليـوم بلـدُ المغيّبِين.

كلٌّ منّـا يحـاول تخيُّـل ذلـك الصقيـع، الـذي يسـتقرّ في حشـا المخطـوف المعتقـل. الخيـالُ لا يمـتُّ إلى الحقيقـة بصلـة.

«لم يَعُـد. شُـوهد مُغـادرًا برفقـة مسـلحين. وهـي لم تخـرج من المستشـفى. طرقـوا بعنـف بـاب الشـقة وأخذوهما».

لم تُخْـتَرعْ بعـدُ لغـةُ «مـا وراء الخـوف»، ولم نَخـترع بعـدُ لغـةً لهـذا الـدُّوَار الممـزوجَ بالهاويـة وبالعجـز، حيـث يتـدرج العقـل ومنطقُـه إلى بـرزخٍ بـين حيـاة ومـوت.

لا أدلّـة، ولا عناويـن لأماكـن الاحتجـاز. المختفـي شـبحٌ، والشـبحُ لا يوجـد. مُغيَّـبٌ مَمحُـوّ، فِكره ممزّق. هـو في وَحْدته في موت اجتماعـيّ، في اللاوجود، في الرعـب والتعذيـب. ذلـك جـبروت الأجهـزة القـادرة على تحصـين أسرارها.

في مـكانٍ مـا، هـوَى المفقـودُ، وصـار في عـالم آخـر مـا بـين حيـاةٍ ومـوت. أهو في قبـو أحـد المبـاني وسـط دمشـق، أمْ عـلى بعـد مئـات الأمتـار مـن سـاحةٍ مزدحمـة، أمْ في غرفـةِ مبنًـى في مطـارٍ عسـكري، أم في زنزانـة مركـزٍ للشرطة؟ هـي أماكـن عاديـة منتـشرة في جميـع أنحـاء البلاد. يمـرُّ النـاس في الشـوارع، وتسـتمرُّ الحيـاة. أمّـا رجـال المخابـرات، فهـم في مكاتبهـم يُسـيّرون أعمالهم الحقـيرة، وجِوارهـم تحتهـم فوقهـم معتقَلـون تُحِيـق بهـم الأسرار. ❖

الفصل الحادي عشر

حين يُقبَض عليك أوّل مرة في الشارع، كما حدث لي، تجتاحك الأسئلة.
مَن هؤلاء الأشخاص كي يهينوك؟ هل هم قطّاع طُرق أم رجال مخابرات؟

ضربوني، ضربوني على الرأس والوجه، فأضحى عقلي مشوّشًا. بعض المعتقلين ينهار منذ اللحظة الأولى. «أنت وحيد» قلتُ لنفسي. رَشّوا عليّ الماء كي لا أفقد الوعي. يهينونك. أنتَ مقيّد اليدين، عاجزٌ عن الحركة.

وصلْتُ بقميصي المميَّز بماركة «ستيفانيل»، وخاتمي الذهبي، ومحفظتي. وصلتُ «أنيقًا» إلى القسم. نظروا إلى هندامي وضربوني، وهم يفكّرون في أنّ مرتّباتهم الوضيعة لا تتيحُ لهم شراء قميص مثله، وأنّه بعد قليل سيصبح حقًّا لهم. طُلب منّا خلع ملابسنا. تيقنّتُ حينها أنّ قميصي ملطّخ بالدم. احتفظتُ بملابسي الداخلية، وسلَّمتُ ما أحمله من أوراق نقديّة (بضع مئات من اليوروات، و١٥ ألف ليرة سورية)، وهاتفًا خلويًّا. طبعًا دَوّنوا كلّ ذلك في سجلّاتهم، يا له من مُزاح!

أخذونا إلى «بُورة» مزروعة بالخِيَم العسكريّة، تحيط بها بعض المباني. بدا لي أنّنا حوالي أربعين معتقلًا في هذه الباحة، راكعين، منكّسي الرؤوس.

ضربونا بأعقاب كلاشينكوفاتهم، تارة على أرجلنا، وطورًا على رؤوسنا، وهم يردّدون:

ـــ إرهابي! إرهابي! إرهابي!

ثمّ صدح صوتٌ من المكتب الذي تَسلَّمُوا فيه محافظنا وهواتفنا:

ـــ لمن هذه الأموال الأجنبية؟

إنِ اعترفتُ، فسأتعرّض لمزيد من الضرب. سأنهزم. امتلاكُ أوراق نقَديّة أجنبيّة يعني الخيانة والعمل مع الأجانب في عُرْفهم.

ـــ لمن هذه الدولارات واليوروات؟

قرّرتُ قول الحقيقة:

ـــ لي.

ـــ تعالَ أيّها الحمار.

أُدخلتُ مكتبَ الرقيب.

ـــ رأسك إلى الأسفل. هل الدولارات واليوروات لك؟

ـــ نعم، إنها لي.

ـــ من أين حصلتَ عليها؟

ـــ أعمل في شركة نفطيّة، أرسلتني للعمل في الأردن، من هنا هذا المبلغ. أمّا خاتم الذهب عيار ١٣ غرامًا فهو هدية من والدتي.

الأوراق النقدية لا تعنيني؛ أمّا الخاتم الهديّة من والدتي التي توفيّت عام ٢٠٠٧، فنَعَم.

ـــ اصمُت، لا خاتم لدينا. كم دولارًا سلّمت؟

ـــ حوالي ٢٠٠ دولار، و١٠٠ يورو، و١٥ ألف ليرة سورية.

عندما غادرتُ المعتقل الأوّل، وكنتُ قد أمضيتُ فيه زهاء العام، في حزيران ٢٠١٣، وقبل نقلي إلى السجن، أرجَعُوا لي ٢٠٧٥ ليرة

ســورية، منهــا ٢٠٠٠ ورقــة نقديــة، و٧٥ قطعــة معدنيــة. ســلّمني الحــارس المبلــغ وهــو يَعُــدّه قطعــة قطعــة، مُوحيًــا أنّــه بتصرّفــه هــذا يعيــد لي كامــل المبلــغ.

ــ تمام؟ أينقصك شيء؟

لــو أجبــت بنعــم، لصُفِعــتُ وضُرِبــت، ولــصَرَخ الحــارس: «أيّهــا البغــل، أنحــن لصــوص؟!».

أســمَعُ رنــين القطــع المعدنيّــة في جيبــي؛ أمــا الــدولارات واليــوروات وخاتــم أمّــي، فاحتفَظــوا بهــا.

أبقَونـا مُطَأطِئـي الـرأس عـدة سـاعات في هـذه البـورة. كلّما مـرّ جنديٌّ أو حـارس نُـضرب. بعـد ذلـك... بعـد ذلـك أخذونـا، أخذونـا. مـا عـدتُ أذكــر. فقــدْتُ قــدرتي عــلى التركيــز. ضربٌ، ضربٌ في رأسي، ضجيــج. ززززززززززز، وبعـد ذلـك، أحتـاجُ إلى وقـت كي أتذكّـر. اقتـادوني إلى الزنزانــة.

ــ أين أنا؟

هو أوّل سؤال طرحته على نفسي.

أجابني المعتقلون:

ــ في مطار المزّة.

عنـد جميـل حسـن، رئيـس فـرع الجوّيـة المعـروف بشراسـته. كيـف لي أن آكل أو أشرب وأنـا في هـذا الفـرع. غفَـوتُ في وضعيّـة الجنـين مـدة يومـين كي أتأقلـم، وكي أتقبّـل خشـونة الأرض. ومـا شـمَمْتُه مـن روائـح العَـرق ذكّـرني بقـنّ الدجـاج. أَنْ يعتـاد المـرء هـذه الشـناعات لا يعنـي تقبُّلَهـا. كنـتُ أمـوت بالتأكيـد.

أخـذتُ أسـأل النـزلاء مِـن أيـن هـم. تَبـيّن أنّهـم مـن كلّ مـكان. أخـبرني رقيـبٌ فـارٌّ مـن الجيـش أنّـه من مُوحسـن.

موحســن هــي البلــدة التــي تنحــدر منهــا عائلــة والــدي، شرق ديــر الــزور. ولِكَـوني بِطبعـي شـكّاكًا سـألته عـن العائلـة، ومِـن أيّ جـبٍّ، ومِــن أيّ قبيلــة، كي أتحقَّــق مــن مصداقيّتــه.

هــو مـن عشـيرة البوخابـور، مـن قبيلـة العكيـدات، التـي تعيـش بـين العــراق وســوريا والأردن. يســكن أبنــاء عشــيرة البوخابــور في قــرى موحســن والمرعيــة والبوعَمْــرو. نحــن جميعًــا أبنــاء عمومــة. عرفْتُــه حــين سرد لي كلّ هــذه التفاصيــل. إنّــه لا يكــذب.

اســمي الكامــل ونســبي يعــودان إلى جَــدِّ الجــدّ: أنــا مــازن البســيس الهايــس الحُــمادة الفــواز الجابــر العُمَــر.

❖ كَتــب الصحــافي فــراس عــلاوي في موقــع «الجمهوريّــة» الإلكــترونيّ بتاريــخ ٢٨ تشريــن الأوّل ٢٠١٦: «عــلى يمــين ضفــة نهــر الفــرات لجهــة الــشرق، عــلى بعــد ٢٠ كيلومــترًا مــن مدينــة ديــر الــزور، تقــع بلــدة صغــيرة تتألــف مــن عنقــودِ قُــرًى أوسَــعُها موحســن. جِوارهــا المريعيــة والعبــد والبــولال والطابيــة والطــوب».

بمحــاذاة موحســن، عــلى طريــق المريعيــة باتجــاه الشــمال، تقــع منطقة البوعمــرو، حيــث وُلــد وعــاش والــد مــازن، قبــل أن يســتقر في ديــر الــزور عــام ١٩٧٠، ويشــتري أرضًــا.

يضيــف فــراس عــلاوي: «اســتنادًا إلى التاريــخ الشــفهي وإلى مرويّــات الآبــاء والأجــداد، وصلَتنــا قصــص المئــة عــام الأخــيرة مــن تاريــخ هــذه المنطقــة. أمــا قبــل ذلــك، فــما بقــي منــه شــذراتٌ تــكادُ أن تضيــع. اســم

المدينـة مكـوّن مـن شـقَّين: مـوح وحَسَـن، المـوح هـي الأرض التـي يغطّيها طوفـان النهـر[...] سـكان قـرى الموحسـن والعبـد والمريعيـة هـم أبنـاء عشـيرة البوخابـور التـي تنتمـي لقبيلـة العكيـدات الكبـيرة».

«مـع افتتـاح أول مدرسـة ابتدائيـة في قريـة موحسـن عـام ١٩٤٧، أدخَـلَ مـدرّس هـو مـدّاح الصايـغ العقيـدةَ الشـيوعية إلى ديـر الـزور، وقـد لعـب دورًا فعّـالًا مشـجعًا شـبابَ القريـة للالتحـاق بالحـزب الشـيوعي السـوري». لُقّبـت موحسـن بـ«موسـكو الصغـيرة»، وسـتتميز المنطقـة بـ«مسـتوًى تعليمـيٍّ عـالٍ، ونسـبةٍ أمِّيَّـةٍ تـكاد تكـون معدومة بـين رجالهـا، ومنخفضـة جـدًّا بـين نسـائها».

«كـما هـو حـال جـزء كبـير مـن الريـف السـوريّ، عانـت منطقـة ديـر الـزور مـن شـتّى أنـواع التهميـش في ظـل حكـم حافـظ الأسـد: تاريخـيّ واجتماعـيّ واقتصـاديّ، علـمًا أنّهـا غنيـة بزراعاتهـا مـن القمح والقطـن والشـمندر السـكّري والـذرة الصفـراء والخـضروات وغيرهـا مـن المحاصيـل. غيـاب أيّ مخطـط لتنميـة الزراعـة حـوّل موحسـن إلى منطقـة تملّحـت أرضهـا وتصحّـرت، فأضحـت غـير صالحـة للزراعـة، مـما دفـع العديـد مـن سـكانها إلى الهجـرة». ⁂

يخيَّـل للناظـر مـن بعيـدٍ إلى مطـار المـزّة العسـكري ومـا يحيـط بـه مـن مبـانٍ أنّهـا مَكاتـب، بَيْـد أنّهـا في الواقـع فصـولٌ مدرسـيّة تحوّلـت إلى زنازيـن، يُطلـق عليهـا تهكّـمًا اسـم «زنازيـن الدراسـة». في المـكان الـذي أقمـتُ فيـه يوجـد غرفتـان متجاورتـان، مسـاحة كلّ واحـدةٍ منهـا ٥ × ٤ أمتـار تقريبًـا، تتسـع لنحـو سـتين معتقـلًا، وأمامهـما فِنـاء صغـير في آخـره مراحيـض، تحيـط بـه أسـلاكٌ شـائكة.

مـن حيـث أنـت، لا تـرى العـالم. تنقطـع عنـه نهائيًّـا. انشـقّت الأرض وبلعَتـك. أنـت لم تعـد مـن هـذا العـالم، أخفَـوك عنـه.

فَـوْر وصـول شـخصٍ جديـد، تسـأله عـن الأخبـار. بعضهـم يجيـب، وبعضهـم لا، حـذَرًا، خوفًـا، مـن يـدري؟ سـألني المعتقلـون: «مـاذا يحـدث في الخـارج؟»، كذبـتُ وأجبـت: «لا أعـرف، لمـاذا؟». لِكَـون المخابـرات لنـا بالمرصـاد، يريـدون الحصـول عـلى مـا لم يحصلـوا عليـه تحـت التعذيـب. بعـض السـجناء مسـتعدّ للتعـاون؛ أمّـا أنـا فابْـنُ بلـد، وأعـرف خِدَعهـم.

ـــ أنا طبيب، أنا طبيب!

وصل إلى زنزانتنا نزيلٌ جديد.

ـــ «اهدأ، اهدأ، اهدأ» قلنا له.

بَيْد أنّه كرّر مذعورًا:

ـــ أنا طبيب، أنا طبيب.

أشعر به. أعرف ما يمرّ به من صدمة.

فبعـد قضـاء الموقـوف سـاعاتٍ في «ضيافـة» رجـال أمـنٍ يصفعونـه، ويكيلـون لـه الشـتائم، يقـوم الحـارس بدفعِـهِ بركلـةٍ إلى الزنزانـة الجماعيـة، حيـث يجدنـا. الخـوف يتغلغـل في الأحشـاء. وبعـد مـا يمـرّ بـه السـجين، يكُـون المرحـاض ضرورة قصـوى. في الزنزانـة التـي سُـجنتُ فيهـا حـين اعتُقلـتُ أول مـرة، ثـمّ عـدت إليهـا عـدة مـرات، مرحـاضٌ فيـه إبريـق مـن البلاسـتيك، نملأه بالمـاء ونفرغـه عـلى رأس الشـخص الجديـد، ليَخـرج مـن ذهولـه. المـاء البـارد منبّـه ممتـاز.

نغتسـل صيفًـا شـتاء بنفـس الإبريـق. الحـمام في فصـل الشـتاء والمـاء متجمـد، تمريـنٌ صعـب. كنـتُ أتـردّد، أسـتجمع كلّ إرادتي قبـل أن أسـكبَ المـاء عـلى رأسي المتّسـخ. أوه، بـررررد.

سُـمح لنـا باسـتعمال المرحـاض مرتـين في اليـوم: بـين الإفطـار والغـداء، وقبـل العشـاء فقـط لا غـير. الخـروج عـن النظـام ممنـوع طبعًـا.

جرّبـتُ زنازيــن كثـيرة، كبـيرة، وصغـيرة، أصعبُهـا السـجن الانفـراديّ. ظننـت وأنـا فيـه أنّنــي سـأموت.

أحيانًـا، تكـون المراحيـض في الخـارج. نَخـرج في صـف، عـشرة عـشرة، ورؤوسـنا مطأطِئـة. نتعـرّض للـضرب عـلى الطريـق، بَيْـد أنّنـا نـرى السـماء مـن خـلال الأسـلاك. مراحيـض بعـض السـجون في الجـزء الخلفـي مـن الزنزانـة. نقـوم اثنـين اثنـين، ويُسـمح لـكلّ واحـدٍ بدقيقة. ولِاكتظـاظ السـجون قـد تحتـاجُ هـذه العمليّـة إلى سـاعتين. السـجين المسـؤول عـن الزنزانـة ـ ولقبـه السُّـخرة ـ قـد يتيـح لنـا وقتًـا إضافيًّـا لقضـاء حاجاتنـا، عالِـمًا أنّـه قـد يُعاقَـب بسـبب ذلـك.

أحيانًا يسرّع وتيرةَ العدّ كي يستعجلنا:

ــ ٢، ٤، ٦، ٨، ١٠، ١٢، ١٤، ١٦.

لا تسـتطيع إخـراج مـا في أمعائـك قبـل نهايـة الأسـبوع، وحـده التبـوّل مسموح.

ــ هيّا، عجّلوا!

السُّـخرة يحثّنـا همسًـا عـلى أن نـسرع. إذا مـا سـمعه السـجّان، نـراه يَدخـل الزنزانـة سـائلًا:

ــ من الذي يسبب المشاكل؟

هكذا يعاقِبُ كلّ من لا يسرع.

في الطابور، نغنّي كي يمرّ الوقت كي نهدأ وننسى العالم الخارجي.

مَن يفكّر في عائلته يُجنّ. عيونك تخرج من مآقيها.

لا تستطيع، لا... وإلّا فستنهار... لا... ما نعيشه فوق طاقتنا.

حذّرني إخوتي: «لا تفكر في الخارج». لقد مرّوا بالتجربة قبلي.

أبـو الجـود قـضى خمـس سـنوات في السـجن في الثمانينيـات. أبـو الجـود وعبـد العزيـز رجُـلان مـن الصلابـة بمـكان. لكَـمْ أفتقدهـما. لكَـمْ فرّقَـت بيننـا الأيّـام.

في الزنزانـة الكبـيرة، التـي اسـتُعملتْ ذات يـوم قاعـةَ درسٍ وتدريـبٍ للطيّاريـن العـرب، منصـةٌ، لربَّمـا وقـف عليهـا الأسـتاذ، وجوارهـا المراحيـض. مَـن أنهكـه التعذيـب وصـار يتبـوّل باسـتمرار، ينـام هنـاك، وقـد أُطلـق عليهـا اسـم «منصّـة المتبوِّلـين».

المـوكل بالزنزانـة، وهـو غـير السُّـخرة، ليـس متعاونـًا بالـضرورة. غالبًـا مـا يكـون سـجينًا محكومًـا بجنايـة، وهـو مـن يقـرّر لـك مكانـك فـور وصولـك. انتقـاه الحـراس للتجسّـس علينـا، ونقـل مـا نتحـادث بـه.

أحمـد الحمـصي فاسـدٌ، وغْـدٌ حقيقـي، قـذِرٌ بـكل معنـى الكلمـة. هـو مـن سـوف يُدخـلُ الهاتـف الخلـوي لاحقًـا. يَحصـلُ عـلى سـجائر، ويدخِّـن في المراحيـض.

نحن نكتفي بالدخان المتسرّب إلينا.

«رائحـة السـجائر... رائحـة السـجائر...» نتهامـس. تَصـوّرْ صداعَنـا ـ نحـن المدخّنـين الحقيقيـين ـ وقـد حُرمنـا النيكوتـين.

أتذكّـر دخـولي الزنزانـة والمرحـاض أوّل مـرّة. أتذكّـر كيـف سـارعوا إلى اسـتجوابي كـما اسـتجوَبْنا الطبيـب.

ـــ من أين أنت؟

ـــ من جرمانا.

ـــ ما سبب اعتقالك؟

ـــ أخذني الأمن من عقر داري.

ـــ كيف تسير الأمور؟

ـــ التظاهـرات مسـتمرة، والجيـش الحُـرّ حَـرّر هـذا المـكان وذاك. النظـام سـينهار.

بعد أسبوعين مِن وصولي، استدعاني الحارس.

ـــ قوموا جميعًا، لا أريد أن أسمع صوتًا. لِيَستمعِ الجميع.

يقـرأ أسـماءَ المسـاجين الذيـن سـيُنقلون إلى مـكانٍ آخـر. «عندمـا تسـمع اسـمك، تجيـب: حـاضر. اسـتعِدّ. إلى البـاب».

يغـادر لحظـاتٍ، ثـم يعـودُ ويَعصـبُ لنـا أعيننـا، ويقيّـد أيدينـا بكلبشـاتٍ بلاسـتيكية. نَخـرج ونسـير في طابـور، واحـدًا واحـدًا، واضعين يدنـا عـلى كتـف السـائر أمامنـا. رحلـة عميـاء، مـتردّدة. أرسَـلونا إلى مبنًـى آخـر، ووزّعونـا عـلى زنزانـات أصغـر. سـمعنا الحـارس يفتـح البـاب.

ـــ هيّا، ادخُلوا.

ممرٌّ على جانبيه زنازين.

ـــ من معك؟

همستُ للواقف قبالتي، بعد أن تحقَّقتُ من ابتعاد الحارس عنّا.

أجاب بصوت متعب: «هذا، وهذا، وهذا».

ـــ هل تعرّفتَ إلى مساجين من الدير؟

ـــ لا، من حمص وحماة.

مكثتُ ثلاثة أشهر تقريبًا في هذا المكان، ثمّ حان وقت الاستجواب.

الفصــل الثـاني عشـر

غرفــةٌ في ســقفها شــبك مغطًّــى بقــماش ســميك يحجــب أشــعّة الشــمس، ولهــا نافذتــان. هنــا غرفــةُ التعذيــب.

راكعٌ، معصوبُ العينين، معصوب اليدين خلف الرأس.

ــ اسْمُك؟

ــ مازن الحُمادة.

ــ ما الذي فعلته؟

ــ لا شيء.

ــ لا شيء؟ ذهبتُ إلى المظاهرات.

وجـدوا مقاطـع فيديـو نشرْتُهـا عـلى حسـابي الفيسـبوكي، وبثّتْهـا قنـاة ديـر الـزور الإخباريـة عـبر اليوتيـوب.

ــ نعم، صوّرتُ المظاهرات لتوثيق ما يحدث.

ــ وماذا أيضًا؟ لقد فعلتَ أكثرَ من ذلك بكثير.

ــ لا، لم أفعل أكثر من ذلك.

أطفأوا سجائر على ساقيَّ، وسكبوا الماء، وصعقوني بالكهرباء.

اعترفتُ بأسماء أصدقاء لي قُتلوا في دير الزور.

عليك أن تعترف بأشياء أخرى. عدد الأسلحة التي خَزّنْت.

ـ ليس لديَّ أسلحة، أنا أكره الأسلحة. سلاحي هو كاميرا التوشيبا.

«اســتَبْقُوه ريثــما أدخــنّ ســيجارة» قــال أحــد الضبــاط لمســاعديه.

«وعندما أعـود، أريـده أن يعـترف بأنّـه قَتـل جنـودًا وصنـع قنابـل».

عاد.

ــ حدِّثْني عن أسلحتك. ستُوقِّع على هذا الاعتراف.

ــ لا أسلحة لديّ.

يريـدون منـك أن تعـترف بأسـلحة لم تكـن يومًـا معـك، وبأنـك قتلـت جنـودًا، وزرعـت متفجـرات، وذلـك لتلطيـخ سـمعة الثـورة، وليثبتـوا أنّنـا إرهابيـون.

أمســك بي أربعــةٌ مــن مســاعديه، كلابٌ ضاريــة. لكَمُــوني وركلــوني وضربـوني بماسـورة، ثـم داسـوا عـليّ وكسروا أضلاعـي. فعانيت أسـابيع بعـد ذلـك مـن صعوبـة في التنفـس.

بعـد ذلـك، عَلَّقُـوا يـديّ بنافـذة عـلى ارتفـاع أربعـين سـنتيمترًا مـن الأرض. الأصفــاد التــي تقيّــد يــديّ تجرحنــي. أصرخ... سَــدّوا فمــي بحــذاء.

ــ بوزك.

عُلّقتُ أكثر من مرّة.

ــ أخبِرْنا عن الأسلحة.

ــ لا أسلحة لدي.

أخـذوا مِشـبكًا مـن حديـد يسـتعمله السـبّاكون، ووضعـوه حـول قضيبــي وأخــذوا يشــدّون.

ــ هل تعترف أم أقصّه؟

شـعرتُ بعصًـا تُدخَـلُ في مؤخـرتي. لم أعـد أعـرف أيـن أنـا ومـن أنـا. فانتهـى بي الأمـرُ معترفًـا بـكلّ مـا يرغبـون.

ــ ما الأسلحة التي كانت لديك؟

ــ ما السلاح الذي تريدني أن أحمله؟ أخبرني وأنا أعترف.

ــ الأمر لك، أخبِرْنا.

ــ كان عندي كلاشينكوف.

ــ بكم شاحنٍ؟

ــ خمس رصاصات. أحتاج إلى شاحِنَين، كان لديَّ شاحنان.

التعذيـبُ فـنٌّ. يُرغمـكَ السَّـجان عـلى الاعـتراف، ثـم يطلـب منـك التوقيـع عـلى إفادتـك. أنـت لا تعـرف عـلى مـاذا سـتوقّع، لكنّهـم يحذّرونـك: إن كـرّرتَ شـنيعتك فـلا مفـرّ مـن المـوت.

نعم، القتلُ من فنونهم.

أُحـضرَ صبـيٌّ مـن داريـا يبلـغ مـن العمـر ١٧ عامًـا. أُخـذ رهينـة لإجبـار والـده الداعـم للجيـش السـوري الحُـرّ عـلى تسـليم نفسـه. محمـد. عندمـا عَلِـم الحـرّاس أنّـه مـن مواليـد هـذه الضاحيـة التـي وقفَـت في وجـه بشـار، أحرقـوا وجهـه وصـدره وظهـره. رأيتـه يـذوي.

بقينـا يومَـيْن ونحـن نحـاولُ في الزنزانـة مواسـاته. جُننـت. صرخـتُ في وجـه السـجَّانِين.

فعلّقوني على النافذة.

دَعُوني أَمُتْ هنا. لِيتوقّفِ العالم.

❖ «بعد اثنين وعشرين عامًا، ما زلتُ مُعلَّقًا من ذراعيّ المخلَّعَين على ارتفاع متر واحد من الأرض. يَضيقُ نَفَسي، وألُوم نفسي».

كان في سنّ الواحدة والثلاثين، عندما اعتقلتِ الشرطةُ السِّرِّيّة الألمانية «الغيستابو» في بلجيكا في تمّوز ١٩٤٣، النمساويَّ الأصل جان أميري، متّهمةً إيّاه بالنضال في صفوف المقاومة الشيوعية. وبين أنفرس وبروكسل عُذّب في حصن بريندونك قبل أن يُقتاد إلى معسكر أوشفيتز. في عام ١٩٦٣، حين بدأت محاكمة أوشفيتز الشهيرة في فرانكفورت، قرّر كتابة «ما وراء الجريمة والعقاب: بحثٌ في تَخطِّي ما لا يُحتمل»، الذي صدر بالألمانيّة عام ١٩٦٦، وبالفرنسيّة عام ١٩٩٥.

تعذيب الإنسان للإنسان صدمة جعل منها محور تفكيره.

بلا سابق إنذار صُفعتُ. «يَفقدُ السجينُ كرامته في تلك اللحظة». «يفقدُ ثقته بالعالم»، بالعالم الذي تَوانى في نجدته. جِلدُهُ. أيحميه جِلده؟ أيحمي حمِيمه؟

المُعَذَّبُ عارٍ.

كتب جان أميري: «ها أنا معلّقٌ، ويداي مقيدتان خلف ظهري، في أقبية هذا المعتقل. في إحدى اللحظات تَمزّقَ الجزء العلوي من جسدي. تَمزُّقٌ لا ينساه جسدي حتّى اليوم. انخلع كتفايَ، فما يحملانه فوق طاقتهما. سقطتُ في الفراغ، وأصبح جسدي معلقًا بالذراعين، المخلوعَين المنفرِجَين للأعلى وإلى الخلف فوق رأسي.

أصول كلمة «تورتور» [التعذيب] الفرنسية: «توركيري» اللاتينية، وتعني التفكيك. نعم، التعذيب يُفكّك البَشر. توركيري اللاتينيّة هي عين المعنى. هنا تَكمن قوّة التعذيب.

بعـد اللكمـة الأولى يسترسـلون في التعذيـب. بعـد اللكمـة الأولى يبـدأ التعذيـب الفعـليّ. تعذيـب يَـترُكُ ندوبًـا لا تَمّحـي، وكسـورًا، وتمزّقـات نهائيّـة. مِـن بعدهـا، يسـتحيلُ المُعَـذَّبُ رجـلًا آخـر: «رجـلًا وحيـدًا مـع جرحـه، في عزلـة تامّـة عـن عشـيرته».

يُفـرضُ عليـه الصمـت. أُسْـكِتَ بعـد أن أُرغِـمَ عـلى البـوح باعترافـاتٍ ومعلومـاتٍ كاذبـة. هـي خدعـة يُتقنهـا الجـلّادون مسـتهزئين مـن الصـدق. ❖

الفصــل الثالـث عشـر

القطعان أكثر تنظيمًا ونباهة.

فحـين تُصـابُ الأغنـامُ بمـرضٍ مـا، ونُقـرّر رشّ صوفهـا بمـادة كيميائيـة مضـادَّة للطفيليـات، نَعـرفُ أنّ الـدواء مزعـج. لـذا، نَفتـح «سُـكْرَ» البـئر كي يتدفّـق المـاء. تصِـلُ الأغنـام، واحـدة تلـو الآخـرى، وتُعـرّض نفسـها للـماء، وتُغـادر لإفسـاح المجـال للآخريـن: يصـل الخـاروف، ويبقـى لحظـات في المـاء ثـمّ يرحـل، هكـذا بـكلّ بسـاطة.

في السـجن، الوضـع مختلـفٌ. يتشـاجر البـشر ويُـصرّون. أبسـبب المـرض والألم؟

أحـضَرَ لنـا الحـراس برميـل مـاء، وضعـوا فيـه مـواد مطّهـرة، وقالـوا: «مَـن معـه جـرَبٌ فلْيَخـرج». وبـلا احتيـاط سـكبوا المحلـول والمـاء عـلى الأجسـاد المريضـة. بعـد عـشر دقائـق احمّـر جلـد مـن خضعـوا لهـذا الحـمّام، وسـمعناهم يصرخـون: «تَوقّفـوا. توقّفـوا. هـذه المـادة

نـار تُحرقنـا».

«نعالـجُ الأسرى»، هـذا هـو الانطبـاعُ الـذي يسـعى رأس الهـرم للترويـج له .

في أكيــاس تُســتعملُ لتغليــف الخبــز، توضــع كميّــة مــن الأدويــة المسـكِّنة. يُقـتِّر السـجّان في توزيعهـا، مُقيِّـمًا بنفسـه شـدّة المـرض: مـن أربعـة إلى خمسـة أقـراص باراسـيتامول لــ١٨٠ سـجينًا!

رأيـت سـجينًا بُـترتْ أصابعـه، مصابًا بالغرغرينـا، عالقًا في فتحـة صغيرة أعلى البـاب، يُـضربُ وتُكـسر أسـنانه، ثـم يُخـرَجُ مـن الزنزانـة. نراقـب المشـهد، ونكـزّ عـلى أسـناننا، ونصمـت.

ما من راعٍ يَزرب ١٥٠ خروفًا في حظيرة سَعتُها خمسون.

أمّـا نحـن، فمئـة وثمانـون شـخصًا، بملابسـهم الداخليّـة، والقيـح يَخـرجُ مـن بعـض الأرجـل، مكدّسـون في زنزانـة مسـاحتها أحـد عـشر مـترًا في سـتة أمتـار.

يدفعـك جـارك، وهـو لا يعلـم أنّـك مجـروح. ووسـط ازدحـام الأجسـاد هـذا، في الظـلام، مـاذا يمكنـك أن تـرى؟ إن أخـذ جـارك كـسرة خبـزك، تبـدأ المُشـادَّة.

يجوّعوننا كي نقتتل. لا دين للجوع. الجوع كافر.

أحدهـم جُـنّ بسـبب الحـرّ والازدحـام. صـار يمـشي فـوق الآخريـن، ويقـرع البـاب بقـوّة.

«مـا سـبب سـجننا يـا ابـن الكلـب؟ ملعـون بشـار، ملعـون أبـو بشـار، ملعـون حافـظ، ملعـون أبـو حافـظ...».

وعليـه، دخـل السـجّانون: «وجوهكـم إلى الحائـط». ويبـدأ الـضرب. نقـع. بعضنـا يختنـق. يقبضـون عـلى الأحمـق. انظُـرْ مـن الكـوّة: ربَطـوا يديـه خلـف ظهـره وعلّقـوه إلى سـقف الردهـة، وأمعنـوا في ضربـه. جسـده كبنـدول السـاعة. تـوك، تـوك، تـوك... سـمعتُ صـوت انخـلاع كتفـه.

جنون القيظ. نحن نختنق.

المـرضى، وكبـار السـنّ، بعضهـم مـات اختناقـًا. المحظـوظ مَـن يجـدُ مكانـًا قـرب البـاب ليتمكـنّ مـن عَـبّ قليـلٍ مـن الهـواء. هـذه الأمكنة قـرب البـاب، وقـرب كـوّة السـقف، لا يُتخـلّى عنهـا بسـهولة. فالهـواء عـلى شُـحّهِ عزيـز.

نسـتفيد وُسْـعَنا مـن هـواء مروحـة تعمـل أحيانـًا في الزنزانـة المجـاورة. حـين تنقطـع الكهربـاء نمـوت فـوق موتنـا.

الفصـل الرابـع عشـر

كنّـا نغنّـي بصـوت منخفـضٍ، علّنـا نرتـاح. نحـن مئتـان في الزنزانـة، والـكلّ أخـذ يدنـدنُ، فاسـتحال الغنـاءُ جلَبـةً. «اصمتـوا» قـال الحـارس، «ولا كلمـة».

إنْ سـمعوا ضجيجًـا يَحـضرون ويضربوننـا بالعـصي، أو يفتحـون صنبـور خـزّان الميـاه، فنغـرق حتّـى الركـب، ونبقـى مسـتيقظين واقفـين طـوال الليـل، وأحيانـًا يومًـا أو يومـين.

ونحـن متلاصقـان، أخَذْنـا فهـدٌ وأنـا نُدَنـدن بِبُـطء. الاسـتلقاء ـ ونحـن

في هـذا الوضـع ـ مسـتحيل. دنْدَنّـا:

«طيّبْ إذا مْنِرْجَع، بتُوعِدْنا تِسْمَعْنا؟

ماشي يلّا اِسْمَع، هايِي مَطالِبْنا.

بَدْنا أصابِعْ نَصْر، نِرفَعْها فُوق القَصْر

بَدْنا الصُّبح والعصر، تِمرُق وتِفْقِدْنا.

بَدْنا دمِّ الشُّهَداء، ويِرجَع نهر برَدَى

والقصة مَعْ سَرْدَا، ليش كِنِتْ تِقْتِلْنا.

وتْلِمْ كِلْ دَمْعة، نِزْلِتْ بكِلْ جِمْعَة

كلْ إصبَع بْشَمْعة، يضَوّي لْنَا وِجْهِتنا.

بَدِّلِلْنَا اللَّمْزِة، والقاف بالهمْزِة

ورَجِّعِلْنَا حمزِة، وهاجَرْ وإخوِتْنا.

حَبْل الصدق مِدُّو، مِلْكِ البَلَد رِدُّو

ولِسَّا الشَّعب بَدُّو، تِرْحَل وتِتْرِكنا

ترحل وتتركنا...».

«يا خاين يا ابن الخاين، اِلْغي القانون الثامن

بدنا حرّية إعلام، ما بدنا كلاب النظام

فكّك الفروع الأمنيّة ، اشتقنا لزمن الحريّة

قانون الطوارئ باطل، إِلْغِي هالقانون الفاشل ...».

أحـد المعتقلـين كان يُنشـدُ مواويـل عراقيّـة. كنـتُ أجلـسُ جـوار ضابط سـابق مـن حمـص لتبـادل أطـراف الحديـث، فأسـمعه ينشـد مواويـل ريفيّـة خاصّـة بمنطقتـه، وحـين يوهــن صوتـه أُعِينـه بمـوَّال عراقـي، وهكـذا. الغنـاء يسـتحضر الدمـع. بكيْنـا أحيانًـا.

متـى غنّينـا أكـثر مـرَّة؟ سـاعة توزيـع الغـداء ظُهـرًا والـكلّ يتحـرّك. وحـين يَفتـحُ السَّـجّانُ البـاب، عـلى الجميـع الوقـوف والنظـر باتّجـاه الحائـط. يأخـذ السُّـخرةُ الأوعيـةَ، ويَخـرج لإحضـار الطعـام.

كنــتُ السُّـخرةَ أحيانًــا. أعْـرِف هــذه الصحـون البلاسـتيكيّة الخمسـة والعشريــن، التــي لا تَصـدر خشخشــة ولا تــؤذي كالمعــدن.

عـثروا مـرةً مـع سـجين عـلى قطعـة حديـد. أتعرفـين مـا كان عقابـه؟ أولاد الكلــب. ظـلّ شـهرًا في الاسـتجواب:

ــ كيــف حصلــت عــلى ذلــك؟ كيــف حــدث ذلــك؟ كيــف وصلَــت قطعــة الحديــد إلى يــدك؟ مــا نيّتــك؟ مــاذا تُخطــط؟

أبناء الكلب. لقد كانوا خائفين في الواقع.

أنا مُتعَبٌ، متعبٌ. لو تعرفين...

مـرّةً رمَـوا بي ثلاثـة أيّـام في زنزانـة مليئـة بالقـاذورات. لـو بقيـتُ يومًـا إضافيًّــا لَجُننــت. أحــضَروا لي طعامًــا وســط هــذا القــرف. كنــتُ في ملابــسي الداخليّــة المتّســخة الكريهــة الرائحــة.

يـا لهـا مـن نكتـة! عُوقبـت بسـبب هاتـف تمَكّنّـا مـن إدخالـه الزنزانـة. رمَـدَ العـين ولا العمـى.

مـع الجلَبَـة التـي تَحـدث حـين يُدْخِـلُ السُّـخْرةُ أطبـاق الأرزّ، كان الغنـاء وتبـادُل الأحاديـث أسـهل. حينهـا يَنقـرُ السَّـجان بعصـاه عـلى شـبكة التهوئـة كي نخفـض أصواتنـا.

أيضًـا غنّينـا ونحـن في طريقنـا إلى المرحـاض. دعينـي أرسـم لك المشـهد: أحيانًـا يكـون المرحـاض داخـل الزنزانـة. هنـا البـاب. أتَرَيْـن؟ السـجّان بعيـدٌ عـن البـاب، ولـن يسـمعنا.

فهمتِ؟

أثنـاء قيامـي بمهمّـة السُّـخْرة غنّيـتُ للسـجناء المنتظريـن دورهـم أمـام المرحـاض. السُّـخْرة ينـام أمـام هـذا البـاب؛ إذ هـي فرصتـه ـ بسـبب «سـلطته» ـ لـكي يتمـدّد.

كان في الزنزانـةِ شـابٌّ اسـمه صالـح، مـن الغوطـة في ريـف دمشـق. يُدَنـدنُ بصـوت حنـون ورخيـم أغـانِيَ عراقيّـة. صالـح لطيـفٌ جـدًّا.

عـلى مسـافة قريبـة مـن المطـار، حيـث زنازينُنـا، كان الجيـشُ يقاتـل الثـوّار في بلـدة المعضميـة. وبسـبب المناوشـات، وكي لا يجـري الهجـوم عـلى المبـاني، قطعـوا عنّـا الكهربـاء، فتوقفـت المروحـة، وكدنـا نختنـق. اقـترب صالـح مـن البـاب، وأخـذ يقرعـه لتنبيـه الحـراس.

ـــ مَن الكلب الذي يقرع؟

دخلوا واقتادوه، وضربوه، ثم أعادوه إلى الزنزانة جثّة هامدة.

عمّـت الفـوضى في الزنزانـة. بكَينـا. دخـل السـجّانون ومُسـاعدوهم، خمسـة أو سـتّة. ولِكَـوني السُّـخرة حملـتُ الجثّـة مـع سـجين آخـر. إنّهـا الجثّـة الثانيـة التـي كُتـب لي حمْلُهـا.

الفصـــل الخامـس عشـر

رأيتُ جثثًا كثيرة في الزنازين.
بَيْـد أنّ الجثّـة الأولى، التـي يُكتـب عليـك حمْلُهـا إلى الخـارج، أشـبهُ بنصـلٍ يخترقـك.

المـوتُ، مـوتُ سـجين، مناسـبةٌ للتفكّـر، ولتـلاوة آيـات مـن القـرآن، ولإخفـاء الدمـوع. وسَـط الآهـات والروائـح الكريهـة، يرحـل أكثرنـا هشاشـةً كلّ يـوم. نُـدْني المحتـضِر مـن شـبابيك التهوئـة مـن البـاب، كي يتنفّـس نفسـه الأخـير.

حين يدنو أجلُ أحدِنا نَقرعُ معدن الباب.

ـــ اترُكوه. حين يموت سنفتح.

ويتكرّر المشهدُ كلّ يوم.

هــو مــن ضواحــي دمشــق. تَظاهَــر، فاتُّهِــم بالانتــماء إلى الجيــش السـوري الحُـرّ، وحمْـلِ السـلاح. ضربـوه بأنبـوب بلاسـتيكي عـلى الرأس والعينـين؛ رأسـه كاد ينفصـلُ عـن جسـده. حملنـاه إلى المنصـة في آخـر الغرفـة. ظـلّ يحتـضر مـدة يومـين. هـو جُثّتـي الأولى.

لففْتُـه ببطانيـة عسـكرية عشْـعَش فيهـا القمـل. ومـع زميـلٍ لي ـ كان سُـخْرة أيضًـا ـ أخرجنـاه إلى الردهـة، حيـث وصلَـتْ سـيارة إسـعاف عسـكرية روسـية قديمـة مـن طـراز السـبعينيات، فوضعنـاه فيهـا. بكَيت وأنا أحمله.

عـدتُ إلى الزنزانـة وفي حلقـي صراخٌ: أنـا التائـه الممـزَّق، المغلـوب عـلى

أمـره. لـو أقـرع بقـوّة هـذا البـاب، لـو أصرخ، لـو أشـتم الحـرّاس.

«إيّـاك! سـيعُودون ويعذّبونـك حتـى المـوت» هـذا مـا قالـه لي أصدقـاء المصـير، وهـم يرتجفون.

أسامة وفهد حاولا إقناعي. كان فهد قويًّا، أمسكني ليهدِّئني.

رشّـوا عـلى وجهـي مـاءً مـن الحـمام. وأخـذ رجـلُ ديـنٍ مـن درعـا يتلـو آيـاتٍ مـن القـرآن الكريم.

آهٍ من جثّتي الأولى. آهٍ من جثّة صالح ذي الصوت الحنون.

❖ «لن ينامَ أحدٌ هذه الليلة».

تَهـبُّ الريـاحُ، وتَصفِـرُ وتـئنُّ. يَصعَـدُ الأنينُ من المسـتنقعات، ويسـتحيلُ عويـلًا يَكـبر، ثـمّ يكـبرُ إلى حـدّ الانفجـار، ثـم يهـدأ في صمـت مرتجـف، يليـه عويـلٌ يكـبرُ، ويكـبرُ، ثـمّ ينفجـر ويَمَّحِـق.

لا أحـد ينـام. صمـتٌ، وريـحٌ تُعْـوِل، وآهـات. آهـاتٌ تبـدأ ضئيلـة، ثـمّ سرعـان مـا تعلـو وتَعـرفُ الآذان مصادرهـا، ولـو هـدأت الريـاح.

لا أحد ينام.

سـتينيا البلوكهوفـا لا تسـتطيعُ النـوم. تُغـادر غرفتهـا عنـد مدخـل المبنـى. شـمعتها تـضيء الطريـقَ المظلـم بـين الزنازيـن، حيـث نرقـد مكدَّسـات. تنتظـر سـتينيا أن يهـدأ الإعصـار، وفي الصمـت حـين ترتفـعُ الآهـات، تـصرخ: «مِـن أيـن يـأتي هـذا الضجيـج؟ اصمُـتْن!» بَيْـد أنّ الحشرجـة لا تنقطـع. تـصرخ سـتينيا: «اصمُـتْن!». أمّـا القريبـة مـن المـوت فـلا تَسـمع. «اصمُـتن!»، الحشرجـة أقـوى مـن الصمـت. الريـح

تهبّ وتملأ سواد الليل.

ترفـع سـتينيا شـمعتها، وتسـير لملاقـاة الحشرجـة، تُحـدِّد هويـة المـرأة التـي تلفـظ أنفاسـها، وتَطلـب إخراجهـا.

رفيقـات المـرأة المحتـضرة يحملنهـا إلى الخـارج تحـت عـصيِّ سـتينيا. مـدّدْن جسـدها بمـا اسـتطَعْنَهُ مـن لطـف عـلى طـول الجـدار، ثـمّ عُـدن إلى أَسِرّتهـن.

شـمعة سـتينيا تبتعـد، ثـمّ تختفـي. الريـاح والأمطـار الغزيـرة يحطّمـن السقف.

«في المعتقلات، لا أحد ينام».

خـلال الحـرب العالميّـة الثانيـة، وقـد كانـت في الثامنـة والعشريـن مـن العمـر، ألْقـتِ الألويـةُ الخاصَّـة التابعـة لشرطـة باريـس، المسـؤولة عـن تتبُّـع أعـداء الداخـل في شـهر آذار ١٩٤٢، القبـضَ عـلى شـارلوت دلبـو، المناضلـة في صفـوف المقاومـة الشـيوعية الفرنسـية. رُحِّلَـت عـام ١٩٤٣ مـع ٢٣٠ مـن زميلاتهـا المناضـلات إلى أوشـفيتز بيركينـاو، مـن كانـون الثـاني ١٩٤٤ إلى كانـون الثـاني ١٩٤٥، ثـم نُقلـتْ إلى رافينسـبروك مـن كانـون الثـاني ١٩٤٥ إلى نيسـان ١٩٤٥. ذاقـت مـدة خمسـة عـشر شـهرًا عـذاب المعتقـلات، وقـد أثمـرت هـذه التجربـة أدبًـا مـن طـراز رفيـع ومؤثّـر، لم أقـرأ مثلـه عـن أوشـفيتز قـط.

حنـانُ نظـرةِ شـارلوت دلبـو، وهـي تصـفُ قسـوةَ تَمـزُّق أجسـاد نسـاء المخيـم ورجالـه. صمْتُهـم وصراخهـم لوحـات انطباعيّـة ذات سردٍ مفـكّك، لا علاقـة لـه بمفهومنـا الخطّـي للزمـن، تُشـعرنا في الآن نفسـه بالرعـبِ والعـزاء.

ألَـمٌ وعذوبـةٌ ينجـدلان، وأنـا أقـرأ هـذه الصفحـات، ترتسـم أمامـي

صـورة وجهِـك يـا مـازن. الحنـانُ... أسـتدعي الحنـان كي أتابـع الكتابـة وألْتقـطُ أنفـاسي. بالحنـان، ملجئـي الوحيـد، أُواجـه القسـوة الجارفـة المدمّـرة، قسـوةَ كلامِـك.

«الليـلُ، ومـا أدراك كـم هـو مرهـقٌ ذلـك الليـل، مقارَنـةً بالنهـار. الليـل مسـكون بالسُّـعال، وبحشرجـة مَـن تموت وحيـدةً وسْـط أقـرانٍ، يصارِعْــن الوحــل والــكلاب والطــوب والعــواء. غــدًا نســتفيق عــلى جثتهـا، فنحملهـا ونسـير بهـا في الوحـل. نتركهـا أمـام البـاب متدثّـرة بتلـك البطّانيّـة، التـي احتضنـتْ أنفاسـها الأخـيرة. خفيفـة وثقيلـة، كظـلال الليـل تكـون المنتقلـة. خفيفـة لهزالهـا، وثقيلـة تَحمـلُ أوجاعًـا لم يشـاركها فيهـا أحـد».

عـن نصـوص شـارلوت دلبـو، وعن مقدّمتهـا لكتابهـا «الذاكـرة والأيّام»، يذكـر الكاتـب والصحفـي فرانسـوا بـوت، وهـو مناضـل ومقاوم سـابق، في مقابلـة أجرَتْهـا معـه صحيفـة «لومونـد دي ليفـر» في ٢٠ حزيـران ١٩٧٥: «لغــة الكاتبــة ســلاحها، وقــد اختــارت دلبــو الشِّــعرَ، أكــثرَ اللغـات فاعليّـة ـ فهـي تعيـدُ القـارئَ إلى سرّ نفسِـهِ ـ وهـذا الـسرّ عـلى درجـة عاليـة مـن الخطـورة، يخشـاه العـدو بـلا أدنى ريـب».

لـو كتبْـتَ يـا مـازن، لـو كتبـتَ «قصيـدة حـبّ غريبـة»، لـو... لربَّمـا كنـتَ معنـا اليـوم. كـم مـن مـرّة مـلأَتْ صفحـاتُ دلبـو الهاويـة. وكـم مـن جـرحٍ بَلْسَـمَت. وكـم مـن قـوّة منَحْـت. صفحـاتٌ يحتضنهـا المـرء كـما تحتضـنُ القلـوبُ في سرّ نفسـها ذلـك الوطـنَ المنشـود.

نعــم، دعنــي أُغطِّــكَ بهــذا الغطــاء الخفيــف، كي تلتئــم، ونَجمــع شـظاياك المكلومـة والمدمّـرة والملوثّـة، وكي تعيـش حياتـك عـلى نقيـض مـا كانَتْـهُ. هــذه الذاكـرة سِـكّين، هــذه الذاكـرة تَذبـح. إذن، مـاذا؟ بِـودّي لـو نسـافر معـك، ونمـشي، وننحنـي، لنجمعـك ونلفّـك بقـماش،

بعطـر الطفولـة والفـرات والصحـراء. سـنذهب إلى النبـع ونغتسـل، سـتغادر مبتسـمًا بابتسـامتك أنـت، التـي لا تشـبه غيرهـا.

ستمشي من جديدٍ سعيدًا ملتئمًا. لِمَ لا؟ لِمَ لا؟ ❖

الفصـل السـادس عشـر

أضعـتُ فهـدًا ومحمـدًا ـ ابْنَـي أخـي اللَّذَيـن اعتُقـلَا معـي ـ، حـين نُقلـتُ إلى فـرع الجويّـة. لم نُسـجن في الزنزانـة نفسـها.

احتُجـزت مـدّة خمسـة عـشر يومًـا في الزنزانـة الأولى، ثـمّ نقلـوني إلى زنازيـن الاسـتجواب. أنـتِ تعرفـين ذلـكَ. بعـد بضعـة أشـهر، سـمعتُهم ينـادون اسـمي عـلى بـاب الزنزانـة.

حينهـا خُيّـل إليّ أنّنـي ذاهـبٌ إلى الإعـدام. «آنَ أوانُ المـوت». مَـن يسـتطيعُ تخمـين مـا يـدور في عقـل مَـن يُنـادَى بـه إلى حتفـه، ومـا يـدور في قلبِـه؟ ومَـن يسـتطيع ذلـك؟ الكلـماتُ عاجـزة. تعرفـين ذلـك. نحـاول التعبـير منـذ سـتّ سـنوات، وقـد سـئمنا الـكلام. منـذ سـتّ سـنوات عـلى بدايـة الثـورة، ونحـن نُعيـدُ القصـص ذاتهـا، ونكـرر الكلـمات.

دعينـي أسـتلْقِ. انتظـري. النَّشَـاف في رأسي، والمعـدة مربوطـة. تخشّـبْتُ. دعينـي أسـتلْقِ. انتظـري.

حسنًا...ارتحتُ. تذكّرتُ. أضحكُ. سأكمل.

نـودي اسـمي عـلى بـاب الزنزانـة. اقتـادني الحـارسُ إلى الزنزانـة

الجماعيـة، حيـث احتُجـزتُ أوّل مـرّة. سـألني المسـاجين فـور وصـولي: «مِـن أيـن أتيـتَ؟». إنّـه السـؤال البديهـي.

أخـبَرْتُ سـجينًا مِـن حَيّنـا في ديـر الـزور، فـرّ مـن الخدمـة العسـكرية في الفرقـة الرابعـة، مِـن أيـن أتيـتُ وكيـف اعتُقِلـت.

ــ هل فهد ابن أخيك؟ لقد كان هنا قبل أن يُؤخذ للاستجواب.

بعـد مـرور بضعـة أيـام، فتـحَ الحُـرَّاس البـاب، وطلبـوا منّـا الابتعـاد وإدارة وجوهنـا نحـو الحائـط. يقـفُ الوافـدونَ الجُـدد في الممـر، في صـفٍّ واحـد. يدفعهـم الحـارس دفعًـا نحـو الداخـل. لا يخاطـرُ أحـدٌ بالالتفـات حتّـى يُسْـمَعَ صـوت صَفْـق البـاب.

كانـا هنـا. فهـد ومحمـد بوجهيهـما المتورّمَـين. محمـد بلحيتـه الطويلـة وشـعره المشـعَّث، وفهـد كَوْسَـجٌ [لا شَـعْر عـلى عارضَيْـه] مثـلي! أنـا لم أَحلِـق أبـدًا، ولحيتـي خفيفـة، مثـل أبـو الجـود. بذلـك نختلـف عـن باقـي أفـراد العائلـة. لكنّـه يمتـاز بشـنبه. أُحـبُّ نعومـة ذقنـي وعـدم حاجتـي إلى الحلاقـة، وكأنّنـي شـابٌّ أبـديّ. طالـبٌ جامعـيٌّ، أو قُـلْ: طالـبٌ ثانـويّ هـرب مـن المدرسـة، وأسـتاذه يركـض خلفـه!

إذًا كانـوا هنـا. هُرعـتُ لتقبيلهـم. أجْهَـش فهـد. سـألني رئيـس الزنزانـة هـل كنـتُ أعْرفُهم.

ــ إنّهم أبناء أخي.

ــ اذهَبْ إلى المرحاض وخُذ ما تحتاج إليه من ماء.

فهـدٌ قـويّ البنْيَـة، مُقـاومٌ، لكـنّ آثـار الكُلُـوم باديـة عليـه. يـا لهـا مـن ضربـات تلـك التـي تلقَّاهـا! محمـد قـويٌّ، تَـدرّب عـلى رفـع الأثقـال، وإنْ شـاء يحملنـي بيـدٍ واحـدة. لكنَّـه أيضًـا قـد عُـذّب. مـا الـذي أُرغم

عـلى الاعـتراف بـه؟ لعلّـه أُرغـم عـلى القـول: إنّنـا وحدنـا مَـن بـدأ الثـورة، وإنّنـا وحدنـا دمَّرْنـا الاقتصـاد. مـا أحمـق أجهـزة مخابراتهـم!

أخـبَروني كيـف حاولـوا الحصـول عـلى معلومـات عنّـي، وعن أنشـطتي، وعـن الجيـش السـوري الحـر، وعـن أعمامهـم وإخـوتي أبـو الجـود وعبـد العزيـز.

«أين هم؟ ماذا يفعلون؟» سؤالان لم يكفّوا عن طرحهما.

جلسـتُ القرفصـاء في منتصـف الزنزانـة. فهـدٌ أمامـي، وأنـا خلفـه، متدانيـان. جلـس محمّـد إلى يمينـي.

ـــ ضع رأسك على ركبتي.

بصـوت خفيـض أخـبرتُ فهـدًا عـن ذكرياتنـا في المزرعـة، وكيـف أنّ عائلتنـا تبحـثُ عنّـا بـلا أدنى شـكّ. الـكلّ يسـأل: أيـن هـم؟ أمعتقلـون؟ أهاربـون؟ هـل مـن خـبر عنهـم؟ تمـرّ أفـكارٌ كثـيرة في رأسي: مـاذا سـتفعل أجهـزة المخابـرات بنـا؟ هـل نمـوت هنـا؟ هـل يُطلَـق سراحنـا؟

أَنْ أُمدِّد ساقَيّ، وأنْ نتمدّد، هذا ما كنّا في أمَسّ الحاجة إليه.

لاحظـتُ أنّ رقبـاء منشـقِّين تَمكّنـوا مـن إدخـال هاتـف داخـل الزنزانـة. شـاهدْتُهم بـأمّ عينـي. دنـا منّـي أحدهـم وسـألني:

ـــ هل تريد هاتفًا؟

ـــ بأيّ سعر؟

ـــ ١٥٠.٠٠٠.

السـعر باهـظ. ولكـن، لا بـدّ مـن دفـع هـذا المبلـغ لمحاولـة التواصـل مـع الأهـل، وإبلاغهـم أنّنـا هنـا في هـذه الزنزانـة. حصلـتُ عـلى جهـاز

سامسـونج صغـير، مـن النـوع الـذي يُفتـح بغطـاء. مـا زلـتُ أذكـر رقـم عبـد العزيـز: ٤٤٩٠.

ـــ ألو، عبد العزيز؟

ـــ من معي؟

ـــ أنـا مـازن، نحـن في فـرع الجويّـة في مطـار المـزّة مـع فهـد ومحمـد. هـذا رقـم السـجان، أرجـو أن تُرسـل مَـن يسـلّمه ١٥٠ ألـف لـيرة. إنِ اتصـل بـك أيُّ شـخص وطالبَـك بمبلـغ مـن المـال، فـلا تُصدّقـه، ولا تَـردّ عليـه. لا تَـردَّ إلا عـلى مكالمـاتي.

مـا سـبب تنبيهـي لـه؟ لأنّ أيّ شـخص مـن الشرطـة أو المخابـرات قـد يتّصـل بـه مـن هـذا الرقـم ويبتـزّه. فالعائـلات التـي تعيـشُ في قلـق وانتظـار، مسـتعدة لدفـع أيّ مبلـغ لمعاونـة المسـجون، وللحصـول عـلى معلومـات عـن أحبّائهـا. كـم مـن عائلـة غُـرِّر بهـا يـا تـرى؟ الوسـطاء المزيفـون يكذبـون ويسـتغلون الوضـع. دفعَـت عائلتـي الكثـير إلى محتالـين، بعضهـم ادّعـى أنّنـي عـلى قيـد الحيـاة، وبعضهـم الآخـر ادَّعـى أنّنـي أُعدمْـت.

لكـن عبـد العزيـز ذكيّ. ولِكونِـه مطلوبًـا أرسـل المبلـغ عـبر وسـيط. مِـن حقّـه الظـنّ أنّنـي أهاتفـه تحـت الضغـط، حتّـى تتمكّـن المخابـرات مـن محاصرتـه واعتقالـه.

أضفْتُ: «معي فلان وفلان...». أبْلِغْ عائلاتهم.

ـــ فهد، توجَّهْ نحو الباب.

اتصـل بـه الحـرّاس. طلبـوا منـه أن يسـتحمّ؛ مـا يعنـي أنّـه سـيُزار. والـد فهـد ـ بواسـطة رفيعـة، رفيعـة جـدًّا ـ تمكّـن مـن زيارتـه. وهـو

يـترك الزنزانـة، قلـتُ لـه:

ـــ لو تطلب من والدك علبة سجائر.

أحـضرَتْ لـه عائلتـه ملابـس وسـجائر. سرق الضبّـاط مـا حـلا لهـم وتركـوا لـه الفضـلات.

حـين عـاد، أخـبرني فهـد مـا حـدث: الزيـارة جـرَت في مكتـب الضبّـاط. السـترة الدافئـة، تلـك التـي لم تـرُقْ للشـباب آلَـت إليـه، في جيبهـا دسّـت والدتـه السـجائر، وهـو يقبّلهـا لحظـة الـوداع. سـجائر مـن ماركـة «إليغانـس» الرخيصـة، تلـك التـي تصـل إلى البلـد عـن طريـق التهريـب، ويسـتهلكها رقيقـو الحـال.

مـع مسـاجين آخريـن، قصَدْنـا المراحيـض للتدخـين. أخـذتُ مَجّـة ثـمّ مرّرتُهـا عليهـم. قـال رئيـس الزنزانـة:

ابعُدوا عنّي، سأدخِّن سيجارتي وحدي.

«قالوا لي إنّنا سوف نَخرج قريبًا»، هذا ما قاله فهد.

ولكـن بعـد هـذه الزيـارة، تبدّلـت أحوالـه. عـانى مشـكلةً في عينيـه، واجتاحـتِ البثـور جسـده. مـا الـذي حـدث؟ ومـاذا يمكننـي أن أفعـل؟ كنـتُ أفكـر. لسـتُ عـلى مـا يـرام. حُـكّاك يتسـلّل إلى جلـدي. فكّـرْت. فكّـرْت. قلـتُ لنفـسي مُحـاولًا المقاومـةَ، وإيجـاد الحلـول: «أنـت قـوي».

قصدْتُ الحارس:

ـــ أحتاج إلى مُضادٍّ للالتهاب. فهدٌ مريض. سأدفع لك.

أخفَـى في أوعيـة الأرز عشريـن كبسـولة حمـراء وبيضـاء، ولمّـا كنـتُ

السُّخْرة أُحضِرُ الطعام أيامذاك، أخفيتُ الدواء في المستراح، ولم أُبلّغ رئيسَ الزنزانة - المسجون بسبب جُرْم -، وهو لا علاقة له بالثورة. كان إذا حصل على دواء يعطيه لمساجين منطقته من حماة، حتى إنْ كانوا لا يحتاجون إليه بشكلٍ مُلِحّ.

لو أعطيتُ للطبيب السجين الأدويةَ، لوَزّعها بحسب الأولويّات.

تحسنَت صحة فهد قليلًا.

عدتُ وهمستُ للحارس: «أحتاج إلى هاتف، وإلى كثير من الوحدات».

فلو هاتَفَ فهدٌ عائلته، لتَحسّنَتْ نفسيّته، ولرُبَّما خرَج مِن مرضه.

ـــ اذهَبْ واتصِلْ بعائلتك، واسألْهُم عن سير الأمور.

وقف قرب المرحاض، وأصدقاء لنا يراقبون الزنزانة.

ـــ «مرحبًا أمي». تَحدّثَ إليها قليلًا.

ـــ كيف حال أبي؟

تبدّلَت ملامحه، وضاعت نظراته، وذهب إلى مكانٍ آخر. سألتُه: «ماذا يحدث يا فهد؟ ماذا؟ ما بهم؟».

كان يبكي.

«لقد اعتقَلُوا الوالد وعبد العزيز». أخذتُ الهاتف منه:

«أمَّ فهد، سؤالٌ واحد فقط، أجيبيني بسرعة، وسأغلق الخط. كيف أوقَفُوهم؟».

كان فهد يبكي.

كان أخـي عبـد العزيـز نقيبًـا سـابقًا في الجيـش. خـدم في مستشـفى تشرين العسـكري. بعـد ترقيتـه إلى رتبة نقيب، اسـتقال وافتتـح عيادته، فهو طبيب أسـنان. في أثنـاء الثـورة كان يعمـل في عيـادة صديـق طبيـب، وكانـا يعالجان سرًّا أعضـاءً مـن الجيـش السـوري الحُـرّ. سـبَقَ أنْ أخبرتُـك أنّـه ـ حتّـى ولـو كنـتَ متظاهـرًا عفويًّا ـ من المسـتحيل الذهاب إلى المستشـفيات الحكوميّة. قُبـض عليـه في هذه العيـادة.

في نفـس اليـوم ،أُلقـي القبـض عـلى أبـو فهـد، وهـو مهنـدس في أحـد المقاهـي.

الفصـل السابـع عشـر

أصدقـائي في هولنـدا، متيقنّـون أنّهـم في المسـتقبل سـيعودون إلى سـوريا لإعـادة إعمارهـا. لـذا، تراهـم يجتهـدون لتحسـين مهاراتهـم وتطويرهـا. حـين ألتقـي بهـم، تحلـو لي أيّامـي. أشـجّعهم عـلى أن يلتحقـوا بالجامعـات، ويثابـروا في دراسـاتهم، ويحترمـوا القوانـين، كي يفهـم القـاصي والـداني أنّنـا ترَكْنـا بلدنـا بحثًـا عـن الكرامـة، وأنّ ثورتنـا أخلاقيّـة قيميّـة.

هولنـدا بلـدٌ جميـل. مـا ظننـتُ أنّنـي سـأعيشُ هنـا، وهـا قـد بقيتُ في هـذه القريـة الصغـيرة هيلغـوم. كلَّ عـام نحتفـل بالمَلِك. في هـذا اليوم، يرتـدي جميـعُ السـكّان ملابـس برتقاليّـة، قطعـة برتقاليّـة واحـدة عـلى الأقـلّ. في الربيـع، عندمـا تُبرعَـم أزهـار التُّوليـب، يُنظَّـم بضعـة أيّـام مهرجـانُ الزهـور. فتُزيّـن العربـات، وتطـوف في قريتـي وفي سـبع قُـرًى أخـرى. مشـهدٌ مبهـجٌ فعـلًا.

سـكّان هيلغـوم ٢٥ ألـف نسـمة، فيها بيـوت أرسـتقراطيّة جميلة. يسـكنها مَلّاكـو الحقـول الكبـار، والكثـير مـن المتقاعديـن. بعد السادسـة مسـاءً، ينامُ الجميـع. موظّفـو البلديّـة يحبّوننـي، وأنـا أيضًـا أُحبّهم. أهنئهم بعيـد الميلاد ورأس السـنة، حامـلًا لهـم بطاقـات المعايـدة.

تعيـش إحـدى أخـواتي هنـا منـذ حـوالي خمسـة عـشر عامًـا. وصلَـتْ واسـتقرّت قبـل الثـورة بسـنوات. مُجـازة في التاريـخ. تزوّجَـت مـن سـوري ، وهـي الآن تحمـل الجنسـية الهولنديـة، ولديهـما طفـلان: صبـي عمـره ٤ سـنوات، وفتـاة عمرهـا ٩ أشـهر. ألعـب معهـما، وأقـدّم لهـما هديّـة يـوم عيـد ميلادهـما، أو أعطـي بعـض المـال لأمّهـما كي تختـار معهـما مـا يحلـو لهـما.

أمضَيـتُ مسـاء الأمـس عندهـم، وأيضًـا ليلـة رأس السـنة. شِـقَّتُهم عـلى بعـد خمـس عـشرة دقيقـة عـلى الأقـدام مـن مسـكني. لـذا، طلبـتُ هـذا البيـت بعـد إقامتـي في خمسـة مراكـز لجـوء، قبـل أن أسـتقرّ هنـا. حُـقّ لي أن أطلـب الإقامـة في أمسـتردام، لكـنّ صهـري نصحنـي بالإقامـة قربهـم ، حيـث التأقلـم مـع الحيـاة الهولنديـة أسـهل:

ـــ بعـد حـين، حـين سـتعتاد الحيـاة هنـا، اذهـب للعيـش في مـكان آخـر إذا شـئت .

أُحـبُّ هـدوء الريـف، للعمـل والتفكـير والتأمّـل والشـعور بالراحـة. لكنّنـي أعـزب، وأعيـش وحـدي. أمّـا إن عشـتُ في أمسـتردام، فسـتُتاح لي فـرصٌ لِلِقـاءات متنوّعـة. معظـم أصدقـائي اللاجئـين مـن الشـباب، يحبـون قضـاء سـهراتهم معًـا؛ نلتقـي مسـاء. هـذه هـي حيـاة الريـف. الأهـمّ في هـذه القـرى البعيـدة أن تُـرزَق بجـيران غـير عُنصريِّـين، ينظـرون إليـك بصفتـك إنسـانًا مثلهـم، لا وحشًـا.

سـكَن قبـلي مُهاجـرٌ صومـالي في هـذه الشـقّة. حـين دخلْتُهـا أوّل مـرة،

وجـدتُ فيهـا كرسـيَّيْن عـلى الشرفـة وسـتائر. أُخْـبرتُ أنَّ وكالـة اللَّاجئين بصـدد تجديـد المـكان، ولكـن بعـد حـين، لأنّهـا فضّلَـت تحديـث أنابيـب الغـاز والمـاء.

لِكيـلا أنتظـرَ طويـلًا، شـمّرتُ واشـتريتُ طـلاءً وفُرَشًـا، وأنزلـتُ أغـاني عـلى هاتفـي، وقمـت بالمهمّـة وأنـا أُغنّـي. كنـتُ سـعيدًا. قبـل سـنوات بعيـدة في الديـر، طليـتُ بعـض جـدران منزلنـا.

أحْبَبْـتُ الرسـمَ عـلى الجـدران لِخَلْـق جـوٍّ لطيـف. منظـرٌ طبيعـيٌّ تـراه خلفـك عندمـا تلتقـط صـورة، أو خريطـةٌ مثـلًا. بَيْـد أنّ إمكانيّـاتي الماديّـة لم تكـن لِتَكفـي هـذا المـشروع.

أعـدْتُ طـلاء كلّ شيءٍ في يـوم واحـد. في المسـاء، طَويـتُ الغطـاء البلاسـتيكي وألقيتُـه في سـلّة المهمـلات، ونمـت. اقترحَـتْ عـليّ أختـي أن أذهـب وأنـام في منزلهـا، لكنّنـي اعتـذرت. أعارتنـي بطانيـة وفراشًـا إسـفنجيًّا، غفَـوتُ عليـه فـورًا؛ أرهقنـي العمـل.

عندمـا اسـتيقظتُ كنـتُ مسـتلقيًا بجانـب الغلّايـة. فتحـت عينـيّ وأنـا أشـعر بوجـع عميـم، وبتصَلُّـب عضـلاتي. مـا يَحـدث لي بديهـيّ. فمنـذ خمـس سـنوات لم أبـذل مثـل هـذا المجهـود. مسّـدتُ نفـسي فـترة طويلـة. يـا لسـعادتي، تَبـيّن لي أن عضـلاتي تسـترجع عافيتهـا.

نعـم، لقـد أرهقنـي المجهـود، نمـتُ فجـأة، وانقبضـت عضلات جسـدي. خمـس سـنوات بـلا مجهـودٍ بـدنيٍّ يُذْكـر، خمـس سـنوات في السـجن. كـم مـن يـومٍ قضيتَـه جالسًـا وذراعـاك حـول سـاقيك. حظائـر الأغنـام أقـلّ اكتظاظًـا مـن الزنازيـن.

عندمـا دفعنـي الحـارس داخـل الزنزانـة، اختنقـتُ. رائحـةٌ، أيـن منهـا روائـح الحظائـر، تلـك التـي أعـرف، رائحـةُ عَـرقٍ نفّـاذة، وأوسـاخٍ نتِنة،

وعفَـنٍ. نحـن هنـا لنتعفّـن، ولنَفقـد قدرتنـا عـلى الإحسـاس. أجسـادٌ تتحلّـل، قَيـحٌ ثـمّ امِّحـاء.

الأجسـاد المحرومـةُ الشـمسَ والهـواء تتقشّـب. أُصبـتُ بالجـرب. رأيتُ حفـرة في قدمـي، تجويـف صغـير خدشَـتهُ أظفـاري الطويلـة القـذرة. ثـمّ تَوسَّـع الثقـب وصـار بحجـم إصبـع. فاوضـتُ وحصلـتُ عـلى أربعـة أقـراص مـن مُضـادٍّ للالتهـاب، فتحتُهـا وأفرغتُهـا فـوق جرحـي.

في إحـدى الزنزانـات، التـي كانـت سـابقًا قاعـة درس للطيّاريـن، حاولنـا في الصباحـات ممارسـة بعـض التماريـن الرياضيـة. يقـوم عـشرة منّـا في كل مـرة، وإلا فلـن نتمكـن مـن الحـراك. يحتـاج الجسـد إلى حـدٍّ أدنى مـن الحركـة ليحافـظ عـلى نفسـه مـن التشـنجات، تمديـد الجسـد ضروري وإلّا فسـيَضمر.

انظري إلى ساقي، عضلاتها معطوبة.

بعـد طـلاء الشـقة، اسـتيقظتُ فيهـا أوَّل مـرة. وبحسـب مـا أسـلفتُ، دلّكـتُ نفـسي وشـعرتُ بالارتيـاح، عـلى الرغـم مـمّا انتابنـي مـن وجـع في عضـلاتي. وضعـتُ الغلَّايـة في الكبـس. غسـلت وجهـي. خرجـت لـشراء أدواتٍ لتنظيـف المـكان.

صديقـي باسـيل، الـذي كان يعمـل معـي في شركـة شـلمبرجيه في الديـر، يسـكن عـلى بُعْـد سـاعة مـن هنـا. جـاء لمسـاعدتي عـلى شراء مـا سـوف أحتـاج إليـه مـن أدوات منزليّة. كتبْنـا قائمـة بالأشـياء الأساسـية: الغسّـالة، وفـرن الغـاز، والثلّاجـة. نصحنـي أن أشـتريها جديـدة ومضمونـة خمـس سـنوات، فمـن يـدري؟ أمّـا الطاولـة، والكـراسي، والخزانـة الخاصّـة بالتلفزيـون، والأريكـة، وطاولـة القهـوة، فقصَدْنـا شراءهـا مـن مَتجـر للسـلع المسـتعملة.

بعـد حـين أكملـتُ تجهيـزاتي بالأطبـاق والمناشـف، ثـم أضفـتُ سـجّادة تحـت المرتبـة الإسـفنجية التـي أعطتنـي إيّاهـا أختـي.

اكتملَـت ترتيبـاتي، فدعَـوتُ أصدقـائي مـن مركـز اللاجئـين إلى قضـاء يـومٍ أو يومـين عنـدي. حنـاني غامـرٌ تجاههـم. يعيشـون الشـظف، ومـا يُقـدَّم لهـم مـن وجبـات لا يـؤكل. طهـوتُ لهـم. لعبنـا كالأطفـال بورق الشـدّة، وبألعـاب الفيديـو. أعادتنـا هـذه اللحظـات إلى طفولتنـا.

طُمأنينتـي لا توصـف. أخـيرًا كُتِـب لي أن يكـون لي مـكانٌ شـخصيّ آوي إليـه. هـي شِـقَّتي الأولى.

كـم مـن محنـةٍ قَطعْـتُ... الحـرب. السـجن. سـاعدني الهولنديـون كثـيرًا، وأعانـوني كي أفهـم بلدهـم. فحـين وصلـتُ لم أكـن أعـرف مَـنْ، وأيـن أنـا. كان كلّ شيءٍ جديـدًا.

عـبْر «سـكايب» أريـتُ عائلتـي الشـقة: «انظـروا». أبْـدَوا رأيهـم في أصغـر تفصيـل. ضـع قطعـة الأثـاث هـذه هنـاك. بـدِّل هـذا

أو ذاك. بعد أن أصغيتُ إليهم فترة، ضجرت:

«هذا ما استطعتُه بما عندي من مال. انتهى الأمر. هذا بساطي».

شِـقَّتي بحجـم مطبخنـا في الديـر. غرفـة معيشـتي هنـا بحجـم حمَّامنـا في الديـر: بِدُوشِـه، ودَورة مياهـه، ومغطسـه، وموقـد التدفئـة، وسـخّان الماء.

منزلنـا في سـوريا ضخـم بالفعـل. طـول واجهتِـهِ اثنـا عـشر مـترًا. مبنـيٌّ مـن طـين، لـه سـقف خشـبيّ عـلى الطـراز العـربي. صيانتـه صعبـة، فحـين تهطـل الأمطـار نغـرق. لمعالجـة الموضـوع، لجأنـا إلى طـلاء السـطح بالقطـران. أبقينـا الجـدران عـلى وضعهـا، فهـي تحمـي مـن

الحـر صيفًـا ومِـن الـبرد شـتاءً. أحـد الأجنحـة كان يُسـتخدم أكـثر في الصيـف، والثـاني في الشـتاء.

لسـوء الحـظ، لم أحتفـظ بصـورة للبيـت. انتظـري، دعينـي أحـاول رسـمه. انظـري. إنّـه هكـذا.

هنـا المدخـل. المطبـخ مـن هـذا الجانـب، والحـمَّام والمراحيـض مـن هـذا الجانـب. هنـاك مراحيـض أخـرى. وفي الفنـاء مَصْطَبـة مرتفعـة للجلـوس. في الصيـف، نبنـي سُرادقًـا مـن قـماش يشـبه الخيمـة، لـردّ الشـمس. فـإن انخفضـت درجـات الحـرارة ليـلًا، نُنـزل السـتائر. لعِبـتُ أحيانًـا في هـذا المـكان قـرب شـجر الليمـون، وهنـاك أشـجار أخـرى نَحـرص عـلى تشـذيبها. هـذه الباحـة عبـارة عـن حديقـة، شـاهدتُ فيهـا يَمامًـا، وقـد زرعنـا عـلى أحـد جدرانهـا أزهـارًا.

في الجهـة الأخـرى مـن الفِنـاء، بُنيَـت أربـع غـرف نـوم. هنـا غرفتـي القليلـة الترتيـب. مسـكينة والـدتي، كـم مـن سـاعة أمضَتْهـا وهـي تجمـع ملابـسي المبعـثرة في كلّ مـكان. هنـاك، غرفـة والـدي. كنّـا ننـام عـلى مراتـب إسـفنجية، نفـرش تحتهـا حُـصُرًا. في الصيـف كنـا ننقـل أسِرّتنـا البسـيطة إلى الخـارج، ثـم نجمعهـا في الصبـاح ونكدّسـها فـوق سـجّادة. وضعنـا التلفـاز عـلى طاولـة بعجـلات، نحرّكهـا كيفـما شـئنا.

نسـتقبل في صالونَـين: أحدهـما عـربي بوسـائده للجلـوس عـلى الأرض، والثـاني بأرائكـه الغربيّـة. مزيـجٌ مـن ريـف ومدينـة. اشـترَت والـدتي صندوقَـين تقليديَّـيْن لترتيـب ملابسـها فيهـما.

مـن طفولتـي حتّـى بلوغـي الثلاثـين، ظـلّ منزلنـا عـلى هـذه الحـال. بعـد وفـاة والـدَيَّ تبدّلـت الأمـور، علـمًا أنّنـا لم نُدخـل أيّ تغيـير في الجنـاح القديـم، حيـث عاشـا، وحيـث الذكريـات.

كلاهما تُوفي عام ٢٠٠٧، بفارق عشرة أيام. أصيب والدي بسكتة دماغية، بعد مكوثه في المستشفى مدّة أسبوعين. أمّي وباقي النسوة زغردن يوم عاد. كانت والدتي سعيدة ترحّب به. وبعد دقيقة، أصابتها سكتة. سيارة الإسعاف التي جلبَت والدي لم تكن قد غادرت بَعْد. فوضعها المسعفون على نقّالة، وحملوها إلى المستشفى.

في اليوم التالي، وأنا واقف أمام المبنى لكي أشتري شيئًا من بائع العَرق، كنتُ سأسكب الماء في الكوب، حين هاتفتني إحدى شقيقاتي: «احضُرْ فورًا...». توتّرتُ، فهمتُ، ورميتُ الكوب على الأرض.

أمام غرفة الوالدة، قال لي الطبيب ـ وهو صديق طفولة ـ : «كن قويًّا يا مازن». مع الليل عدنا إلى البيت. كيف أُبلّغ والدي المريض بالخبر السّيِّئ؟ وعدَني عبد العزيز بالتكفّل بالموضوع. بَيْد أنّنا لم نحتَجْ إلى إبلاغه، إذ إنّه استشعر الأمر حين غصّ المنزل بنساء العائلة، اللواتي تَنادَين وتوافَدْنَ.

سأل حينها: «ماذا يحدث؟».

ــ لقد جئن لزيارتنا. هكذا.

إنّها الثالثة فجرًا. من المستحيل أن يقتنع عاقل بهذه الزيارة.

ــ في هذه الساعة؟!

ــ يا أبي، أنت مؤمن. قال عبد العزيز.

ــ «توفّيت. أليس كذلك؟». دثِّرْني.

دثّرتُه، وطلبتُ من إخوتي أن نتركه. قلتُ له وأنا أبتعد: نادِني إن

احتجـتَ إلى أي شيء.

أمسكني من القميص.

ـــ أوصيك أن تدفنني بجوارها.

بعد ثلاثة أيّام تُوفِّي الوالد عند الساعة العاشرة صباحًا.

الحـقّ أنّنـي لم أعـش وحـدي قـط. فحـين تُـوفي والـدي، عشـتُ مـع أختـي الصغـرى في الديـر. عندمـا كنـت أسـافر للعمـل، كانـت أختـي تنـام في منـزل أخواتنـا أو إخوتنـا أو يأتـون للسـكن معهـا.

الفصـل الثامـن عشـر

عندمـا انتقلـتُ للإقامـة في هيلغـوم، شـعرتُ بالسـعادة. هنـا بيتـي حيـث أعيـش اسـتقلاليّتي. أخـيرًا، غـادرتُ مخيـم اللجـوء، حيـث اقتسـمتُ غرفتـي مـع خمسـة آخريـن.

الهـدوء يسـاعدني كي أُبحـرَ بعيـدًا في أفـكاري، وكي لا أبقـى أَسـيرَ الثـورة والسـجن. أُحـبُّ وحـدتي، أصفـو، وأتذكَّـر مـا حـدث لي، أُراجـع مـا حـدث لنـا.

اشـتريتُ جهـازَ تلفزيـون. سـدّدَتِ الدولـة مشـترياتي الأولى بموجـب فواتـير. ثـم اشـتريتُ مـن سـوق العتيـق سريـرًا وخزانـة ملابـس. أخذتُ قياسـات الغرفـة بشـكل دقيـق، إذ يختلـف الوضـع هنـا عن مسـاحات الغـرف السـوريّة الواسـعة كملاعـب كـرة القـدم.

غرفتـي هنـا لا أنـام فيهـا. لم أنـم فيهـا أبـدًا. هـي أشـبَهُ بزنزانـة ذات

سـقف منخفـض، ونافـذة لا تـكاد دَرْفتُهـا تَنفتِـح لِيَدخلهـا بعـض الهـواء. هـذه الغرفـة... بـاب الزنزانـة... النافـذة التـي تُذكِّـر بفتحـة الزنزانـة.

بسرعـة أعـددتُ سريـرًا للأصدقـاء. جـاء عمـر وعاصـم أيضًـا، وجابـر وزوجتـه نـور. حـين اجتمعـوا كلّهـم لقضـاء عطلـة نهايـة العـام، أضفـتُ مراتـب إسـفنجية في غرفـة المعيشـة.

أُفكّـر في تحويـل غرفـة النـوم إلى مكتـب حـين تتحسّـن أوضاعـي الماديّـة. سأشـتري طاولـة وجهـاز كمبيوتـر، وأنقـلُ السريـر إلى السـطح، وأطـلي سـقف الغرفـة باللـون الأسـود، وأزيِّنُـه بالنجـوم ليشـبه سـماء سـوريا. عـلى الجـدران، سأرسـم أشـياء جميلـة، وكلّ مـا يخطـر ببـالي.

مـذ سـكنتُ في هـذه الشـقّة، أنـام في غرفـة الجلـوس. أحتـاج إلى صـوت، إلى ثرثـرات التلفـاز، كي أغـرق مُعْيًـى في عتـم الليـل.

لو أستطيع أن أُرغم ساقيَّ على التمدّد.

بعـد كلّ مـا حـدث ويَحـدث مـن مـوت وجـوع وتعذيـب، أشـعُر بالخجـل إن متّعَنـي شرب الخمـر. أخجـل مـن الصـور التـي ينشرهـا بعضهـم عـن حياتهـم الاجتماعيّـة البَطِـرة عـبر الفيسـبوك، في حـين أنّ السـجناء في عتمـة زنازينهـم يتضـورون جوعًـا.

في المسـاء، أنـشرُ شـموعًا معطّـرة في كلّ أرجـاء البيـت، عـلى الطاولـة، والأثـاث. أطفـئ الأضـواء، وأضيء الشـموع، وأشـعل التلفـاز. هـذا جـوّي. هـذه الرومانسـيّة. أليـس كذلـك؟

حـول النوافـذ علّقـتُ أكاليـل فيهـا أضـواء صغيرة. أحـبُّ هـذه الأضواء. أضـواء تَـسردُ ألـف قصّـة وقصّـة. علّقتُهـا فـترة ثـمّ قـلّ صـبري، لأنّهـا تحتـاجُ إلى عنايـة دائمـة. فتخلّيـتُ عنهـا، ودسَسْـتُها في زاويـة مهملـة.

زيــادةً عــلى ذلــك، أُحــبّ موســيقى الشــجن، وأصغــي إلى كاظــم الســاهر وهــو يقــول:

يا دنيا انْتِي الْحَرَمْتِينِي مِنَ اهْلِي

سِكنْتِ الغُرْب مِن غَصْبَنْ علَيَّا

أَدِقْ يا بابْ واسألْ مَنْ عَلِيكُم

ضعَفْ صَبْرِي وزِماني خانْ بِيَّا

[...]

شَوَصْفِلْكُمْ غُرُبْتِي... شَوَصْفِلْكُمْ غُرُبْتِي

صَدْرِي مَخْنُوقْ... صُوتِي مَبْحُوحْ

دفَنْتُونِي بِغُرْب وِتْعَالِجِ الرُّوحْ

غَريبْ... غَريب وكُلْ غَريبْ يِتْذَكَّرَ اهْلَه.

هكــذا أرحــلُ. أُغــادرُ إلى عالمــي. هــل أُطفــئ الضــوء أم أُشــعله؟ مــا هَــمّ: أُطفــئ؟ أُشــعل؟ الشــموع أفضــل. هــي رحمــةٌ تعينني عــلى تنقيــة دماغــي.

أحتفــظُ إلى اليــوم بكنــزة، حمَلْتُهــا معــي بوصفهــا ذِكْــرَى لطيفــة مــن ســوريا. هنــا عنــدي صابــونُ غــارٍ ســوري مــن حلــب، ومــن ديــر الــزور. هــذه اللوحــة مــن منزلنــا، كانــت معلّقــة في غرفتــي، أرســلَتْها إليَّ عائلتــي، وحمَلَهــا لاجــئ مــن تركيــا. أول أمــس، نــشرتُ صــورًا لمنزلنــا المدمَّــر عــبر الفيســبوك، أرسَــلها إليَّ صديــق، بعــد أن دخلَــتِ الشرطــة، وقطعَــتِ الأســلاك الكهربائيــة لسرقتهــا.

كم أشتاق إلى عائلتي في سوريا. كم أفتقِدُ عائلتي.

والله، تعِبْتُ. والله تعِبْت.

أُقسم أنّني متعب، أنا مُتعب جدًّا. أحمِلُ جبَلًا على رأسي.

الـكلّ يَطعنـك، الـكلّ يطعننـا. يـا أمـي، سـاعديني. أمـي، أنـا موجـوع، موجـوع. أمـي، أمّـي، أمّـي.

يـا إلهـي. رأسي. هـذه الأفـكار التـي تجتـاح رأسي، في كلّ مسـاحةٍ مـن رأسي.

كما تعلمين، تعَبٌ، تعَبٌ، تعب.

صغيرًا كانت أمّي تُداعب شعر رأسي. فأهدأ.

❖ أجلسُ هناك. هناك. نعم، هناك.

تَخشّـبَ جسـدُك. مـا الـذي بقـي منـك؟ مـا الـذي بقـي؟ لـو نبُـثّ فيـه الحنـان والـدفء والحيـاة. لـو نُـوَرّد خدَّيـك، وننفـخ فيهـما ونضمّرهما، كي تتكـوّرا وتمتلئـا مـن جديـد.

دارِ نفْسَـك. ألَا تـزال تَحتفـظ ببعـض الأسرار؟ احتفِـظْ بهـا، واحْمِهـا. لقـد بلـغ بَوحُـك وتَعرِّيـك أقصـاهُ. صِرتَ سِرّك، صِرتَ في حفـرة وجـعٍ نَهِـمٍ يلتهمـك.

جـدران الزنازيـن، والوثائـق المرعبـة الصامتـة، تَعـرف الكثـير. فلـماذا لا تَـترك لهـا الـكلام أيضًـا؟ أفليـس الصمـتُ حيـاة؟ أفليـس الصمـتُ امـرأة؟

يـروي المناضـل يُـورغ سـامبران في كتابـه «الكتابـة أو الحيـاة»، عـن

تجربتـه في معتقـلِ بوخنفالـد، كيـف أنّ امـرأة أعانتـه عـلى العـودة إلى الحيـاة: «لقـد كانـت لي الحيـاة [...] ولقـد أردتُ الانخـراط بـكلّي في هـذه الحيـاة. مـن أجـلي ومعـي أعـادت ابتـكار وظائـف جسـد عـاد مـن التعذيـب والمـوت، فردّتْـهُ ببذلهـا إلى اقتصـاد الحيـاة، إلى بـذخ الحـبّ..». بـذْخُ الحـبّ ناقـصٌ بالطبـع، وغـير كافٍ، بَيْـد أنّـه ـ إنْ وُجـد ـ لا بـأس بـه. ❖

لقـد اسـترحْتُ، اسـترَحْت. لا بـأس عـليّ. أضـع لفافـة قـماش حـول رأسي، فأهــدأ.

هــدوء شــقّتي ممتـع، علـمًا أنّ الضوضـاء تَـوأم الحيـاة. في سـوريا، نشـأنا عـلى الضجيـج. هنـا، لا أخـرج إلا لقضـاء عمـل محـدّد، التسـوّق مثـلًا. معظـمَ الوقـت أنـا في البيـت، وعـلى تَواصُـل دائـم مـع أهـل الداخـل. مـذ عـدتُ مـن الولايـات المتحـدة، حيـث أدليـتُ بشـهادتي مــدة شــهر، زادت بَيتوتيّتــي. أُمــضي ســاعاتٍ مفكّــرًا ومســتمعًا إلى موسـيقات هادئـة. أدليـتُ بشـهادتي منـذ أربـع سـنوات عبثًـا. لعلّهـم لا يدركـون فحـوى كلامــي.

لــو أعــود إلى بلــدي. أحــترمُ الغــرب لأنّــه يحــترم شــعبه، ولكنّــي لا أحترمــه، لأنّــه لا يحــترم شــعبي.

لقـد خاننـا الغربيـون، وصمتـوا عـن جرائـم بشـار. لقـد تعرّضنـا للأذى. لقــد آذَونا.

❖ شـقيقك أبـو الجـود عـبّر عـن حزنـِهِ وخيبـة أملـه مـن الغـرب، في الرسـالة التـي كتبهـا لي، موافقًـا عـلى أن أصـدر هـذا الكتـاب الـذي كنّـا

ننـوي ـ أنـتَ وأنـا ـ كتابتـه معًـا، قـال:

«لســنا مجموعــة مــن البُلَهــاء. لم يُقــدّروا وحشــيَّة النظــام وتآمــره وســيطرته عــلى البــلاد أكــثر مــن نصــف قــرن. لكنّنــا صدّقْنــا العــالم المتحــضر، ومــا بــشّر بــه مــن قيــم إنســانية: قيــم حقــوق الإنســان، والمســاواة، والعدالــة، ودعــم الديمقراطيــة. أرَدْنــا أن نتحــرّر مــن هــذا النظــام الشــمولي والفــاشي، لنبنــي وطنًا تسُــودُهُ قيــمُ الحريــة والمواطنة والقانــون، وطنًــا يحــترم كرامــة مواطنيــه، ويحافــظ عــلى مقدّراتهــم [...] لقــد اكتشــفنا أنّ هــذه القيــم التــي يتباهــى بهــا الغــرب تَزْيِينيّــةٌ ليــس إلّا. تُســتخدم بحســب الحاجــة، ويَعتبرهــا مفصّلــةً عــلى مقاســات المجتمعــات الغربيــة حــصًرا. أمّــا حــين تتعــارض هــذه القيــم مــع مصالحــه الاقتصاديــة أو السياســية، فــلا مانــع لديــه مــن دعــم الطغــاة أو الأنظمــة الهمجيــة».

أبو الجود يَعرف أيضًا ثمن التضحيات:

«نحــن شــهود عــلى الكارثــة. كثــيرون اضطُــرُّوا إلى البقــاء في جحورهــم، لتجنُّــب الاحتــكاك بقــوّات الأمــن والشَّــبِّيحة. فــأيّ مشــكلة معهــم، تُــؤَدِّ إلى فتــح أبــواب جهنــم، وإعــادة فتــح ملفاتنــا المكدّســة في الأفــرع الأمنيــة.

أردنــا أن نتجنبهــم، ليــس خوفًــا عــلى حياتنــا التــي فقَــدَت معناهــا اليــوم، ولكــن دفاعًــا عــن أطفالنــا وذريتنــا مــن هــذا الرعــب الــذي يقصــم ظهورنــا. يَحلــم الآبــاء في كلّ أنحــاء العــالم بــأن يــرَوا أبناءهــم بالقــرب منهــم؛ أمّــا نحــن ـ الســوريّين ـ فــلا تطمــئن قلوبنــا إلا عندمــا نــرى أطفالنــا قــد فــرّوا مــن هــذا الجحيــم». ⁂

الفصــل التاســع عشــر

كان الضبّـاطُ الثمانيـة مسـجونين منـذ عـدّة شـهور، عندمـا نُقلـتُ إلى زنزانتهـم. انشـقُّوا، وبعـد حـين قُبـض عليهـم. قيـل لهـم ـ كـما قيـل وأُشـيع ـ : إنّ المتظاهريـن إرهابيـون. لكنّهـم سـألوا النـاس وأهاليهـم، فأُخـبِروا أنّ المتظاهريـن نـاسٌ عاديـون.

أعـلى الضبّـاط رتبـةً في الجيـش علويّـون، مثـل بشـار. تجـدُ مسـيحيين أيضًـا، وقلّـة مـن السُّـنَّة. فهـم في الغالـب مـن الرتـب الدنيـا. هـذه التركيبـة تعنـي أنّ أيّ انقـلاب شِـبه مسـتحيل.

صرتُ أراقبهـم، فلسـتُ بعيـدًا عنهـم. يحتلّـون جـزءًا مـن الزنزانـة، ويتمتعـون بسـبب رتبهـم ببعـض الامتيـازات. يُسـمح لهـم مثـلًا بالاسـتلقاء؛ أمّـا نحـن فمتكـوّرون عـلى أنفسـنا، نـكادُ نَتْلـف.

يخضـع السـجين لنظـامٍ صـارمٍ. ولكـوني أرِقًـا، أُمـضي وقتـي في مراقبتهم، وهـم يتهامسـون ويراقبـون البـاب. لا بـدّ أنّهـم يَعرفـون بالتحديـد أيـن نحـن في هـذا المطـار، مطـار المـزّة العسـكري.

في بحـرِ النهـار، أُتابـعُ أحاديثهـم إلى مَـن حالفَـه «الحـظ» مـن المسـاجين، وإلى مَـن «كُتِـب» لـه مَوقـعٌ بِجـوار البـاب. يحاولـون التفـاوض معهـم، كي يتنازلـوا لهـم عـن هـذا «المكسـب»، علـمًا أن مواقعنـا يحدّدهـا الحـارسُ، أو رئيـس الزنزانـة المُخـوَّل تغيـير أماكننـا. فالمَـرضى وكبـار السـن، يُسـمحُ لهـم بالمَوقـع قـرب البـاب لاستنشـاق مزيـد مـن الهـواء. مَوقعهـم داخـل الزنزانـة «مُريـحٌ» نوعًـا مـا، فـما سـبب مطالبتهـم بنقلهـم إلى جـوار البـاب؟

إنّهـم حتـمًا يكذبـون. بنباهتـي فهمـتُ مُخطّطهـم. يريـدون الهـروب. ظنّـوا أنّ اعتقالهـم لـن يـدوم، لكنّهـم هنـا منـذ أشـهر، ولا بـدّ مـن الفـرار. إنْ نُقلـوا إلى جـوار البـاب، يُمْكنهـم القبـض عـلى السـجان عندمـا يفتـح القفـل، ويسرقـون مفاتيحـه، ويدفعونـه إلى المرحـاض. بـلا جلبـة، سـيتوجّهون إلى مكتـب الرقيـب، ويَسـتولون عـلى بنـادق الكلاشـينكوف المخزَّنـة في مكتبـه، ويهدّدونـه، ويجبرونهـم عـلى دخـول الزنزانـة. عنـصر المفاجـأة مـن قواعـد الحـرب، وهكـذا لـن يـدرك الرقبـاء إلا وقـد بَغتَهُـم مـا يَحـدث لهـم.

هنـا سـيَخرج الفـارّون إلى جهـة اليسـار، ويهربـون باتّجـاه داريَّـا. مطـارُ المـزّة غـير مُسـيّج، تُحيـط بـه مكعّبـات إسـمنتيّة. أمّـا زنزانتنـا، فبعيـدة نسـبيًّا عـن وسـطه. فـإن تَمكّنـوا مـن العبـور إلى الجانـب الآخـر، فسـيَصِلون إلى منطقـة يسـيطر عليهـا الجيـش السـوري الحـر.

سألني أحد الضبّاط، واسمه أبو أحمد:

ـــ لو استطعتَ الهروب الآن، فهل تهرب؟

ـــ نعم.

ـــ حتّى لو أخفقَتْ خطّتُنا ومُتْنا؟

ـــ إذا مُـتُّ، تنتهـي حيـاتي وأرتـاح مـن التعذيـب والسَّـجّانين. مسـتعدٌّ لقتـال مئـة شـخص. سـأقاتل. أهـرُب أو أمُـوت.

أريـد الخـروج مـن هنـا. هنـا نمـوت. يتفنّنـون في قتلنـا. المـوت هنـا. نجـاور المـوت كلّ يـوم. جثـثٌ. كلّ يـوم نحمـل جثّـة جديـدة.

لم تنجـح خطتهـم، علـمًا أنّهـم تَمكنّـوا مـن أخـذ موقـع قـرب البـاب. فلـو حـرَسَ البـابَ حارسـان عوضًـا عـن ثلاثـة، لكانـوا سـيطبّقون مـا

رسموا. لكنّ الحراسة ظلّت مشدّدة، وجرى نقلهم إلى سجن آخر. حين غادروا فتَرَت همّتنا. لسنا في شجاعتهم لتنفيذ الخطّة. أحدُ المساجين فتَنَ علينا، والخائن ما زال بيننا.

«يقف» قلبي كلما فُتح الباب: «جاء دوري. سيأخذونني». لقتلِ الوقت، كنتُ أُدردش مع فهد بصوت خفيض. فُتح الباب: «جاء دوري. سيأخذونني».

مرّت أيامٌ ولم يَحدث شيء. لكنّني لم أكن مطمئنًّا.

شُنقَ الضبّاط. سمعتُ الخبرَ بعد أشهرٍ من مغادرتي السجن. كتبتُ على صفحتي الفيسبوكيّة أسماء بعض من شاركتهم في الزنزانة. اتصلَتْ بي ابنة أحد الضبّاط الثمانية. أُعدم والدها، وطلب منها النظامُ الحضورَ لاستلام بطاقة هويّته، لكنّها لم تُبلَّغ بأي تفصيل. لا ريب أنّهم ـ وكثيرون غيرهم حتّى من مُداني المحاكم المدنيّة ـ شُنقوا في سجن صِيدنايا العسكري الرهيب.

كنتُ يافعًا عام ١٩٩٢. حضَرتُ فجرًا عند الرابعة صباحًا في ساحة دير الزور حُكْمَ إعدامٍ. في الواقع، لم أشاهِد عملية الإعدام، ولكنّي رأيت الرجل المشنوق صباح اليوم التالي. كان اسمه حمرون، ترك الجيش، ويُزعَم أنّه اغتال ضابطًا في النظام. ظل معلقًا حتّى الساعة الحادية عشرة صباحًا، والثلج يتساقط. عرضوا عمْدًا جثته أمام الناس، الناس الذين يعارضون العنف. أشعُرُ إلى اليوم بالخوف الذي اعترى جسدي المراهق، حين رأيتُ جسده يتأرجح معلّقًا برافعة البناء.

يَعرفُ الجميع أنّ حمرون مختلٌّ عقليًّا، وأنّ النظام لا يعاقبه وحده، بل كي نَعتبر جميعًا بأنه: «لا خروج عن خطّ النظام».

الفصــل العشـرون

«انْـسَ اسْـمَكَ. أنـتَ الرقـم ١٨٥٨»، هـذا مـا قالـه لي الحـارس قبـل أن يُرسـلني إلى المستشـفى. كنـتُ أتبَـوَّل دمًـا. أوجـاعٌ مبرّحـة في الكِلْيـة تمنعنـي مـن الوقـوف.

في المسـاء، يمـرُّ المقـدَّم ـ رتبتـه أعـلى مـن رتبـة السَّـجَّان طبعًـا ـ ويسـألُنا صوريًّـا: مـاذا ينقصكـم؟ لِنُسـلِّمْ بأنّنـا أخبرنـاه عـن حاجاتنـا، فهـو لـن يهتـمَّ بهـا. ثـم إنّ الحـرّاس قـد يَضرِبـون طالـب الـدواء هـذا. أحيانًـا يُنقـلُ معتقَـلٌ مريـض إلى المستشـفى. يُخـبِرُ مَـن عـاش هـذه التجربـة أنّ الممرِّضـين يَضربـون المـرْضَى، وأنَّ الأطبـاء لا يَرحمـون. لم أرغـب في تصديـق هـذه القصـص.

قلتُ للمقدَّم ذاتَ مساء: «أتبَوَّل دمًا. أنا مَوجوع».

في صبـاح اليـوم التـالي اتصلـوا بي. كنـتُ عاريًـا إلّا مـن سروالي الداخـلي، فأعطَـوني بنطـالًا ملطخًـا بالدم. لبسـتُه وغادرْنا بالسـيارة إلى مستشـفى المـزّة العسـكري، رقـم ٦٠١. كنّـا في كانـون الثاني أو شـباط ٢٠١٣، وكنتُ معصـوب العينـين. وصلـتُ إلى المستشـفى، وعندمـا دخلـتُ المبنـى ضَرَبنـي ضبّـاط المستشـفى بنعالهـم. أخـذوني إلى الطابـق السـفلي، وأزالـوا العُصْبَـةَ عـن عينـيّ، ثـم قـادوني عـبر الممـرّات إلى غرفـة فيهـا حـوالي عـشرة أسِرّة، مـع مريضَـيْن عـلى الأقـل عـلى كلّ سريـر، وأيـدي المَـرْضَى وأقدامهـم مقيـدة بالسلاسـل، أو مربوطـة بأسـلاك بلاسـتيكية.

سألني ممرض:

ـــ هل أنت ١٨٥٨؟

ــــ نعم.

ــــ مُدَّ ذراعك. لا أرى عروقك. فكيف تريدني أن أعطيك المَصْل؟

منــذ الصغــر وعروقــي شــفّافةٌ، بالــكاد تُــرى. أدخَــلَ الإبــرة بشــكلٍ عشــوائيّ، فنزفَــت وأخــذتُ أصرخ، فهــدّدني بالــضرب.

ليلًا دخل الغرفة رجل مخمور، وهو يصرخ.

ــــ مَن يريد دواءه؟

كنّـا في المستشـفى للعـلاج، أقتسِـمُ السريـر مـع رَجُـل السُّـخْرة الـذي همـس لي:

ــــ لا تَطلبْ شيئًا، لا تقُل شيئًا، لا تَرفع يدك.

تذكّرتُ ما سمِعتُه في زنزانة المطار. بدأتُ أفهم، وأُصدّقهم.

همـس أحـد المـرضى: «أريـد دواءً». أمسَـكه الرجـل المخمـور وانهـال عليـه بالـضرب. شـاهدتُ فظائـع مِـن قَبْـل، لكنّهـا لا تُقـارَن بهـذا المشـهد. يـا ابـن الكلـب، ملعـون مـن أرسَـلك إلى هنـا. صرخ الرجـل:

ــــ أنا عزرائيل، ملاك الموت. حكمْتُ عليك بالموت.

ضرَبه، وضربه.

ـ مهمّتي القبض على أرواح مَن وصل إلى نهاية المطاف... وضرَبَه.

أنزَلَ السُّخْرة الجثّةَ عن السرير، وجرْجَرَها نحو المرحاض.

عندمـا ذهبـتُ إلى الحـمَّام، رأيـتُ ثـلاثَ جثـث خلـف البـاب، لاحظـتُ تَبــدُّل لونهــم، لعلّهــم قضَــوا قبــل ســاعات. أغلَقْــتُ هــذا البــاب، وفتَحــتُ بــاب مرحــاض آخــر، فرأيــتُ جثتَــين أُخرَيَــين، أُرغمْــتُ عــلى

التبـوّل عليهـما.

شرح لي السُّخْرةُ أنّ الحرّاس يَنقلون الجثث كل يومين أو ثلاثة.

الرائحة رائحةُ جثثٍ تتحلّل.

لم أسـتطع البقـاء في هـذا المسـلخ، فتظاهـرتُ بالشـفاء. وبعـد أربعـة أيـام، توسّـلتُ إلى الطبيـب أن يعيـدني إلى الزنزانـة.

ــ أنتَ لم تُشْفَ.

ــ نعم، أنا أفْضَل.

في اليـوم التـالي، أعادتنـي سـيارة، وأنـا مقيّـدٌ، إلى فـرع الجَوِّيّـة. ضربني الحـرّاس في طريـق العودة.

ــ ابن الكلب، ماذا؟ ألم تَمُتْ بعْدُ؟ ألم يقتلوك هناك؟

❖ لا شـكّ في أنّ الأطبـاء يتحمّلـون مسـؤولية جسـيمة عـن هرَمِيّـة آلـة المـوت الأسـديّة، حيـث كتَبُـوا بتواطُئِهـم بعـض أحلـك صفحـات التاريـخ السـوري. تَصرُّفُهـم يشـبه مـا حـدث مـع نُظَـراء لهـم في ألمانيـا النازيــة، حيــث كان اليهــود يُعتــبرون طفيليــات، مــن المستحسَــن القضـاء عليهـم.

لم يَـترك النظـامُ السـوري شـنيعة لم يرتكبهـا: نـادى بتحسـين النسـل، واقتصـد في عـلاج المعتقَلـين، عَـذّب نـزلاء المشـافي، وزيّـف المـوت، وأتلـف الأدلّـة، واسـتخدمَ النظـامَ الصِّحـيَّ لإبـادة المعارضـين، الذيـن اعتُـبروا تهديًـدا وجوديًّـا.

نــشَرَت أنصـار شـحّود، الباحثـة الشـابة في مركـز دراسـات المحرقـة

والإبـادة الجماعيـة في جامعـة أمسـتردام، أطروحتهـا عـام ٢٠٢١ حـول العنـف الطبـي في سـوريا. عامـان مـن البحـث، اضطُـرَّت خلالهـما إلى تزييـف هويّتهـا، مدّعيَـةً أنّهـا منفيّـة مؤيِّـدة لنظـام الأسـد عـلى شـبكات التواصـل الاجتماعـي، كي تتصـل بمؤيِّـدي النظـام. تَعـترف بأنّهـا اختـارت «منهجيّـة مراوَغـة»، باعتبارهـا الأسـلوب الملتـوي الوحيـد الممكـن اتّباعـه، بسـبب مـا يخضـع لـه المجتمـع مـن مراقبـة. تقـول في أطروحتهـا: «إنَّ العامليـن في المهـن الصحيّـة هـم جيـش النظـام الثـاني؛ أمّـا المستشـفيات فخَـطٌّ مُواجهتِـه».

خضـع الأطبّـاءُ في عهـدَي حافـظ وابنـه بشّـار لسياسـةٍ قوامهـا الابتـزاز. فـلا مِنَـح دراسـية ولا وظائـف، إنْ لم يُشـهروا ولاءهـم المطلـق لحـزب البعـث الحاكـم. وفي القَسَـم الأخلاقـي المعـروف، صـار المتخرّجـون مُرغَمِيـن عـلى أداء التحيّـة الحزبيّـة؛ مـا حَـوَّل الأسـدَيْن: حـزبَ البعـث، والقومـيَّ العـربي الاشـتراكي، إلى حزبـين فاشـيّين يمجّـدان «أبـو الوطـن».

لتعزيـز ولاء الأطبـاء للسـلطة، ولِبَـثِّ الخـوف في جميـع القلـوب، راجــت نظريــات «المؤامـرة»، و«الأعــداء»، و«أسـطورة الوحــدة».

هكـذا، عندمـا اندلعـتِ المظاهـرات، وبسـبب كلّ مـا بُـثّ مـن رُعـبٍ، صـدّق الكثـيرون سرديّـات بشّـار الأسـد. وبعـد خمسـة عـشر يومًـا مـن بـدء الثـورة في ٣٠ آذار ٢٠١١، وقَـفَ وتَحـدَّث أمـام البرلمـان مُعلنًـا أنّ البـلاد ضحيـةٌ «مؤامـرة». صفّـق المجلـسُ النيـابي لطبيب العيـون، الذي ورث الرئاسـة عـن الـده بموجـب تعديـلٍ دسـتوريّ. بِبَدْلتـه الداكنـة وربطـة عنقـه، تابـع قائـلًا: «المؤامـرات كالجراثيـم، تتكاثـرُ في كلِّ لحظةٍ وكلِّ مـكان، لا يمكـن إبادتهـا، وإنّمـا يمكـن العمـل عـلى تقويـة المناعـة في أجسـادنا». في الثمانينيـات، وصَـف حافـظ الأسـد جماعـة الإخـوان المسـلمين بـ«الحـشرات». مـذ بـدأ القمـعُ الدمـوي عـام ٢٠١١، وُضعتِ المستشـفيات ـ العسـكرية والمدنيـة ـ تحـت مراقبـة أجهـزة المخابـرات،

وافتُتحتْ لهم فيها مكاتب تُراقب الخارج والداخل. فحين يُقبَض على المتظاهرين المصابِين يُنقلون إلى هناك. انتشر خبر هذه المكاتب الأمنيّة، وصار الشباب يُنبّه بعضُهم بعضًا: «لا تُفكّر في الذهاب إلى أيّ مشفى إنْ تعرَّضْتَ لإطلاق نار».

كلُّ مَن عالجَ المتظاهرين مِن أطبّاء اعتُبر خائنًا. ممارستُهم لواجبهم باتت تُعرّض حياتهم للخطر. وقد أُنشِئت بالسرّ مراكزُ إغاثة في الأقبية، أو غُرفِ المعيشة أو المطابخ، قبل أن يقومَ نظامُ مستشفياتٍ مُوازٍ في مناطق سيطرة المعارضة. بعد حين، وبشكلٍ مُمَنهج، اجتهد النظام السوريّ وحليفه الروسيّ في قصف المراكز الطبيّة البديلة.

نُقِل مازن إلى مستشفى يوسف العظمة العسكري، المعروف أيضًا بِاسْم «مستشفى ١٠٦». تقول أنصار شحّود: «إنّه معسكر مَوت، يُرسَل إليه المعتقَلون المرضى». يقع في منطقة المزّة. أوّلُ مَبانِيه شُيّد أيّام الانتداب الفرنسي على الموقع «٣٣ °٣٠ '٤٣» شمالًا، و«٣٦ °١٥ '١٤» شرقًا.

تقع مَدرسة ليسِّيه دمشق الفرنسية بمحاذاتِه، على مَبْعَدةٍ مِن وسْط العاصمة، وعلى مسافة قريبة نوعًا ما من المطار العسكري بزنازينه المكتظة، ومن شارع ٦ أيّار المعروف بفروعه الأمنيّة، حيث يتكدّس سجناءُ ومساجين مجهولو المصير.

يَستقبل مُجمَّعُ المستشفى بمبانيه القديمة والجديدة، بدءًا من أسماء [زوجة الرئيس] وبشّار الأسد، إلى الجنود والمواطنين العاديين. أمّا المعتقَلون المرضى، فلهم جناحٌ خاصٌّ يجري فيه إخفاؤهم وضرْبُهم و«علاجهم»، جوار جثث السجناء الذين يجري تصويرهم للأرشيف العسكري السري، في مستودع مَركبات عسكريّة.

عنـد وصولهـم إلى المستشـفى يُفـرَز السـجناء. فلِـكلّ فـرعٍ مـن أفـرُع المخابـرات غُـرَفٌ خاصّـة بـه. يـزور الطبيـب المـرضى مـرّة في الأسـبوع، ويقــوم بتقييــم أوضاعهــم: «الميــؤوس منهــم والعصــاة مَصيرهــم المـوت»، بحسـب مـا كتبَـتِ الباحثـة.

إلى جنـوب المبـاني، تحـت المَرائـب التـي تُركـن فيهـا مَركبـات الجيـش، تُلْقـي أجهـزةُ المخابـرات كلّ صبـاح جثثًـا جديـدة. الجثـث بـلا أسـماء، كُتِــبَ عــلى جلدهــا مبــاشرة أو عــلى شريــط لاصــق فوقهــا، بخَــطٍّ سـميك، رقـمُ صاحبهـا، ثـم يجـري تصويرُهـا أكـثر مـن صـورة.

نجـح مُنشـقٌّ اسـمُه المسـتعار «قيـصر»، عـام ٢٠١٣، في سرقـة ٧٢ ألـف صـورة وتهريبهـا. هـي اليـوم دليـلٌ دامـغٌ عـلى الجرائـم التـي ارتكبهـا ـ ويرتكبهـا ـ النظـام.

لِنَضــعْ جانبًــا عــدد الصــور، ولْنتســاءل عــن دور الأطبّــاء ـ أطبّــاء النظــام ـ مُــزوّري المــوت. قبْـل نقـلِ الجثـث إلى المقابـر الجماعيـة، يُصـدر أطبّـاء شرعيّـون شـهادات مـزوّرة تَـشرح أسـباب الوفـاة، جـاء فيهـا مثـلًا: «سـكتة قلبيـة»، أو «ضِيـق في التنفّـس». تَكشـف الصـور ارتكابـات الطواقـم الطبيّـة، وغيـاب الرعايـة، عِلـمًا أنّ أغلـب السـجناء قضَـوا لا بسـبب التعذيـب والـضرب، بـل جوعًـا واسـتهتارًا، وعـدمَ مُبــالاةٍ بأمراضهــم.

خــلال محاكمــة اثنــين مــن أعضــاء النظــام بتهمــة ارتــكاب جرائــم ضــد الإنســانية، وهــي المحاكمــة الأولى مــن نوعهــا في ألمانيــا، بــين نيســان ٢٠٢٠ وكانــون ٢٠٢٠، حلّــل فريــق طــبّ شرعــيّ تابِــعٌ للأمــم المتحــدة «ملَــفَّ قيــصر». دقّــق البروفيســور ماركــوس روتشــيلد أكــثر مــن عامــين في الصــور الــ٨٣٩،٦٢، واحــدةً تلــو الأخــرى، وفي الجثــث الــ٢١٨،٦، لمحاولـة تحديـد الأسـباب الطبيّـة ـ لا الدوافـع السياسـيّة ـ

لوفـاة هـؤلاء المعتقلـين.

في تشريـن الثـاني ٢٠٢٠، خـلال جلسـات الاسـتماع في محكمـة كوبلنـز، أفـاد البروفيسـور روتشـيلد بـأنّ معظـم السـجناء المتوَفَّيْنَ كانـوا عُـراة، أو يرتـدون ملابـس داخليـة، وأنّ ثلـث الجثـث بالغـة الهـزال مـن قلّـة التغذيـة، وأكـثر مـن نصفهـا ظهَـر عليهـا آثـار عنـف وحـشي. فبيّنَـت الصـور إصابـة أغلبهـم بمـا يسـمّى بـ«مـرض الهائـم»، حيـث تتبـدّل سـماكة الجلـد ولونـه، فيضحـى داكنًـا نتيجـة لدغـات القمـل والبراغيـث.

اعـترف البروفيسـور ماركـوس روتشـيلد، وهـو يـشرح مـا تَوصّـل إليـه أمـام قضـاة محكمـة كوبلنـز، بأنّـه وزميلتـه أعـادا مـرات كثـيرة تحليـل مجموعـة مـن الصـور بسـبب تشـابهها، مُشـكِّكَيْن في أنفسـهما، ومُعيـدَي الكـرّة. نعـم، الشِّـبْه كبـيرٌ بـين الصـور. فأصحـاب الجثـث ضُربـوا وجُوِّعـوا، ذلـك لأنّ «طريقـة منهجيّـة» تُتَّبـع في مراكـز المخابـرات.

في ٠٢ آب ٢٠١٧، اعـترف بشـار الأسـد ـ في خطـابٍ ألقـاه ـ بـأنّ البـلاد قـد فقـدت شـبابها وبنْيَتَهـا التحتيـة، «لكنّهـا اكتسـبَت مجتمعًـا صحِّيًّـا متجانسًـا [...] وهـذا التجانـس هـو أسـاس الوحـدة الوطنيـة». ❖

الفصـل الحادي والعشرون

أحـاول ترتيـب الأمـور في رأسي. أُرتّـب، فيعترضنـي شَرْخٌ في الوسـط. أحـاول ربـط الأمـور، ولا أنجـح دومًـا، فيخـرج عقـلي عـن الخدمـة. أشـعُر بـألمٍ في الـرأس. أَعصِبـه، نعـم. الأمـور متّصلـة، وجانـب دماغـي

الأيسر هو السجن. حياتي في السجن، وقد تَعطّل جزء من عقلي وأنا هناك. لم يبق شيء. السجن جريمة، وقتل، وصناعة إرهاب. رأيتُ سجناء يموتون، ورأيت كيف يدفعنا النظام إلى الجنون. خيرة الناس الأصحّاء يُزَجّ بهم في هذه المطامير، ويُدفعون دفعًا إلى الجنون، وإلى غسل عميق للدماغ، وإلى حشْوِنا بأفكار ضدّ الغرب. بشّار هو مدير مصنع الإرهاب، ومُحترفه.

في أفرع المخابرات، يُكدَّسُ المعتقلون في مساحات ضيّقة. أين مِنّا الدواب؟ عراة، نَتِنون. وعِوضًا عن الطعام، يقترحون علينا قراءة القرآن.

لا. لِأُخبركِ: يتعرّض السجين في هذه الأفرع الأمنيّة لإهانات واستفزازات جارحة.
السجين لا شيء. سألتُ نفسي: لماذا يَضْربُ ويَقتلُ السوريُّ سوريًّا بهذا الأسلوب؟

بعدها، يجري نقلك إلى سجنٍ مدني (مثل عدرا)، أو سجنٍ عسكري (مثل صِيدنايا). في هذه السجون، تُخصّصُ أجنحةٌ للجهاديِّين. ظروفهم بشكلٍ عام أفضلُ من ظروفنا. طعامٌ كافٍ، ورياضة، ولياقة بدنية. رَفاه! على نقيض ما كنّا فيه. وبعد ذلك في عام ٢٠١١، خَلَّى النظام سبيلهم لتلطيخ ثورتنا. لِنَعُدْ إلى البداية. بدأنا نتظاهر، ونطالبُ بحقوقٍ حُرِمْنا إيَّاها. نحن ـ سكان دير الزور ـ بعيدون كلّ البعد عن دمشق. لم يكن إسقاط النظام من مطالبنا في البداية. كانت مطالبنا تقتصرُ في الأيّام الأولى على حرية التعبير، وإمكانيةِ إنشاء أحزاب سياسية، وإنهاء حالة الطوارئ.

أهل دير الزور معروفون بعنادهم، ولا يحيدون عن مبادئهم. ولا شكّ في أنّ بشّار الأسد يعرف ذلك، فأراد قمعنا فورًا مُرسِلًا

دبّاباتـه إلى الديـر، كـما حـدث في حـماة. مظاهراتنـا ضمّـت عـشرات الآلاف. نزَلْنـا كلّنـا معًـا. صِرنـا مليونًـا. نعـم، مليونًـا.

عشـتُ في بلـدي مـع أجانـب عملـوا مثـلي في شركـة شـلمبرجيه. عندمـا يـزور هولنـدي أو فرنـسي أو أسـترالي منزلنـا، نُعرّفـه بأفـراد العائلـة، ونشـاركه في ثقافتنـا حتّـى يَعـرف مـن نحـن. نتنـزه معًـا، ونـزور معـه مواقعنـا الأثريـة.

نحـن نَعـرف أنّـه وفَـدَ إلى بلدنـا للعمـل بضـع سـنوات، وأنّـه بعـد ذلك سـيغادر. نتـصرّف مـع الوافديـن دومًـا بطريقـة تجعلهـم يشـعرون بأنّهـم في بيتهـم.

حـضر الأجانـب مظاهراتنـا. نزلـوا إلى الشـوارع، ورأوا بشـار الأسـد وهـو يذبحنـا، ورأوا القتـلى والمعتقلـين. صبَرْنـا وقُلنـا إنَّـه سـيغيِّر رأيـه. اسـتمرت المظاهـرات، ورأى الجميـع أنّهـا مسـتمرّة. تظاهَرْنـا سـلميًّا عـدة أشـهُر. لقـد اسـتهانوا بنـا، ونظـروا إلينـا، وكأنّنـا لسـنا بـشرًا. هـم الذيـن يمدحـون... الحريـة.

لقد ذُبحنا على مذبح المصالح.

كان يكفـي أن يُقَـرِّع الفرنسـيون والأميركيـون بشـار الأسـد، وأن يقولـوا لـه: «كفـى. دع النـاس يُعـبّروا، ويتنفّسـوا».

خاننـا مَـن أوحـى لنـا أنّـه حليـف لنـا، وأُصبنـا بخيبـة أمـل كبـيرة إلى درجـة أنّنـا الآن... لم يَعُـد لدينـا، لـدى أطفـال ديـر الـزور، أيّـةُ ثقـة. لقـد تَعرّضنـا للذبـح. ذبَحَنـا بشـار الأسـد، وداعـش، والأميركيـون، والـروس: «قيـاصرة» القصـف والبراميـل.

لَـمّا وصـل جيـش النظـام إلى ديـر الـزور، شَـعرْنا بالخيانـة. في البدايـة اعتقدنـا أنّـه أُرسِـل لتخويـف النـاس. قصدْنـا الجنـود وقلنـا لهـم:

«نحـن إخوانكـم»، وقدّمنـا لهـم مـن حـواضر بيوتنـا.

مـا إنْ دخـل الجيـش المدينـة وضَرَبَ الأهـالي، حتّـى تُركنـا لمصيرنـا. أيـن الأصدقـاء؟ أحرَقـوا إنسـانيّتنا وأخلاقنـا وقلوبنـا، وأحرقـوا البسـطاء. هـم يَعرفـون مـن نحـن، إذْ عـاش الفرنسـيّون معنـا بأمـن وسـلام. إنّهـم يعرفـون ثقافتنـا، ويَعرفـون مقاصدنـا، وحِرصَنـا عـلى الإنسـان وحقوقـه، وعـلى القوانـين الدوليـة.

مـن جديـد، نَصْـلٌ يَخـترقُ رأسي. زِييـي... زِييـي... زِييـي... رأسي... هـذه الذكريـات تَكـسرني.

... ألَـنْ يعُـود إليّ هـدوئي؟ مـرة أخـرى؟ بـلى. حـين تتوقّـف الانفجـارات داخـل رأسي، وحـين أشـعرُ بالتعاضـد بـين سـورِيِّي الداخـل، وحـين يعمـل السـوريّون مـن أجـل الثـورة؛ يعُـود إليّ هـدوئي.

أريـد العـودة إلى سـوريا. لقـد اكتشـفتُ العـالم وأكاذيبـه. رأيـتُ... يقـول بشـار الأسـد: إنّ الغـرب كاذب، لعلّهـا الحقيقـة.

أريد العودة إلى سوريا للدفاع عن بلدي.

بجـوار منـزلي، عـلى بُعـد عـشر دقائـق سـيرًا عـلى الأقـدام، قنـاةُ مـاء وحديقـةُ حيـوان أزورهـما... فأهـدأ.

أحْمِـل بطّانيـةً، وكـوب قهـوة أو شـاي، وأجلـس أمـام المـاء وحـدي، مصغيًـا عـبر هاتفـي سـاعات وسـاعات، سـاعتَيْن، ثـلاث... إلى مـا أُحـبّ مـن أغنيـات الشـجن. أتأمَّـلُ الزرقـة، وأسـهو. فكـرةٌ تأخـذني، وفكـرة تَـرُدّني.

هذا فرات هولندا!

أُطعـم الغـزلان والأيائـل، وأُحـضرُ خبـزًا للبـطّ. مـا أشـبَهَ المشـهد

بمزرعتنا القريبة من الماء في بلدة دير الزور، التي ضمّت أبقارًا وأغنامًا وجمالًا. ربّيْنا بطًّا أيضًا. لكَمْ أحببتُ حيواناتنا!

لقد دمّروا ذاكرتنا. دمّروا البشرَ والحجر، مَراتع الذاكرة. مع كلّ جولة دمار، كانت خلايا رأسي تضمحلُّ. هذا المكان يُنشّط ذاكرتي، فأتذكّر طفولتي وشبابي، وإنْ بشكل مختلف. أُطعمُ البطَّ خُبزًا كي لا يبتعد عنّي، وأَشعر معها وهي حولي بأُلْفة.

أتذكّر طفولتي. أهدأ. لكنّي أتخيل أيضًا البيوت المدمّرة والمنهارة. أين سكّانها اليوم؟ هل ماتوا؟ هل قُتلوا؟

تعُود بي الذاكرة إلى أيّام قضَيتُها في جوار الفرات في الخان: ريفٌ أخضرُ، وماشيةٌ اهتممتُ بها. كنتُ حُرًّا. أمّا شؤون الدولة، فممنوعٌ الاقتراب منها. فإنْ فعلتَ فستُقلق السيّدَ الرئيس، وسيَفقد أعصابه. ماذا لو فقد أعصابه؟

أَرْعَبَه أهالي دير الزور. مُحافَظتُنا مستنقعٌ، قد يغرق فيه النظام وصحبُه. إنّهم يُصرّون على ولائنا ودعمنا، فهو مفتاحهم لكلّ المناطق المجاورة. نحن متحدون، وروابطنا القَبَليّة قويّة. ما أكثرَنا، من الرقة إلى الأردن.

هيّا، سأذهب لشراء جبنٍ منزليّ يصنعه رجل سوريّ، ثم أقصد وسط المدينة لشراء ما أحتاج إليه من سُكّر.

الفصل الثاني والعشرون

عُيّنتُ سُخْرةً في زنزانة كبيرة، مراحيضها في أقصاها. قبْل وصولي إلى مركز الاحتجاز، لم أكن أعرف ما عمَلُ السُّخْرة. سمِعتُ أنّهم

مجنـدون في الجيـش، يغسـلون الغسـيل، ويهتمـون بالطعـام.

كنـتُ محتجَـزًا منـذ عـدة أشـهر، حـين اقـترح رئيـس الزنزانـة اسـمي ـ عـلى مـا أعتقـد ـ .

على أيّة حال، قال لي السجان ذات يوم:

«أنتَ والحمار الذي خلفك سُخْرة منذ الآن».

يَطـرُق المسـاجين البـاب قائلـين: لقـد فـارق سـجينان الحيـاة لِتَوِّهِـما، والتيـار الكهربـائيّ مقطـوع، والحـرارة لا تُحتمـل. «الحـمار» الـذي خلفـي صبـيٌّ مـن داريَّـا، عمـره ١٧ عامًـا.

يُبـدَّل السُّـخْرة بانتظـام، والأسـباب معروفـة. بعضنـا يمـوت، وبعضنـا الآخـر يُنقـل إلى معتقـلٍ آخـر. يُعَـيَّن في الزنازيـن الواسـعة أكـثر مـن سُـخْرة، لتلبيـة جميـع الطلبـات. واحـدٌ يُحـضِّرُ الطعـام، وواحـدٌ يواكب زمـلاءه إلى المرحـاض، وواحـدٌ لتوزيـع الأدويـة. حَـدَثَ ذاتَ مـرّة أن كُلِّفـتُ للقيـام بهـذه المهمّـة الأخـيرة لِكـوني ممرِّضًـا سـابقًا. الأدويـة شـكلية وشـحيحة، ويُحتفَـظ بهـذه المهمـة لرفـع العتـب. يتظاهـر الضبّـاط بأنّهـا مؤَمَّنـة، وهـم يَعلمـون جيـدًا أنّهـا غـير كافيـة.

كلّ يـوم، حـين ينتصـف النهـار، يَخـرجُ جميـع رجـال السُّـخْرة مـن الزنازيـن لاسـتلام الطعـام. تَصِـل الشـاحنات، فيَصعـد اثنـان إلى قلـب الشـاحنة، واثنـان آخـران يتسـلَّمان الأكيـاس والأواني الكبـيرة... نُفـرّغ كلّ شيء: أكيـاس الخبـز، وعلـب الأرز، ثـمّ نقُـوم بتوزيعهـا على عشرات الزنازيـن، واضعـين الأكل في أوعيـة بلاسـتيكية كبـيرة ذات إطـار أحمـر، تسـتَوعب حاجـة حـوالي عشريـن شـخصًا.

كنّـا نـأكل بأيدينـا. في بداية اعتقالي سُـمح لي برغيـفٍ ونصف، حاولتُ وُسْـعي الاحتفـاظ بهما وببعض اللبنـة والجبنة البيضـاء إلى اليـوم التالي.

مـن مهـام رَجُـل السُّـخْرة تنظيفُ مكاتـب الضبّـاط وغُرَف الاسـتجواب. دلْـوٌ، ومـاءٌ، وملابــس قديمــةٌ، ومنظّــف «اللودالــين» الرخيــص في مسـتوعبات الخمسـة لـترات، وهيّـا إلى العمـل. الضبّـاط يصِلُـون إلى مكاتبهـم بأحذيتهـم القـذرة، ولا بـدّ مـن شـطف الأرض، ودفـع المـاء والأوسـاخ بِقَشّـاطة مطّاطيـة، ثـمّ تنشـيف الأرض بقمصـان وخِـرَق باليـة.

أخبرتُـكِ كيـف يخلـع المعتقـل ملابسـه قبـل دخـول غرفـة التحقيـق، وكيــف يجمــع الضبّــاط القمصــان الأنيقــة، كقميــصي مــن ماركــة «سـتيفانيل». أعتقـد أنّهـم يرمـون الملابـس المهترئـة. عندمـا ينقلوننـا مـن مـكان إلى آخـر، أو عندمـا نَمْثُـل أمـام القـاضي، يدبّـرون لنـا ملابس مـن هـذا المخـزون.

مــن البــاب، حــين أهُــمُّ بالقيــام بِسُــخْرتي، يــصرخ الســجّان بي وهــو يَضربنــي عــلى ظهــري:

ــ عجِّلْ، وإنْ وجدْتُ حبّة تراب واحدة فسوف... أُمَّكَ وأُختَك.

ثم يَضربني من جديد.

رَجُـل السُّـخْرةُ محسـودٌ مـن زملائـه؛ إذ يُمْكنـه أن يَخـرج مـن الزنزانـة الخانقـة، التـي نبقـى فيهـا واقفـين أو متقوقعـين، حيـث يُمنَـع علينـا الحــراك، ويكدّسـوننا وكأنّنــا حــشراتٌ ميتــة. الهــواء قليــل، والحركــة أيضًــا. لــذا، يعــاني أغلبُنــا تَورّمًــا في الســيقان. الخــروج فرصــةٌ لِعَــبِّ هــواءٍ نقــيّ.

كنـتُ ـ كـما تعرفـين ـ موظفًـا في شركـة فرنسـية. تعلّمـتُ بعـض أسـس الإدارة. لــذا، كفَّيــتُ ووفَّيــتُ في مهمّتــي، ولــو أنّي مَــددتُ يــدي إلى الطعـام أحيانًـا. غافلْـتُ السَّـجَّانَ وأنـا أُوزّع الأرز في الأطبـاق، مُهرّبًـا

لنفسي حفنة أُرْزٍ إضافيّة. الجوعُ كافرٌ، كما تعرفين.

هذا، وأخفيتُ لفهد المريض أدويةً بجوار المراحيض.

سمعتُ بزنزانةٍ سُجِنَ فيها شقيقان. عُيِّن واحدٌ منهما سُخْرةً، فصار الآخر يطلب من الأوّل أن يَسمح له بالذهاب إلى المرحاض أكثر من مرّة. صار السخرة مُحرجًا أمام باقي المساجين. وهكذا، تَقاتل الشقيقان.

حين عُيّن طارق سخرة، غضب عندما أحضر رئيسُ الزنزانة الهاتفَ لفهد كي يتصل بعائلته، علمًا أنّني دفعتُ ثمن «الخدمة». فوشَى بي، ونُقلتُ إلى زنزانة مَلْأَى بالبراز. ظننتُ أنّني سأُجَنّ. صار جلدي يتقشّر.

حين كنتُ أخرجُ لإحضار الطعام، أو لتنظيف الممرّات ومكاتب الضبّاط، كنتُ أحاول تسجيل مشاهداتي في ذاكرتي. فإن عشتُ أُخبِر بها، وإنْ مُتُّ تَموتُ ذاكرتي معي. أفتحُ عينيّ وُسْعَهما، وأُسجّل كلّ ما أرى. أحفظ أسماء الجلّادين. فحين يعذبونك وأنت معصوب العينين، لا ترى شيئًا.

ما الذي يبقى من ذاكرة سجين؟ ذكرياتٌ، وذكرياتٌ. كيف لي أن أتذكّر؟

أذكرُ أسماء مَن سُجنوا معي. أسماؤهم في ذاكرتي. قبل اعتقالي انتقلتُ من مدينة إلى أخرى، والتقيتُ بالعديد من الناشطين. المتظاهرون مسيحيّون ودروز وسُنَّة وعلويُّون. كنّا نعملُ يدًا بيد. ثار مثقفون وكُتّاب وطُلّاب، وخرجوا مطالِبين بالكرامة، وبِبناء دولة مدنية. لكنّ النظام قتَل أفضَلَنا، متمتّعًا راغبًا في اغتيال الثورة.

حين تَخُونني ذاكرتي الآن، أتصل بالأصدقاء، فيساعدونني. عليَّ لَمْلَمَتُها والتحقّق من معلوماتي.

قبــل الثــورة، كانــت ذاكــرتي مــن حديــد. وبعــد اعتقــالي في فــرع الجويّــة، أرغَمــتُ نفــسي عــلى التذكّــر؛ فإمــا الخــروج مــن هــذا الجحيــم، أو المــوت.

حدّثَنـي إخـوتي عـن احتجازهـم. كنتُ صغـيرًا، بَيْـد أنّني حاولـتُ حفظ كلّ مـا قالـوه في تلـك الأمسـيات، مسـتمعًا إلى أحاديثهـم باهتـمام. في أيّامهـم، لم تكـن الزنازيـن بهـذا الاكتظـاظ، وبهـذه الوحشـية المنافيـة للإنسـانيّة. لـن أسـكت ـ إنْ عشـتُ ـ عـن هـذه الجرائـم.

الفصــل الثالث والعشرون

قالـوا لي: «إنْ لم تنـسَ مِـن أيـن أتيـتَ، فسـتنهار. بمجـرّد وُصولـك إلى السـجن، فكِّـر في نفسـك فقـط. انظُـرْ إلى الأرض، وأَحْـصِ عـدد البلاطـات الصغـيرة. أنـتَ سـجين هـذه المسـاحة، أنـت الآن هنـا. نظِّـم إقامتـك «عـلى قـدّ بلاطاتـك»، حتّـى تتمكـن مـن النجـاة. فكِّـر في أكلـك، تَحايَـلْ. إنْ فكَّـرتَ في الخـارج، فسـتموت».

لقد كان إخوتي على حق.

الفصــل الرابع والعشـرون

أخـذ يهـذي. الكوابيـس تُحـاصره. رغـوةٌ غريبـة تَخـرجُ مـن فمـه، ويقـف فجـأة لحظـاتٍ وهـو شـارد الذهـن. مـا زال في عالمـه المرعـب.

يقـف، وأرى نظراتـه التائهـة الصامتـة. نأخـذه إلى الحـمّام، ونغسـل لـه وجهـه بمـاء بـارد. صـار متقوقعًـا وحيـدًا لا يخالـط أحـدًا، كأنّ لا شيء يمسّـه. تعـبَ مـن العيـش، ومـن محاولـة العيـش، ومِـمَّا لا يَحتمـل. «دَعُـوني أَمُـتْ» همَـس.

رأيتُـه ينهـار. حدَسْـتُ في ذاك. قبْـل اعتقـال والـده وأخـي، كان بصلابـة حصـان، قويًّـا، مسـتعدًّا للمواجهـة. فهـدٌ اسـمٌ عـلى مُسـمّى، يليـق بـه.

ولكن بعد اعتقال والده...

علاقـة فهـدٍ بـأبي فهـد لم تكـن علاقـة ابـنٍ بأبيـه. كانـا صديقَـين. حتّـى إنّنـي لم أكـن «عمَّـهُ»، ولم ينـادِني يومًـا: يـا عمّـي، ولا يـا مـازن، بـل «أبـو المِيـز» تَحبُّبًـا.

سـقط فهـد حـين سـمع باعتقـال والـده. هـو في سـجن، وأبـوه في سـجن آخَـر. أمُّـه وأختـه تنتظـران وحدَهُـما عـودةَ المسـاجين، وهـذا مـا لم يحتملـه. حذّرَنـا إخـوتي: «انسَـوا الخـارج، وإلا فسـوف تنهـارون».

انهار فهد. ولم يَعُد يردُّ عليَّ إنْ تَحدّثتُ إليه.

لم يعُـد يَحتمـل أيّ حديـث. كان سُـخْرةً مثـلي، مسـؤولًا عـن فـرض الصمـت عـلى المعتقلـين سـاعةَ يذهبـون إلى المراحيـض. بعضهـم لم يلتـزم، علـمًا أنّ السـجان حـذّرَ الجميـع، وأبْلَـغ فهـدًا أنّـه سـيعاقبه إن سـمع حسًّـا. سـمع السـجّان ضوضـاءَ، وقـرّر أن يَـضرب فهـدًا بالعصـا سـبعين مـرّة.

لم يعُدْ فهدٌ قادرًا على الاحتمال.
ـــ اصمُتوا، لا أريد أن أُعاقَب مرةً أخرى بسبَبِكم.
بعضُهم لم يَفهم رُغم التكرار، والتكرار، والتكرار.
كنتُ على باب المرحاض. يَدخُل المعتقَلون اثنَينِ اثنَين.

ـــ هيّا ادْخُل، لا تُضيّعِ الوقت.

يُسمح بدقيقة واحدة لكلٍّ منّا. دقيقة واحدة تكفي بالكاد لنزع السروال الداخليّ. المصابون بإسهال يحتاجون إلى مزيد من الوقت، فأحاول غضّ النظر ولو ضربني السجّان ضربةً أو اثنتين بعصاه. أمّا إن بالَغَ، فعلى الدنيا السلام.

قال فهد لأحدهم: «قِفْ في الطابور».
ـــ لا تلمسني. ارفَعْ يدك عن كتفي.
ـــ كلّنا سجناء، ولسنا هنا لنتجادل، نحن إخوة.
ـــ لا، نحن لسنا إخوة. أنتم إرهابيون؛ أمّا نحن فمع بشار.
ـــ إن كنتَ مع بشار، فلماذا حبَسَك هنا؟
ـــ بسببكم يا أبناء العاهرة!

تَعارك فهدٌ معه، وطرحه أرضًا. ضربه وكسر أنفه. وللفصل بينهما احتجنا إلى أن نكون ثلاثة.

بعد هذه الواقعة، لم يعُد يَحتمِلُ التحدث إلى الحارس، ولا إلى النزلاء. صار يَضرب.
أخرجه اعتقال والده عن طَوره. ما حدَث يَقصم الظهر، ولا يُحتمل. فهِمْتِ؟!

مَن لم يختبِرْ ما اختَبره، فممنوعٌ من الحكم عليه. فكيف له أن يَعرف؟

❖ أعِدْهُ. أعِدْهُ إلى والدته يا مازن. ماذا تنتظر لتُخبرها؟ أن يجفّ دمه؟ لقد جفّ. أعِدْ فهدًا إلى والدته. أعِدْ لها تُرابه. اترُكْ يده،

اتْرُكْـه. لا تَكبِـت دموعـك. غسِّـلْه بهـا، ثـمّ عُـدْ إلى «الحيـاة»، إلى مـا تسـتطيعه مـن حيـاة.

في هاتفـك صُـوَرٌ لـه. صـورٌ عِـوض الكفـن. تُرِينـي إيّاهـا باحتيـاطٍ حنـون بـين دمـع وابتسـام. عَلّقـت صـورةً لـه عـلى جـدار صالونـك في هيلغـوم، رأسـه مُنْحـنٍ، وعينـاه زائغتـان مـن الشـمس. عَلّقـت أيضًـا صـورةً لعبـد العزيـز في عيـادة طبيـب الأسـنان، وهـو يضـع نظـارةً عـلى أنفـه.

صُـوَرُ غُيّابِـك، صُـوَرٌ تُؤكّـد المؤكَّـد. مـا زالـوا أحيـاء، ولـن يسـتطيع النظـام مَحْوَهُـم. تجتمـع الأمهـاتُ كلّ أسـبوع منـذ خمسـة وأربعـين عامًـا في سـاحة مايـو في بوينـس آيـرس الأرجنتـين، حامـلاتٍ صـورةَ أحيـاءٍ غيّبَهُـم الديكتاتـور بـين عامـي ١٩٣٨ ـ ١٩٦٧. يقفـن ويمشـين في حلقـةٍ، للتذكـير بغُيّـابٍ عُذّبـوا وغُيّبـوا دون أن تُـرَدّ جثثهـم.

أنـتَ أيضًـا تمـشي أحيانًـا مـع سـوريِّين آخَرِيـن، حامـلًا صُـوَرَ فهـدٍ وعبـد العزيـز وأبـو فهـد خـلال الاجتماعـات والمظاهـرات، أمـام الأمـم المتحـدة في جنيـف، وفي شـوارع باريـس وأمسـتردام.

لكن، حين تعُود إلى بيتك...

كنـتَ راضيًـا؛ أمّـا الآن، فمغلـوب. كانـت المظاهـراتُ الأولى مصـدر فـرح؛ أمّـا اليـوم فخطواتـك متعـثّرة. تَهـزأ مـن جسـدك النحيـل: «انظـري، أنـا هيـكل عظمـي». قهـوةٌ وسـجائر، هـذا غـذاؤك.

ردّ فهد. دعْهُ يَذهب...

يذهـب؟ إلى أيـن؟ أعـرفُ أنّـك لـن تسـتطيع تركـه. لكـن مـاذا؟ وجهـك يـزدادُ نُحـولًا، وسَـواد الأرق تحـت عينيـك. أيـن خـدودك الممتلئـة التي رأيتُهـا في صـورٍ لـك أيّـام عملـك في شركـة شـلمبرجيه؟ بعـد مغـادرة

السجن ازددتَ هزالًا. «هزَلْتُ. أعْرِف. هزَلْتُ من هُزال رأسي».

أنت حرٌّ. حرٌّ بألْفِ قيدٍ وقيد، تَهيمُ على وَجْهِ ذاكرتِك، وعلى وَجْهِ وجَعِك، لا على دروب المنفى. ❖

الفصل الخامس والعشرون

منذ بضعة أسابيع أقبع في هذه الزنزانة، مع مساجين مِن حلب والرستن والمعضمية وتلبيسة وريف حماة. نُودي علَيّ وطُلب منّي التوقيع على ورقة.

على ماذا سأوقّع؟ لا أجْرُؤ على طرح السؤال. فلو فعلْتُ، عقابي معروف. سيكسِرون رأسي.

رأيتُ الموت أمام عينيّ. سأُرسَل إلى الموت، فأنا مُدانٌ. اعترفتُ بحمل السلاح وقتل الجنود في أثناء تعذيبي. أسباب كافية لقتلي.

المسجونون عند جميل حسن ميّتون حُكْمًا. إنّه رئيس المخابرات الجوية، ومجرمٌ من مجرمي النظام، يدير مطارَ المزّة العسكري، والمخابرات الجوية في باب توما، وفرع القصّاع... كلّها تأتمر به.

هل زُرتِ باب تُوما؟ هل تتذكرين تلك الساحة، حيث يقف السُّيَّاح؟ بالقرب منها مركزُ احتجاز، تديره المخابرات الجوية.

تقع مديريّة المخابرات الجوية خلف مكتبة الأسد، في ساحة الأمويين، بجانب مبنى الأوبرا والتلفزيون، حيث فندق الشيراتون والفور سيزونز. مراكز الاحتجاز كثيرة، تحتلُّ طوابق المباني

السـفليّة. لقـد كان النظـام مسـتعدًّا قبْـل بـدء الثـورة.

وقّعـتُ عـلى الورقـة. أعـادوا لي ٢٠٧٥ لـيرةً، وهاتفًـا خلويًّـا، ومَداسًـا كلّ فـردة فيـه مختلفـة عـن الأخـرى، وسروالًا ممزقًـا، وقميـصَ معتقـلٍ وصـل لِتَـوِّهِ وجـرّدوه مـن ملابسـه.

كنّـا حـوالي خمسـة عـشر سـجينًا، مقيديـن معًـا بسلسـلة، توَجّهنـا إلى حافلـة.

اعتقدتُ أنّنا نُقتاد إلى الإعدام.

لم نكن نَعرف وِجْهتنا. الموت بلا أدنى ريب.

أعـرفُ المطـار، عـلى الرغـم مـن عينـيّ المعصُوبتَـين، والـرأس المُطَأْطَـأِ، وسـتائر الحافلـة المُسْـدَلة. حاولـتُ تحديـد مسـارنا: «إنِ اتجَهَـتِ الحافلـة يسـارًا، فـإلى منطقـة الصبّـورة حيـثُ تَجمُّـعُ مجموعـةٍ مـن الثكنـات العسـكريّة، وفيهـا يجـري الإعـدام. أمّـا إنِ اتجَهَـتِ الحافلـة إلى اليمـين، فنحـن في طريقنـا إلى دمشـق».

انعطفَـت الحافلـة يمينًـا، حيـثُ يوجَـد نفَقَـانِ باتجـاه دمشـق إلى سـوق الحميديـة، ثـم يسـارًا. أيـن نحـن؟ نفَـقُ «الثـورة» إلى الشرطـة العسـكرية، حيـث تجـري إعدامـاتٌ أيضًـا.

توقفَت الحافلة.

ـــ وقوف! خَلْع العصبة عند النزول.

حـين رأيـتُ القبّعـات الحُمْـرَ، ولكـوني أدَّيْـتُ خدمتـي العسـكريّة، فهِمْـت. نحـن مـع الشرطـة العسـكرية. أخـذوا هواتفنـا المحمولـة، وتركـوا مـا في جيوبنـا مـن لـيرات، وقادونـا إلى غـرفٍ كبـيرة. جلسـتُ عـلى الأرض. هـا قـد عدنـا إلى الاكتظـاظ. يـأتي صـوتٌ مـن الممَـرِّ.

ــــ شاي، شاي، شاي؟

منــذ أكــثر مــن عــام، لم أشرب كوبًــا مــن الشــاي. وفي جيبــي بِضــعُ لــيرات. أســمع الصــوت يقــترب مــن غرفتنــا، ويُفتــح البــاب.

ــــ مَن يريد شايًا؟ سندويشات؟

ــــ فلافل! مَن يريد فلافل؟

منذ عامٍ لم آكُل غير الرزّ.

ــــ كم تريد؟

ــــ ١، ٢، ٣، ٤، ٥...٥٠٠.

عــرَض عــليَّ أن أختــار مــن بــين سندويشــات، وضعَهــا في كيس بلاســتيكيّ يُســتعمل عــادة لجمــع القمامــة. اشــتريتُ كمّيــة، ووزَّعتُهــا عــلى كلّ مَــن حــولي، واحتفظــتُ ببعضهــا لي، وبــدأتُ أتناولهــا الواحــدة تلــو الأخــرى. كان في داخلهــا فلافــل، وبنــدورة عفنــة. الشــاي مــرٌّ بــلا سُــكّر.

مكثْنَــا مــدة خمســة أيــام في هــذه الغرفــة التابعــة لمركــز الشرطــة العســكرية. وفي الأيّــام التاليــة، اشــتريتُ سندويشــات لي فقــط.

إنّهــم يُعدِمــون هنــا. المــكانُ خطــير، فكيــف لي أن أرتــاح؟ أســهر حتّــى الفجــر، وأقــول لنفــسي: غــدًا ســأُعدَم. كيــف يــا تــرى؟ برصاصــة؟ بمشــنقة؟

تُنفّــذ عمليــات الإعــدام حــوالي الرابعــة صباحًــا. أنــامُ بعــد الخامســة أو السادســة صباحًــا، ولم يــأت دوري بعــد.

ســوف أطلــب منهــم رؤيــة عائلتــي قبــل إعدامــي. أفــلا يُســأل مَــن ســوف يُعــدم عــن أمنيتــه الأخــيرة؟ أليــس كذلــك؟ رؤيــة عائلتــي هــي أمنيتــي الأخــيرة، إخــوتي وأخــواتي الطلقــاء. بعضهــم في الســجن،

وبعضهـم الآخـر مُتَـوارٍ.

في اليـوم الرابـع، نُقلنـا إلى غرفـة أخـرى كبـيرة ونظيفـة ولهـا نوافـذ. فيهـا سـجناء يرتـدون الـزي المخطّـط باللونـين الرمـادي والأبيـض.

أرِقْتُ من جديد، وصرتُ أنتظر الفجر.

ـــ لماذا لا تنام؟ ما فائدة النوم؟ سوف أُعدَم.

ـــ تُعدَم؟ لا. سيأخذوننا إلى سجن عدرا.

أَأُصَدّقـه؟ لعـلّ المسـكين لا يَعـرف. مـرّت أربـع، خمـس سـاعاتٍ. بعـد ثمـاني سـاعاتٍ نُـودِي عـلَيّ مـع آخريـن. وقفْنـا في الطابـور، والأصفـاد حـول أيدينـا.

ـــ كما قلتُ لك، سينقلوننا إلى عدرا.

أشَرْتُ إلى رأسي، وقلت له: «رأسي فارغٌ».

ركِبنـا في شـاحنة مـبرّدة، سـارت بنـا مـن جبـل قاسـيون ومعربـة والتـل، حتّـى وصَلْنـا إلى عـدرا.

الفصل السادس والعشرون

هذه مهمّتك، أن تَشِيَ بهم. لا تتقاعس. هذه مهمّتك. سأذهب الآن.

تَعانقْنا. شجّعتُه.

«مصيرنا بِيَد الله» قلتُ له.

ومشى إلى حتفه.

استقبلني أحمد في سجن عدرا في دمشق، رآني بسروالي القصير الممزّق، ونعْلِي بزوجَيهِ المتخالفَيْن. ومنذ ذلك الحين أصبح هو وأسعد صديقَيَّ. قبْل نقْلِنا أُعطيتُ قميصًا ملطخًا بالدماء، وملابس داخلية بالِيَة. الملابس حاملة الأمراض والبراغيث والقمل، تُحرَق أحيانًا. وزّعُوا علينا بيجامات السجن المخطّطة. لسنا ملزَمِين بارتدائها في الزنزانة، ولكنّك تحتاج إليها للعمل في الورش أو في مناسبات معيّنة، على سبيل المثال: إنِ استُدعيت إلى المحكمة، المحكمة المهزلة.

كم كانت واسعة بيجامتي. أحاول ربطها، لكنّها لا تهدأ على خصري، وتقع على الأرض. أتُراني أطلبُ واحدة على مقاسي؟ قيل لي: غدًا اقْصِد الخياط عند مدخل السجن، سيضيّقها لكَ.

جاء طبيب لفحصنا، فوقَفْنا في الطابور. عبَرْنا بابًا، ثمّ آخَر.

ـ اجلِسْ.

انتظَرْنا. ننتظر قبْل أن يوزّعونا على الزنازين. جاء لرؤيتنا سجناءُ سبَقونا ـ نحن الجُدُد ـ .

سألني: «مِن أين أنت؟».

ـ مِن الدير.

ـ أنا أيضًا.

فتّشتُ في ذاكرتي، فتّشتُ وتذكّرتُ عائلته.

ـ ألن تُقدِّم لي سيجارة؟

قدَّم لي سيجارة من ماركة «الحمراء». أشْعَلْتُها، دُخْتُ، دار رأسي،

تضايَقْـت. أعتقـد أنّنـي فقـدتُ شـيئًا مـن وَعْيِـي.

بعد ذلك سُمح لنا بالاستحمام، وقصّ لنا الحلاقُ شعرنا.

الحـمّام، مـاءٌ سـاخن وصابـون مـن ماركـة «نخلـة»، أبيـض مسـتطيل كثـير الرغـوة. كنـتُ بريئًـا مثـل عصفـورٍ دُورِيّ بـلا ريـشٍ، يعبـث في بركـةِ مـاء، مسـتمتعًا هـازًّا رأسـه. ثـم أَخـذتُ أفْـرُك جسـدي. يـا لسـعادتي! كلّ هـذا الوسـخ.

كانـت فـروة رأسي قـذرة إلى درجـة أنّ الصابـون لم يَـرْغُ عليهـا؛ أمّـا الأوسـاخ والجلـدُ «القديـم»، فحـدِّث ولا حـرج. فركـتُ بلِيفـة الحـمام حتّـى احمـرَّت يـدي.

منـذ خمسـة عـشر شـهرًا لم أسـتحمّ بهـذه الكميّـة مـن المـاء السـاخن. اسـتعدتُ متعـة قديمـة. ففـي مركـز الاحتجـاز التابـع للمخابـرات، كنّـا نسـتحمّ في حـوض مـاء بـارد، صيفًـا وشـتاءً.

حـين أنهيـتُ حمّامـي قصـدتُ الحـلّاق: «يُقرّعـون» شَـعْرَنا في السـجن، كـما تعرفـين. دقيقتـان، وأنجـز المهمّـة.

زووم... زووم... هيا اذهب. إلى السجين التالي.

بعد ذلك نُوزَّع على الزنازين.

أُرسِـلَ خمسـةٌ منـا إلى الجنـاح رقـم ٨، جنـاح القتلـة. سـلّمَتْنا الإدارة إلى المفـرزة، إلى مجموعـة ضبّـاط شرطـة السـجن المسـؤولين عنّـا.

«مازن الحمادة، اذهَبْ إلى ٨٠١».

هنـاك، اسـتقبلني أحمـد وأسـعد، واهتـمّا بي. أعطَيـاني صابونـة صغـيرة وبعـض المـال، فتمكنـتُ مـن شراء ملابـس داخليـة وقميـص جديـد مـا

زال في كيسه. لقد أمضيتُ أكثر من عام لا أملكُ فيه أيّ شيء. أعطَياني بطاقة هاتفهما، وعرَضَا علَيّ أن أستعملها قبلهما. الهاتف معلق على الحائط. يُسمَح للسجناء باستعماله دقائق من وقت إلى آخَر، دقائق لا تتيحُ حديثًا أطول من: «مرحبًا، كيف الحال؟ أنا بخير، أرسلوا إليَّ بعض المال».

ـ اتصِلوا بأهلكم كي يطمئنّوا. قال لنا قدماء الزنزانة.

هكذا، اتّصلتُ بشقيقتي.

ـ أنا في عدرا، هل تزورينني؟ أعْلَم أنّ إخوتي مطلوبون ولا يستطيعون زيارتي. أمّا هي، فمرّت بعد ثلاثة أسابيع.

أوه. لا أريدُ تَذكُّر هذه اللحظات. أُفضّل أن أدخّن سيجارة.

عندما رأتني خلف القضبان، سقطَت على الأرض، وأخذت تبكي.

ـ لا تبكي. هيّا، لا بأس، لا تبكي. ماذا عن إخوتي؟ أهُمْ أحياء؟

ـ إنّهم بخير، باستثناء المعتقَلين. إنّها الحربُ في الخارج.

الحرب... نعم. سأدرك ذلك لاحقًا، حين سأخرج من السجن، وأكتشف ما حلّ بسوريا من دمار.

دعيني أُخبِرْكِ قصة أحمد وأسعد. كنا في نفس الزنزانة، في جناح القتَلة بجوار أَجنحة السُّرّاق والنصّابين. نحن قتلة؟

لقد خلَّى النظامُ سبيل أكثر من ١٣ ألف مجرم حقيقي، واستبدَلَنا بهم؛ أي: بالمتظاهِرين المطالِبين بالتغيير.

كنّا حوالي المئة في الزنزانة، ولم تكن الأَسرَّة لتكفي الجميع. نام نِصفُنا على الأرض. وحين وصلْتُ نِمتُ على حصيرة، ثم تقاسمْتُ

سريـرًا ذا طابقَـين مـع أسـعد، هـو فـوق، وأنـا تحـت؛ أمّـا أغراضـه فهــي تَحْـتَ السريــر: صحــونٌ، وكبّايــاتٌ، وخــرزٌ. يُمــضي الســجناءُ، المحكــوم عليهــم مــدة عــشرة أو خمســة عــشر عامًــا أو مؤبَّــدًا، أوقاتَهـم في شـكّ الخـرز، لتمضيـة الوقـت وكسـب القليـل مـن المـال. وبـين الحـين والآخـر يـأتي مهتمّـون لـشراء مـا ينتـج مـن لوحـات أو تَـذْكارات. لا صـبر عنـدي عـلى شـكّ الخـرز. سـاعدتُ عـلى ربـط الخيـوط أو لفّهـا فقـط.

ذات يــوم، اســتَدعى الحــراس خمســين ســجينًا، مــن بينهــم أحمــد وأسـعد. استشـعر أسـعد ذلـك، كيـف؟ لا أعـرف. قبـل أربعـة أو خمسـة أيـام، قـال لي: «أغـراضي أمانـة، أترُكهـا معـك: دفـترٌ دوّنـتُ فيــه خواطــري وذكريــاتي، وبضــع صــورٍ، ورســالة إلى والــدتي. أرجــو منــك تســليمها إلى عائلتــي».

كان يَعلـم. غـادر هـو وأحمـد كي يُعدَمـا. وقـد أُعدِمـا، بحسـب مـا استَشـعر أيضًـا حـارسٌ كان يُهـرّب لي مـالًا وأدويـة. كنـتُ أعـرف الحـارس مِـن قبـل. بفضلـه تَمكّنّـا مـن الحصـول عـلى دواء للجـرب. أمّـا المـال، فكانـت العائلـة تُؤمّنـه. أحيانًـا كنـتُ أحتـاج إلى إرسـال شيء إلى الخــارج، فأضعــه في الســلّة المعدنيــة، تلــك المســتعملة للمهمـلات خلـف المرحـاض. يراقبنـي مـن بعيـد، ثـم يـأتي ليأخـذه. أثنــاء جولاتــه في الممــر لمراقبتنــا، كان يســير ببــطء، ويتوقّـف أمـام بابنـا بالقـرب مـن فتحـة صغـيرة. فيهمـس لي أحـد السـجناء: «مـازن، صديقــك هُنــا». فأقــترب مــن موقعــي في الخلــف للحديــث إليــه. عندمــا اســتُدعي الخمســون ســألتُه:

ـ ماذا يحدث؟

ـ أعتقد أنّهمُ اقتِيدوا إلى الإعدام.

أراد الجميع التدخُّلَ في متعلّقات أسعد.

ـ لا أحد يلمس أغراضه.

طلبتُ من رئيس الزنزانة ومِن بعض الشهود، رؤية أغراضه. أخرجتُها من تحت السرير كي يشاهدوها. هذه الأغراض وصيّته.

ــ سوف أُسلّمها إلى عائلته.

اتصلنا بوالدته. حضرتْ بعد أسبوع، أو عشرة أيام. أردتُ النزول لإعطائها أشياءه، لكنّ رئيس الزنزانة رفض طلبي.

قلتُ له وأنا أعطيه أغراض أسعد: «دِير بالك، هذه ذكرياته. هنا الميداليات الخشبية التي صنعها لأَخَواته. اسألْ والدته لِنَعرف ما حدث بالفعل».

عندما عاد، أخبرَنا أنّ والدته سألتْهُ عن اليوم المحدّد الذي أُخرج فيه ابنُها من الزنزانة. مرّ عليها أحدهم وطلب منها الذهاب إلى قسم الشرطة. هناك أعطوها هوية أسعد، زاعمين أنّه قُتل على يد الإرهابيين.

قصّة سورياليّة. نعم، سورياليّة. إنْ فُقِد فردٌ من أفراد عائلتك، تُنصَح بالسؤال عنه في مراكز الشرطة العسكرية، فهُم من يعرفون هل كان حيًّا أم ميتًا. شقيقتي تمرّ بانتظام على الشرطة العسكرية، فهي تبحث عن زوجها وابنها. اختفَيَا ولا أخبار عنهم. أمّا إنْ تحقَّقتَ أنّ مَن تبحث عنه موجود في السجن، فيُطلب منك الحصول على تصريح من المحكمة لزيارته.

إداريّـات لا تَرقـى إلى مسـتوى الدولـة. لُصوصيّـة. إنّهـم قُطّـاع طـرق، قُطّـاع طـرق بيروقراطيـون.

حُكِـم عـلى أحمـد بالسـجن خمسـةَ عـشرَ عامًـا، ولكنّـه أُعـدِمَ. كان قـدِ استَحصل عـلى وثيقـة تؤكّـد أنّـه في سـجن عـدرا، يقـضي حُكْـمًا بالسـجن مـدة خمسـة عـشر عامًـا. لكنّهـم أخَلُّـوا بالحُكـم.

اسـمعي. معـي ورقـة شـبيهة بورقتـه. لقـد طلبـتُ وثيقـةً رسـميةً، مستمسَـكًا يـدلُّ عـلى اعتقـالي. أردتُ أن أُبـيّن أنّهـم اعتقلـوني بـلا سـبب، وبـلا دافـع. تقدمـتُ بطلـب إلى إدارة سـجن عـدرا. انظُـري، هـذا هـو طلبـي المكتـوب:

«جمعية حماية السجناء وأُسَرِهم

تأسَّسَت عام ١٩٦١

هاتف: ...

فاكس: ...

السعر: ٢٠ ليرة سوريّة.

إلى السيد العميد مدير فرع سجن دمشق المركزي،

مقدّم الطلب: مازن بسيس الحمادة/ اسم الأم: خضرة.

سِجِلّ سجون دمشق.

الموضوع: طلب تأكيد الحضور.

سيدي،

أرجـو أن تُـزودوني بمذكـرة الاعتقـال الخاصـة بالمحاكمـة، التـي أنـا

معتقَل بسببها حاليًّا في السجن المركزي في دمشق، وذلك لإحالتها إلى الجهات المختصة.

بَصْمة السجين كتوقيع: ...

اعتبارًا من ٧ ـ ٩ ـ ٢٠١٣».

وهنا ردّهم:

«إلى من يهمه الأمر،

نُفيدكم بأن الأسير مازن بسيس الحمادة موجود حاليًّا في سجن دمشق المركزي بموجب المذكرة رقم.../... منذ تاريخ ٥-٦-٢٠١٣ بجرم الإرهاب. ومقيَّدة حريته اعتبارًا من ٥-٦-٢٠١٣.

توقيع مدير السجن المركزي بدمشق».

حسنًا؟ فهمتِ؟

تشير الوثيقة إلى أنّني في عدرا منذ ٥ حزيران ٢٠١٣. لكن، قبل ذلك؟ أين كنتُ قبل ذلك؟ في قسم استخبارات الجوية، حيث أمضيتُ سنة وثلاثة أشهر.

هذا جنون. إنّهم مجانين.

أُعدم أحمد. هل بُلّغَت عائلته؟ لا أعرف. لم يزره أحد، فوالدته مريضة، وعائلته تعيش بعيدًا في مخيّم فلسطيني في اللاذقية. كان صبيَّ العائلة الوحيد. أُلقي القبض عليه لحمله سلاحًا؛ في الحقيقة شارك في المظاهرات، وهذا كلّ ما في الأمر. عندما غادرْتُ عدرا لم أتمكن من زيارة والدته. عند سقوط بشار سأزورها.

الفصل السابع والعشـرون

إنْ لم تُعـدَم، وإنْ لم «تُنسَ» في إحـدى زنازيـن أفـرع المخابـرات كي تحتـضر بِبُـطء، فقـد تُرسَـل إلى المحاكمـة.

كنّـا خمسـين سـجينًا، في حافلـة لا تسـع إلّا خمسـة وعشريـن. جلسـتُ إلى جنْـبِ السـائق.

ـــ «عندك هاتف نقّال؟» سألته.

ـــ خمسمائة ليرة.

ـــ حسنًا.

«مرحبًـا، أنـا ذاهـب إلى المحكمـة. لا أعـرف هـل أُدان أو يُطلَـق سراحــي».

المهـمّ، بلّغـتُ أختـي. فبعـض السـجناء يُحْكَـم عليـه بالسـجن مـدة خمسـة وعشريـن عامًـا، ولا مَـن يهتـمّ بـه، وبعضهـم يبقـى وحيـدًا سـنوات في غياهـب النسـيان. القضـاة لا يبالـون طبعًـا. مَنسـيّون، منسـيّون، مـا أكثرهـم.

عـلى مقربـة مـن سـوق الحميديّـة مبنـى المحكمـة، في قلـب دمشـق. بسـبب كـثرة القضايـا والمراجعـات، بنَـتِ الدولـة محكمـةً جديـدة عـلى طريـق المـزّة السريـع.

كنّـا خمسـة عـشر مقيديـن بالسلاسـل، حـين وصلْنـا إلى المحكمـة. نزلنـا الـدرج إلى الطابـق السـفلي الثـاني، فصرنـا أربعـين في غرفـة ضاقـت علينـا ـ إذ لا قيمـة في عُرفِهـم للإنسـان ـ. الجـو حـارٌّ، خانـقٌ، آبُ

اللَّهّاب. جلسنا على الأرض. بيننا ألفة، فكلّنا من عدرا.

خاطبني القاضي من وراء مكتبه:

ــ مازن الحُمادة، حملْتَ السلاح، وقتلتَ جنودًا، هذا ما اعترفتَ به.

ــ انظُر إلى آثار التعذيب، أُجبرتُ على الاعتراف بأفعال لم أرتكبها. أنتَ تَعرفُ جوَّ الأفرع الأمنيّة.

أخذ القاضي يشطب جملًا من اعترافاتي.

ــ المتهم أنكَر ذلك... أنكَر ذلك. أنكَر... أنكَر... المتهم طلَبَ العفو والرحمة.

ثم نظر إليَّ:

ــ تفضل، سأُخلِّي سبيلك يا ابني.

ــ تُخلِّي سبيلي؟

ــ نعم.

غادرتُ المكتب دون أن أغلق الباب، على ما أعتقد. طِرتُ من الفرح، ووزَّعْتُ الليرات التي في جيوبي على الحرّاس.

عدتُ إلى السجن لقضاء آخر ليلة فيه. قبّلتُ الجميع ووزَّعتُ ما بقي معي من مال. عندما يُخلَّى سبيلُ واحدٍ منّا، يَسمح له الحارس بالمرور لرؤية مساجين باقي الزنازين ووداعهم من خلف القضبان، بإشاراتٍ من اليد. في كلّ زنزانة زهاء مئة سجين، وفي جناحنا ثلاث عشرة زنزانة. تمنّيتُ لهم ـ أنا المغادر وهم الباقون ـ أن يُفكَّ قيدُهم قريبًا. وعدْتُهم بإرسال رقم هاتفي

الجديـد للحـارس، وتمنيّـتُ عليهـم ألّا يوفّـروني إن هـم احتاجـوا إلى مـا أستطيعه.

كنـتُ عـلى وشـك المغـادرة قرابـة السـاعة الحاديـة عـشرة صباحًـا، لكنهـم عندمـا راجعـوا ملفّاتهـم تَبـيَّن لهـم أنّنـي مطلـوب، فأعـادوني.

ـ ستذهب إلى فرع الجنايات قرب الميدان في منطقة باب مُصَلّى.

هذا فرع يُعنَى بالمخدّرات وبالقضايا الجنائيّة.

ـــ الأمن السياسي يطالِب بكَ. سننقلك إلى هناك.

يـا لهـا مـن مفاجـأة مُكْرِبـة. بعـد أن ابتهجـتُ بإطلاقـي مـن أسْرِي، وبعـد أن ودّعـتُ رفاقـي، هـا أنـا أُرسَـلُ إلى مـكانٍ لا أعرفـه عـلى الإطـلاق. بعـدَ كلّ ابتسـاماتي أمـس، ودِدتُ لـو تنشـقُّ الأرض وتبلعنـي.

عندمـا خرجـتُ كنـتُ أرتـدي ملابـس أنيقـة: جينـز وقميـص بولـو مـن ماركـة «لاكوسـت»، أحضرَتْهـا لي أختـي. قميـص بولـو أبيـض، وجينـز أزرق، وحـذاء كاكي اللـون، ونظّـارات «راي بـان».

بـلا إنـذارٍ، ودفعـةً واحـدة، تَعطّـل دماغـي. «طقّـت فيُوزاتـه». قلـتُ لعنـاصر الفـرع الجنـائيّ:

ـــ هيا، انقلوني وبسرعة!

ليتني لا أُحتجز، وأنام هناك. ماذا يريدون منّي؟

في الخامسـة مسـاءً نقلـوني في سـيارةٍ، مـع اثنـين مـن الضبّـاط. سـمعتهما يتحدثـان عـن شـخص آخـر سـيرافقنا. هكـذا مـرّوا واعتقلـوا شـابًّا في العشريـن مـن عمـره. أتذكّـره إلى اليـوم. المسـكين بشرتـه بيضـاء، شـعره أشـقر، عـلى معصمـه سـاعة بسلسـلة ذهبيـة، أنيقـة

جدًّا. قبضوا عليه، وربطونا معًا، ثم انطلقت بنا السيارة.

سألني: «هل أنت معتقل من زمان؟». «لا. سنة ونصف!».

فُوجِئ، وحزن، وخَرِس. أضحك اليوم وأنا أُخبِرُكِ القصّة، بَيْد أنّ المسكين بقي مذهولًا. استقبَلَنا عناصر فرع الأمن السياسي بالضرب الاعتيادي. «لا يتعبون. يضربوننا منذ عامٍ ونصف. لا يملّون».

كنتُ في تلك اللحظة في قمّة الإعياء. وصلْتُ إلى حضيض نفسي. أخذوا منّي بقية متعلّقاتي وقادوني إلى الزنزانة. سألتُ أين مكاني. ثم أضفت: «ولا كلمة. أمضيتُ عامًا ونصفًا في فرع الجويّة، ثم في عدرا. أريد أن أنام».

خلعتُ حذائي وسروالي وقميص البولو، صرتُ عاريًا إلّا من ملابسي الداخليّة، وضعتُ رأسي على ملابسي، ونمت حتّى صباح اليوم التالي.

في الزنزانة إسلاميون من كلّ المناطق، أمضَوا فترة اعتقالهم في سجن صِيدنايا، ثم أُرسِلوا إلى الأمن السياسي، حيث ينتظرون أن يُفرَج عنهم. الجهاديون طلبوا منّي، حين تَنبّهوا أنّني عارٍ إلّا من ملابسي الداخليّة، أن أتستّر:

ــ اتَّقِ الله وعقابه.

أقمتُ بينهم ثمانية وعشرين يومًا، هالني فيها أنّهم يُعامَلون برأفةٍ لا كسائر السجناء.

الأمن السياسيّ هو فرعٌ من أفرع المخابرات، مهمّته تَتبُّع المعارضين السياسيين. ذات يومٍ استُدعيتُ للاستجواب بعد أن

عصبـوا عينَـيّ. هـذا لم يمنعنـي مـن فتْحِهـما خلسـة كي أرى مَوطِـئَ قدمـي.

ـــ مازن الحُمادة. أنتَ خرجتَ للتظاهر وأهنْتَ الرّئيس.

مظاهـرات؟ إهانـة الرئيـس؟ أهـذه تهمتـي؟ علـمًا أنّنـي في فـرع الجويّـة اعترفـتُ ـ تحـت التعذيـب ـ بأنّنـي حملـتُ السـلاح وقَتلْـت. هنـا، يتّهموننـي فقـط بالتظاهـر. مجانـين. جنونهـم فاقـعٌ.

قلـتُ لهـم: «نعـم، خرجـتُ للتظاهـر. أهنْـتُ بشَّـار الأسـد. نعـم، لأنّـه حمار».

«سـدّ بـوزك». قـام السـجّان فقيّـدني، وأضحـتْ يـداي فـوق رأسي. التعذيـب مجـدّدًا.

بـكلّ الأحـوال، وضْعـي حسّـاسٌ. مـا زال الأمـن السـياسي يحتفـظ بأمـر التفتيـش منـذ كانـون الثـاني ٢٠١٢، وهـو الأمـر الـذي عـثرَتْ عليـه سـارة في فيلمهـا الوثائقـي.

انتظري، سأبدأ من جديد. سأحاول أن أتذكر. جنون... أقول لكِ.

في نيسـان ٢٠١١ اعتقلنـي أمـن الدولـة بضعـة أيـام في ديـر الـزور، ثـمّ مـرة أخـرى في نهايـة كانـون الأول ٢٠١١، بسـبب المظاهـرات. في المـرة الأولى خلَّـوا سـبيلي بـلا محاكمـة. قلـتُ لنفـسي: «لا داعـي للمشـاكل». في المـرة الثانيـة أُطلِقْـتُ مـن أسْرِي بموجـب عفـوٍ. انظـري، لـديَّ وثيقـة تقول:

«بالإشـارة إلى كتـاب مكتـب الأمن الوطنـي رقـم ٢/١٩٩٧/أ ق تاريخ ١٥ ـ ١ ـ ٢٠١٢، وكتـاب وزيـر العـدل رقـم ٢٥١٩/ت تاريـخ ٢٠١١/٧/٢٩ و ٢٠١١/١٢/١، مذكـرة وزيـر العـدل بتاريـخ ١٧ـ ١ ـ٢٠١٢

مَثَلَ اليـوم الاثنـين ٣٠ـ ١ـ ٢٠١٢ السـيد مـازن بسـيس الحُـمادة مـن مواليـد ١٩٧٧.

وبنـاءً عـلى الإخبـار المرفـوع ضـدّه تـم اسـتجوابه حـول أمـورٍ منسـوبة إليــه، وتطبيقًــا للمرســوم التشريعــي رقــم ٠١ تاريــخ ٢٠١٢/١/١٥ الخـاص بالعفـو العـامّ عـن رئيـس الجمهوريّـة العربيّـة السـوريّة تَقـرّر مـا يـلي:

إطـلاق سراح هــذا الشــخص وإيقــاف محاكمتــه بجريمــة التظاهــر المنســوبة إليــه.

يُرجى قراءة هذه المعلومات وتعميمها على جميع المراكز».

الورقـة كـما ترَيْـن واضحـة: «يرجـى الاطـلاع عـلى هـذه المعلومـات وتعميمهـا عـلى جميـع المراكـز». لمـاذا لا يطّلـع الأمـن السـياسي عـلى هـذا التعميـم؟ مـاذا يفعلـون؟ يسـطّرون أمـر تحـرٍّ وجلـبٍ جديـد ضـدّي في ١٥ كانـون الثـاني.

في آذار ٢٠١٢ اعتقلتنــي المخابـرات الجويّـة في سـاروجة، وفي آب ٢٠١٣ خـلَّى سـبيلي القـاضي. وهـا هـو الأمـن السـياسي يعيـد اعتقـالي.

مكثـتُ في سـجنهم ثمانيـة وعشريـن يومًـا، ثـمّ أعـادوني إلى المحكمـة. بعدهـا إلى الزنزانـة القبـو مـرة أخـرى، ثـمّ الصعـود إلى الـدرج نحـو الطابـق الثـاني. يحـرس الطريـقَ رجـالُ الأمـن الواقفـون عـلى الجانبـين. لمحـتُ شـخصًا مـن ديـر الـزور يعمـل في المحكمـة. هُـرع نحـوي: «مـاذا تفعـل هنـا؟».

«مـن الجويّـة، إلى سـجنِ عـدرا، فالأمـنِ السـياسيّ. والآن إلى المحكمـة. هـي جولـة في أرجـاء سـوريا».

غرفــة وســيعة في الطابــق الثــاني. منصّــة. مُخــبرون بملابــس مدنيّــة. المعتقلــون ـ خمســة عــشر عــلى مــا أظــنّ ـ واقفــون بصمــت خلــف بوابــة إلى اليمــين، بانتظــار وصــول القضــاة. وصــل القضــاة، ومــن بينهــم مَــن ســبق أن خــلّى ســبيلي.

يَفتــحُ القــاضي الملــفَّ، ويُنــادَى عــلى المتّهــم. وهكــذا دواليــك. أنــا متّهــم بالتظاهــر؛ أمّــا اعترافــاتي الباطلــة في الجويّــة فلــم يُؤخــذ بهــا.

عرفني القاضي وابتسم: «إلى كم حُكْمٍ تحتاجُ؟ كم مرّة سأراك؟».

ــ «صحيح أنّك خلَّيْت سبيلي، لكنّهم أعادوني».

ــ «اذهب. أنتَ حُرٌّ. عُدْ إلى منزلك».

ــ ولكنّنــي في حاجــةٍ إلى ورقــةٍ منــك تُســقط عنّــي مذكّــرة الجلــب، فهــي مــا تــزال ســارية المفعــول. لــذا، أعــادوني.

ــ ماذا تريد منّي؟

ــ أريــد العــودة إلى ديــر الــزور. منــذ عــام ونِصــف لم أرَ عائلتــي. أريــد ورقــة رســميّة تفيــد بأنّنــي حــرّ.

ــ متى سَــفرُك ؟

ــ بعد يومين.

ــ «عُــدْ قبــل ذلــك». ثــم أشــار إلى شرطــيّ بــأن يُيــسّر لي أمــري. نزلــتُ معــه إلى طابــق الإدارة. وعَــدَني بــأن يتّصــل بي حــين تتوافــر الورقــة المطلوبــة.

خرجــتُ. أختــي وأحــد أبنــاء أخــي ينتظراننــي أمــام البــاب. تمكّنــتُ ـ بالطــرق نفســها ـ مــن إعلامهــم.

الفصل الثامن والعشرون

عانقـتُ أختـي وابـن أخـي، غـير مصـدّق أنّنـي معهـم. الزحمـة خانقـةٌ كالعـادة ـ عـلى مـا يبـدو ـ أمـام المحكمـة. اسـتقَلَّتْنا سـيارة أجـرة إلى ركـن الديـن. فاقـت أعـدادُ ضبـاط الأمـن في الشـوارع مـا اعتدتُـهُ قبـل اعتقـالي. يعـترضُ المـارّةَ في نفـق الثـورة حاجـزٌ مهـمّ، يطلـبُ منهـم إبـرازَ هوياتهـم. قـرب منـزل أختـي، نقطـة تفتيـش أخـرى، تُوقـفُ السـيارات القادمـة مـن بـرزة. بقينـا صامتـين ونحـن في سـيّارة الأجـرة طـوال الطريـق، فالحـذر واجـبٌ مـن السـائقين، وكثـيرٌ مرتبطـون بجهـاز المخابـرات.

أمُّ فهـد وأختهـا أعدّتَـا طبقًـا لذيـذًا مـن الخضـار: بطاطـا، وكوسـا، وباذنجـان، وطماطـم، وخيـار، ومَحـشي ورق عنـب، وملفوف. سـعادتنا باللقـاء باديـة، بَيْـد أنّهـا لم تَـرْقَ إلى مسـتوى الفـرح، ففهـد وأبـو فهـد، مـا زالا في الأسر. جلسـنا عـلى الأرض في الصالـون، وأكلنـا عـلى حصـيرة مـن البلاسـتيك الأصفـر؛ أمـا السـجّادة القطنيـة الملوَّنـة، فنفرشـها في الشـتاء.

شـارَكَنا في الوجبـة إيمـان وأمـل (أُخْتَـايَ)، ونـاصر (الـذي اعتُقـل معـي شـقيقُه محمّـد). ومكثْنَـا سـاعتين أو ثـلاث نتبـادل أطـراف الحديـث، وأَسـأَلُهم عـن أخبـار ديـر الـزور.

ـــ سوف ترى بنفسك حين تصل. سيخبرك إخوانك.

لقـد أرادوا حمايتـي. حذرَتنـي أختـي قائلـة: «لا تُغـادر المنـزل. ارتَـحْ هنـا. لا تتحـرّك. الوضـع خطـير في الخـارج».

كلَّا، أريـد الخـروج. ولكـن، إنْ فعَلْـتُ، فسـأواصل مـا قمـتُ بـه بدايـة الثـورة، وسـتنهال المشـاكل مـن جديـد. اشـتقْتُ إلى ريـف دمشـق. فتحْـتُ صفحـة جديـدة عـلى الفيسـبوك، وأعلنـتُ خروجـي مـن السـجن. فصفحتـي القديمـة أغلقهـا أصدقـائي حـين اعتُقلـت. يومهـا ظـنّ الناشـطون أنّنـي مـتُّ. بُعَيـد فتـح الصفحـة تواصلَـت معـي الممثّلـة يـارا صـبري التـي اهتمّـت بالمعتقلـين، وجمعَـت معلومـات عنهـم للمشـاركة مـع عائلاتهـم وأصدقائهـم.

ذات يوم، غادرْنا إلى دير الزور.

الفصل التاسع والعشرون

رأيتُ الخراب!

لا يمكنـكِ تَخيُّـل مـا شـعرتُ بـه مـن فـرح، وأنـا عائـدٌ بعـد عـام ونصـف إلى بلـدي. فـما عِشـتُه في فـرع الجويّـة عـارٌ عـلى الإنسـانيّة.

يـا لسـعادتي، وأنـا أغـادرُ سـجن عـدرا، علـمًا أنّـه إنْ قارنْتُـه بفـرع الجويّـة، فهـو أشـبه بفنـدق الميريديـان. لا تعذيـب فيـه. لكنّـه ـ مَهْـما وجَدْنـا لـه أسـبابًا تخفيفيّـة ـ زنزانـة. أمّـا في الأمـن السـياسي، حيـثُ جـاورتُ الإسـلاميين، فمعاملتهـم «المُترَفَـة» تثـير الاشـمئزاز. ودِدْتُ السـفر عـلى جنـاح طـير أو عـلى بسـاط ريـح، كـما في الأفـلام، لبلـوغ ديـر الـزور.

مذ غادرتُ عدرا، رأيتُ الخراب بأمّ عيني، وكرهتُه.

أيـن أنـتِ يـا ديـر الـزور؟ اسـتقَلّتْنا حافلـة. غـادرتُ دمشـق باتّجـاه

الشـمال. وعنـد الـدوار عـلى طريـق حمـص، رأيـتُ مطالـعَ الدمـار. فعـلى طريـق حرسـتا، حيـث وكالات بيـع السـيّارات، ركامٌ عـلى بُعـد عشريـن كيلومـتراً. وبعـد حرسـتا عـدرا، المُسَـوَّاة بـالأرض. أطـلالٌ بأطـلال، حتـى وصلنـا إلى الضُّمَـيْر. صدمـةٌ مـا بعدهـا صدمـة.

حـين تكـون معتقَـلًا في فـرع الجويـة، يغيـب عنـك مـا يحـدث. يخـبرك المعتقلـون الجـدد، بريبـة في البدايـة، فهـم لا يعرفونـك، عـن مشـاهداتهم. وبعـد حـين تتوطّـد الثقـة. سُـمِح لنـا في سـجن عـدرا بمتابعـة الأخبـار عـلى شاشـة التلفزيـون الحكومـي. طبعًـا علينـا قلْـبُ مـا يُدْلُـون بـه، فهـذه المحطّـات كـذبٌ مُصَفّـى. محامـو المعتقلـين يزورونهـم أحيانًـا، ويزودّونهـم بالأخبـار.

سمعتُ طبعًا بالدمار، والآن أراه بأمّ العين.

بعـد الضُّمَـير، مـرّت الحافلـة بحمـص والرقـة. توقفنـا مـرةً واحـدة فقـط، في الطبقـة، لتنـاول الشـاي. لم تَجْتـزِ الحافلـةُ المـدن، بـل سـارت عـلى طـرق ريفيّـة بـين الحقـول.

حين وصلْنا إلى الرّقة، نزلتُ من الحافلة.

-مازن...مازن.

ناداني صديقي حسن ـ سيُقتلُ بعد حين ـ تعانَقْنا، بكينا، قال لي:

- أخوك وأصدقاؤك ينتظرونك هناك.

رأيـتُ شـاحنة صغـيرة للجيـش السـوري الحُـرِّ، وعـلى متْنِهـا أشـخاص ملثّمـون لا أعرفهـم. نزلـوا لاسـتقبالي، فتوجَّهْـتُ نحوهـم. خـرج صـدّام وقبّلنـي منبّهًـا: «سـنغادرُ الليلـة إلى الديـر». ونحـن في الطريـق، سـألت عـن تفاصيـل الوضـع.

- طوِّلْ بالك، رَوِّق. حين نصل، نتحدث في كلّ المواضيع. سترى.

عــلى الطريــق بــين الرقــة والديــر، أقامــت داعــش وجبهــة النــصر حواجزهــما. يوقفوننــا ويطرحــون نفــس الأســئلة: مــن ويــن الشــباب؟ لويــن؟ الهويّــات.

طبعًــا، لم يعجبنــي الأمــر. ليتنــي مُــتُّ ولم أرَ مــا رأيــت. قمنــا بجولــة في المدينــة ـ جولــة ملعونــة ـ قبــل أن نصــل إلى البيــت. ديــر الــزور عبــارة عــن مدينــة أشــباح. أوّاه. كــم كرهــتُ عمــري أمــام المبــاني المتهالكــة، المهدّمــة، الآيلــة إلى مزيــدٍ مــن الســقوط، والمتّحــدة في ركامهــا كأنّهــا مبنًــى واحــد.

ســألتُ أخــي: «مَــن؟ مَــن وقّــع عــلى هــذا المشــهد؟». «النظــام ببراميلــه المتفجــرة وقنابله».

نِمــتُ في مدينــة الأشــباح. أيــن نهــر الفــرات؟ أيــن مناظرنــا الطبيعيّــة الجميلــة؟ تَصِلُنــي أخبــارُ المقرّبــين تباعًــا: ميــتٌ، ميــتٌ، ميــت. مُخْتــفٍ. خطيبتــي قتَلَهــا القصــف. لا أريــد التطــرّق إلى الموضــوع.

صدمة تِلْو صدمةٍ، تِلْو صدمة.

إعــادة بنــاء الحَجَــر ممكنــة. حجــرٌ عــلى حجــر. أمّــا البــشر، الرجــال والنســاء والأطفــال والشــيوخ، فيموتــون بــلا رجعــة.

حركَتُنــا انطلقَــت ســلمية، ثــمّ اندلعــتِ الحــرب. مــع الثــورة، أدركنــا معنــى الحيــاة وحقــوق الإنســان، وبــدا لنــا أن التغيــير ممكــن. نظّمْنــا أنفســنا، وخرجنــا أيــام الجمعــة، وخطَّطْنــا للمظاهــرات. كتَبْنا شــعاراتنا الظريفــة عــلى اللافتــات. غنَّيْنــا، والنســاء زغــردن. يــا لــه مــن جــوّ حــماسي.

نسّـقْنا. بعضنـا صـوّر أفلامًـا، وبعضنـا التَقَـطَ صـورًا. محافظاتنـا ومُدننـا يـدٌ واحـدة: «نحـن معكـم حتـى المـوت».

هتَفْنا لإلغاء حالة الطوارئ والأفرع الأمنيّة:

حُرْ حُرْ حُرّيِّة | ثورتنا كانت سلميّة يا غصن الزيتون

وبدنا نشيلو لبشّار | لَحْ نحرّر سوريا من هالطغيان|

نحن بدنا حرّية.

عـدتُ إلى بلـدٍ مشـلّعٍ ممـزّق، إلى مجتمـع مفـكّكٍ منقسـم، إلى طوائـف وقبائـل وأعـراق وفصائـل. هـو بلـد منقسِـم عـلى نفسـه، حاجـبٌ فكـرةَ سـوريا. كلّ مـا حـولي مخلّـعٌ في الديـر. ابـن الكلـب، أتْقَـن مَقُولـة «فَـرِّقْ تَسُـدْ».

الفصل الثلاثون

في الليلـة الماضيـة، شربـتُ فنجـان قهـوة بعـد صعـودِك لتَخْلُـدي إلى النـوم. بعدهـا أوَيـتُ إلى فـراشي. ثـم بعـد سـاعة اسـتيقظتُ خائفًـا. إنّهـا الكوابيـس. هزيـز الريـح وصفيرهـا زادا مـن الْتِياعـي. شـعرتُ بالـبرد، فنهضـتُ ووضعـتُ قطعـة حطـبٍ في المَوقِـدة. تغطَّيـتُ بِبَطَّانيةٍ وغفـوت عـلى الكـرسي حتـى الرابعـة والنصـف صباحًـا، هكـذا، متقوقعًـا أمـام المِدفـأة.

- أيُّ كابوس راودك يا مازن؟

-وجـعٌ في الـرأس. لســتُ بخـير. صُـداع عجيـب. مـا إنْ يـزول، حتـى أحـاول أن أتذكّـر.

- انتظِرْ، لِنُضِفْ حطبًا في المِدفأة.

- هـل كلّ شيء عـلى مـا يـرام؟ هـل تتدبريـن أمْـرَك ؟ سأسـاعدك عـلى حملهـا. كلّا. رأسي سـينفجر.

إنّــكِ تعرفـين أنّهـم يريـدون التحكّـم في العبـاد بحسـب مشـيئتهم. ويريدونهـم أن يَقْبلـوا. عبثًـا، عبثًـا.

بِاسْم الدم المُرَاق لا اتِّجار بقضيّتنا. عبثًا يحاولون، عبثًا.

الروس والإيرانيون والتواطؤ الدولي.

الـروس والأميركيّـون متفقـان عـلى الجوهـر. لقـد تَوَصّـلا إلى اتفـاق: كلّ واحـدٍ منهـما يسـيطر عـلى ضفّـة مـن النهـر. يتصرّفـان كـما لـو أن أرضنـا ملْـكٌ لهـما. فتحـا الطريـق للميليشـيات الإيرانيـة، والروسـية، والأكـراد «حـزب العـمال الكوردسـتاني»، ليحاربونـا. الطـيران يحلّـق فـوق رؤوسـنا.

لكنّنا لن نَقبل ذلك، إنّها أرضنا.

هـؤلاء جميعهـم يدعمـون النظـام. يسـاعدون النظـام. أتفهمـين؟ أجِنـدات الـدول ليسـت في حُسْـباني، ولا أدعـم هـذا البلـد أو ذاك. أفـكاري لي. أتـصرّف بحريّـة. أتحـدّى أيّ واحـدٍ أن يقـول العكـس.

نحــن مَــن ثــار مِــن أجــل حقوقنــا، ومِــن أجــل بــلادٍ مزدهــرة وديمقراطيــة. وأنتـم، هنـا، مـا مآربكـم؟ تريـدون وضـع اليـد عـلى

مـوارد البـلاد وثرواتهـا، وتتركـون لبشّـار سـلطته. اللعنـة. يـا لهـا مـن وقاحـة، يـا لهـا مـن صَفاقـة.

بالنسـبة إليكـم، كلُّ شـخص يقـاوم هـو إرهـابيّ. مـع كلّ مـا يحـدث، كيـف لا ينخـرط النـاس في تنظيـم مثـل داعـش؟ لكننـي أنـا، أرفـض التطـرف.

لقد خانوا الثورة. وأنا لا أحب الخوَنة. أنا غاضب، غاضب.

ألستِ غاضبة؟

أهـالي ديـر الـزور تَعرّضـوا للخيانـة. أولئـك الذيـن فـرّوا مـن البلـد، هُـم مَـنْ يحملـون الآن جنسـيّات أجنبيـة. ترَكونـا وحدنـا. مـع أنّنـا كنّـا قـد دعمناهـم. لقـد قاومنـا، وبقينـا، ودفعنـا الثمـن.

أنـا مرهـق. بِـتّ يتيـمًا اليـوم. لم يبـق لي أحـد. العـالم تخـلى عنّـا، حاربَنـا. دعْـمُ الـدول لنـا سـطحيّ، فهـم ليسـوا في صفّنـا. تَفتّـت مجتمعنـا. كيـف لنـا بعـد كلّ مـا حـدث أن نعيـد بنـاء هويـة وطنيّـة سـوريّة؟

برجوازيُّـو دمشـق، والتجّـار الموالـون للأسـد، يظنّـون أنّنـا مزارعـون. يعتقـدون أنّنـا مجـرّدُ فلاحـين يعيشـون خـارج أسـوار المدينـة.

سأُصَفّي حسـاباتي. مـا زلـت أراهـم. مـا زلـت أراهـم. لا بـد أن أُفـرّغ جَعبتـي. تعالَـوا.

أكرَهُهم، أكرَهُهم، أكرههم.

كيـف لي أن أحبهـم؟ أكـره طائفيتهـم، ومرَضَهُـم. خمسـون عامًـا مـن طائفيـة آل الأسـد. تمنّيـتُ لهـم مـع انـدلاع الثـورة أن يصبحـوا رجـالًا صالحـين. لكـن لا.

مـا العمـل مـع هـذا الفصيـل مـن البـشر؟ أُقسـم أننـي لا أسـامحهم. لا أريـد العيـش معهـم بعـد الآن، حتـى ولـو كانـوا مـن أبنـاء بلدنـا. لـن أنـسى حقـوق شـعبي، ولا أمـل في تجديـد الثـورة مـا لم يُعاقَـب مَـن خانهـا.

أريـد أن أعـود إلى سـوريا، وإلى ديـر الـزور، وإلى دمشـق، كي ألتقـي بالمحتاجـين إلى مسـاعدة. أودّ أن أعالـج كلّ مـن تعـذّب مـن أهـل الريـف، وأن أؤسّـس منظّمـة غـير حكوميـة ليسـت كباقـي المنظـمات غـير الحكوميـة الدوليـة أو السـورية، بـل منظمـة غـير حكوميـة حـرّة ومسـتقلة، أدعمهـا براتبـي بصفتـي تقنيًّـا في شركـة شـلمبرجيه. عندمـا يسـتقر الوضـع مجـدّدًا، وعندمـا أُصبـح نفسـيًّا أكـثر اسـتقرارًا أيضًـا.

اثنـان مـن أبنـاء أخـواتي، عالقـان في اليونـان. يـا لبـؤسي، لا أسـتطيع مسـاعدتهما. لقـد تقطّعَـت بهـما السُّـبل في اليونـان بـلا مـال. يريـدان الهجـرة إلى أوروبـا. أسـاعدهما كيفـما اسـتطعْت، أتفهمـين؟ بِـودّي أن يُقبَـلا لاجِئَـيْن سياسـيَّيْن، فالنظـام يبحـث عنهـما. إلى أيـن يمكنهـما الذهـاب؟ هـل تفهمـين ذلـك؟ لا أسـتطيع. لقـد انتهـى الأمـر. إنهـما في مخيّـم، وكلّ الأبـواب موصـدة.

مـن دون مـال، تتحـوّل الهجـرة إلى اتجـار بالبـشر. كارثـة. أتفهمـين؟ يفكـران، وقـد سُـدّت سُـبل العـودة إلى سـوريا.

النظـام، والتركيبـة، والتَّوَهـان، وينتهـي الأمـر. تفهمـين؟ أليـس كذلـك؟ شـيئًا فشـيئًا، إلى أن أعـود مجـددًا. لكـن، الآن بـدأ عقـلي يسـتيقظ، شـيئًا فشـيئًا. شـيئًا فشـيئًا. شـيئًا فشـيئًا. لكـن الآن بـدأتُ أرى رؤيـا، أشـعُر بعينَـيَّ تخرجـان مـن مآقيهـما، هكـذا. هكـذا. هكـذا. جَمْـر. عينـاي تَخرجـان مـن محاجرهـما.

أربـط المـاضي بالمسـتقبل. أرى المسـتقبل. منـه يُبرعَـم الأمـل، والنـور. يريــدان مغــادرة مكانهــما، عينــاي تحترقــان. تحرقانــي. تغــادران مكانهـما. أشـعر في داخـلي. يصبـح هكـذا. دمٌ أحمـر. دمٌ أحمـر. عينـاي تصبحـان حمراويـن.

لا تشوّهوا التاريخ.

❖ «يا لَرُعْبي ساعةَ

أَدْرَكْتُ هُلاميّتي وألّا أحدٌ يراني

وأن لا بدّ من ذَرّ شتولٍ من عيون

أيا زارع العيون أدْرِكنا!»

عملَـتِ الأكاديميـة والمترجمـة لوبـا يورغنسـون عشريـن عامًـا عـلى كتابـات فـارلام شـالاموف. وقـد وجـدتْ هـذه الأبيـات في أرشـيفه الموسـكوفي، وهـي بتوقيـع فِليمـير خِلِبنيكـوف، شـاعر تِيـه، قراءتـه واجبـة. عـاش خلبنيكـوف مـن عـام ١٨٨٥ إلى عـام ١٩٢٢؛ شـهد تجـاوزات الثـورة الروسـيّة في آخـر سـنوات حياتـه: البوليـس السـياسي، والإرهـاب، والمجاعـة، وسـفك الدمـاء.

نسـخَ فـارلام شـالاموف ـ وهـو كاتـب مرجعـيّ في موضـوع المعتقـلات السـوفياتيّة ـ هـذه الرباعيـة، بخـط كبـير في أحـد دفاتـره. تقـول لوبـا يورجينسـون: إنّ فـارلام شـالاموف شـاهدٌ غـير مـرئي. شـاهدٌ رفـض العـالمُ رؤيتَـه. لـذا، عنْوَنَـت كتابهـا عنـه: «زارع العيـون»، وهـو رحلـة في أفـكار شـالاموف وكلماتـه، ونُتَـفٌ لا تخضـع لتسلسـل زمنـي لسـيرته وخياراتـه المتناقضـة، ورحلـة في شـعاب «ذاكرتـه المراقبـة». هـو «زارعُ العيـون»، بحسـب الكاتبـة. رُحِّـل فـارلام شـالاموف إلى المعسـكرات مـدة عشريـن

عامًـا: مـن عـام ١٩٢٩ إلى عـام ١٩٣٢ في فيشـيرا، ثـمّ مـن عـام ١٩٣٧ إلى عـام ١٩٥٣ في كوليـما. أُدخِـل السّـجن وهـو في سـنِّ الـ٢٢ وأُطلـق سراحـه وهـو في سـنِّ الـ٤٦ بعـد إخـلاء سـبيله مـن معتقـل كوليـما، تَشـاجر فـارلام شـالاموف مـع الجميـع.

فـارلام شـالاموف. مـن زمـان أَنظـرُ إلى صُـوَره، صُـوَرِه بالأبيض والأسـود. أُحـدِّقُ في عينيـه الداكنتـين، وفي نظراتـه العميقـة، مُحاوِلـةً أن أَلْمـح... أَلْمـح مـاذا؟ مُتأمّلـة أن أفهـم، متأمّلـةً أن أجـد ـ ربّمـا ـ نظراتـك أنـت يـا مـازن.

جُلْـتُ ذهابًـا وإيابًـا، بـين صُـوَره وكتاباتِـه عـن الإرهـاب السـوفيتي داخـل المعتقـلات. دنَـوتُ مـن عزلتـه عزلتـك، ومعاناتـه معاناتـك، الحقيقيَّتَـين.

رأيتُ في بوح شالاموف بارقةً:

«أَأَبْلُغُ السلام؟ لا.

لا في الحلُم، ولا في الواقع

لأن هذا العُواء

عواء ذئبي، هو صمودي».

اختار راديكاليَّتَهُ كخشبة خلاص.

لقـد أدركَ [في المخيـمات] أن الغضـب هـو مـا يبْقَـى لمـن سُـلبَ كلّ شيء. فالإنسـان المتضـوِّر جوعًـا، الـذي أضحـى كومـة مـن العظـام، هـو كتلـة مـن الغيـظ. لا يبـالي بـكلّ مـا تبَقّـى. الغيـظ وعْـدٌ مريـح، أو قُـلْ فـوضى خلّاقـة.

الذكريـات السـيئة تَضطهـد صاحبهـا؛ أمّـا فـنُّ الحيـاة ـ إنْ وُجـد ـ فزبدتـه النسـيان. ❖

الفصل الواحد والثلاثون

تسـألينني لمـاذا لا أجتهـدُ في تحسـين لغتـي الهولنديّـة. بعـد كلّ

مـا عشـتُه مـن صدمـاتٍ، ذهنـي مكبّـلٌ. إتقـان لغـةٍ جديـدة يتطلّـب صفـاءً ذهنيًّـا، ورأسي مشـغولٌ بمئـة هـمٍّ وهـمّ، تمنعنـي مـن التركيـز.

ضعـي نفسـك مـكاني بصفتـي إنسـانًا. عندمـا كنـتُ طفـلًا، وعندمـا كنـتُ صغـيرًا، وكنـتُ حـرًّا أتـصرّف بلطـفٍ واحـترام.

حيـاتي، وطفولتـي وشـبابي، حتّـى عمـر الرابعـة والثلاثـين، سـعيدة؛ أمّـا حـين بـدأت الثـورة عـام ٢٠١١، فتبدّلـت الأمـور.

لـو نجـح النظـام والمخابـرات في الهيمنـة عـلى ضمائرنـا، لـكان إخـوتي وزراء. إنّهـم مثقفـون وأذكيـاء، لكنّهـم ظلّـوا يقولـون: إن هـذا النظـام تديـره مجموعـة مـن المجرمـين والقتلـة. في الديـر، يحبُّنـا الجميـع، لأنّنـا نتـصرف بشـكل لائـق.

بعـضُ النـاس رهانهـم مـادّيٌّ بحـت. لسـنا منهـم. المـال. مـا قيمتـه؟ يَرحـلُ الإنسـانُ عاريًـا. تبقـى الذكريـات. تبقـى قيـمٌ: كاللطـف والتهذيـب والاحـترام.

أجـدُ صعوبـةً في تعلّـم اللغـة الهولنديـة. كـما تعرفـين، ضُربـتُ في السـجن عـلى رأسي. حـين أُطلِقـتُ مـن أسْرِي، رأيـتُ بلـدًا مدمَّـرًا.

ركبتُ البحر، ومشَيتُ، واختبأتُ. الوحشيّة صدمَتني مرّة تِلْو الأخرى. بوم. بوم. بوم.

شعرتُ بأنّني أحترق، ووجهي يشتعل. كنتُ منهكًا. ركبتُ البحر، واختبرت الجرَب والمرض في الطريق، إلى أن وجدتُ مرتعًا هنا في هولندا. التسوّق، الطبيب، أمور يوميّة أدبّرها بما أعرفه من لغة. أمّا الباقي، فصعب. نعم صعب. بعض أفراد عائلتي في السجن، وبعضهم يعيش تحت القنابل، وبعضهم الآخر مختبئ. إنْ أردتُ تعلّم اللغة الهولندية، فلا بد من صفاءٍ ذهنيٍّ، ومن هدوء يطول ستّة أشهر. بعد ذلك ستَرَيْن. سأصبح بُلبلًا.

الفصل الثاني والثلاثون

فقدتُ ذكرياتي.
ضربوا ذاكرتنا. دمّروها.
لكنّني بما عشته من معاناةٍ قويٌّ.

هدموا الجسر المعلّق، لكنّه سيبقى معلّقًا في أرواحنا. جسرُ دير الزور مهمٌّ لأهل المدينة، وهو مرتبط بالكثير من الذكريات، والعشّاقُ أحبُّوه متنزَّهًا. كانت الدوابُّ أيّام زمان تَعبرُه. لكن، منذ طفولتي بات مخصصًا للمشاة والدرّاجات الهوائية والبخاريّة. كان الكورنيش يَضمُّ حوله المقاهي وأكشاك المرطبات، ومقصدنا في أمسيات الخميس حيث يجتمعُ السوريون بالزوّار الأجانب. نضع لِترَيْن من العَرق على الطاولة، ونفتتحُ واحدًا من نقاشاتنا السياسيّة. أنادي عبد العزيز: «تعالَ، معنا أجانب». يُتقن عبد العزيز الإنكليزية، وسوف يشرح لهم ما يَودّون معرفته عن بلادنا.

انفطـر قلبـي عندمـا سـمعتُ خـبر قصـف ديـر الـزور وأنـا سـجينٌ في عـدرا. بنـاه الفرنسـيون، لا الوغـدُ المعـروف لديـك. قصَفـه هـو وأتباعـه، لأنّهـم يَعلمـون علـم اليقـين مـا سـيَعنيه الأمـر لنـا. دمَّـروه ليحطّمونـا، كـما لـو أنّهـم قتَلُـوا لـكِ عزيـزًا أو حبيبًـا.

عندمـا رأيـتُ الجـسر في طريـق العـودة إلى الديـر، شـعرتُ بالذهـول. أوقَفْنـا السـيارة في أحـد الأزقـة، ثـمّ تابعنـا سـيرًا. كان قنّاصـة النظـام منتشريـن عـلى سـطح مستشـفى أمـراض القلـب، يطلقـون النـار عـلى المنطقـة بكمالهـا. مشـينا محتَمِـين بسـياج مـن النبـات وأشـجار الكِينـا. كانـت المدينـة مدمَّـرة، لكـنّ منظـر الجـسر المنهـار صعقنـي.

كنّـا ننظّـم سِـيرانًا هنـاك، ونقـضي أمسـيات في الـسُّرادق المنصـوب عـلى ضِفَّـة النهـر. لقـد اسـتضاف الجـسر مَعـارض ثقافيـة. خلال الثـورة، كان المتظاهـرون يَعبُرونـه مـن كلِّيّـة الزراعـة إلى السـاحة الواقعـة تحتـه، حتـى إنّ بعـض المظاهـرات أقامهـا سـبّاحون في المـاء رافعـين علـم الثـورة.
ربط بين ضفّتي البلد. مِن جهتي عشتُ في الجزء الغربي.
اسـتهدف النظـام بقصفـه الجـسر الديمقراطيّـةَ والقيـم الإنسـانيّة. مـا فعلـوه شـطَرَ الإنسـان إلى نصفـين. أظلمَـتِ الدنيـا والرؤيـا، وأضحـى القتـال يومهـا أكـثر ضراوة.

مرّةً، هربتُ كي أراه. كانت أوّلَ مرَّة أهرُب فيها من المدرسة.

كنّـا سـتة أو سـبعة مـن المدرسـة الابتدائيـة، وكان عمرنـا يُقـارِب عـشر سـنوات. أردنـا تَسـلُّق الجـدار، وكان الأمـر هيّنًـا بالنسـبة إليّ. فأنـا طويـل القامـة، أمّـا زميـلي القصـير فضبَطـه مديـر المدرسـة. وفي دفاعـه عـن نفسـه، قـال: «لم أفعـل شـيئًا. لم أفعـل أي شيء».

كنّـا قـد هربنـا، لكنـه أجبره عـلى التصريـح بأسـمائنا. فوقعَـت الواقعة،

وجرى إبلاغ عائلاتنا. عدتُ إلى المنزل، وواجهتُ أبي:

- أبي، أريد أن أبوح لكَ.

والدي طيب القلب وحنون.

- أبي، إن أخبَرَك المعلم غدًا أنّني ارتكبتُ غلطة، فهل تقول له إنّني اعترفتُ لك، وإنّك عاقبتني؟

- ماذا فعلتَ يا مازن؟

- أردنا الذهاب إلى الجسر المعلّق. ودِدتُ الذهاب إلى هناك منذ فترة طويلة.

- سأطلب من أحد إخوتك أن يصطحبك.

- ولكنني هربتُ اليوم من المدرسة للذهاب إلى هناك، فقبضوا علينا.

كنا وحدنا في غرفته. «مَن معنا مِن الإخوة في البيت؟» سأل أبي. لم يكن أبو الجود ـ وهو ألطفُهم ـ موجودًا، بل عبد الرزاق الصعب المراس (يَدُه والكفّ):

- إخوتي ليسوا هنا يا أبي.

بعد قليل وصل عبد العزيز، هو بلطف أبو الجود. صحيحٌ أنّه غضوبٌ، لكنّه أيضًا مُسامحٌ. أنهَى التقريع قائلًا: «لا تُكرّرها. حسنًا؟». أخبرْتُه أن والدنا كان يسأل عنه، ثمّ ركضتُ لأخبر أبي أن عبد العزيز قادم. تَحدَّث الاثنان معًا، وقرّرا أن يذهب والدي لمقابلة الأستاذ في اليوم التالي، ذلك أنّ والدي يحترمه كلّ أهالي الدير.

في صبـاح اليـوم التـالي، ارتـدى عباءتـه وكُوفيّتـه الحمـراء والبيضـاء. وصلْنـا إلى المدرسـة، وهـو يتـوكّأ عـلى أجمـل عصـا عنـده. طـرَقَ بـاب مكتـب مديـر المدرسـة:

- تفضلوا بالدخول. مرحبًا بك يا أبا زهدي.

كان الابـن البكـر لوالـدي، أخـي الأكـبر، يُدعـى زهـدي. لقـد تُـوفِّيَ قبـل بضع سـنوات.

- مازن، انتظِرني في الخارج.

كان أصدقـائي يلوِّحـون لي مـن بعيـد، وهـم بِمِـلْء أشـداقهم يضحكـون. قـدّم لـه مديـر المدرسـة كوبًـا مـن الشـاي، وشرح لـه أنّنـي أُسـبّب المشـاكل في المدرسـة، وأتشـاجر دومًـا. وعَـدَه والـدي بأننـي سـأعترف بأخطـائي وأتـوب.

- أراد ابنـي الذهـاب إلى الجـسر المعلـق بالأمـس. لكنّـه سـيأتي ليقـدّم اعتـذاره.

- إذن، لمـاذا لا ننظّـم زيـارة لِلجـسر مـن أجـل التلاميـذ يـا أبـا زهـدي؟ مـازن، تعـالَ إلى هنـا، اذهـبْ وأخـبِرِ الحـارس أنّنـا سـنقوم بزيـارة يـوم الجمعـة المقبـل، في السـاعة العـاشرة صباحًـا. التسـجيل للرحلـة سـيكلف خمـس لـيرات.

طبَـع الحـارس الإعـلان، وعلّقـه عـلى بـاب المدرسـة. وقمتُ بالتسـجيل. جهّـزَت لي أمـي مـن أجـل النزهـة سَـلَطة وفاكهـة وعصائـر، ثـم وضعَتْهـا كلّهـا في كيـس كبـير. في يـوم الجمعـة، أخذتُهـا معـي إلى الحافلـة. فذهبنـا إلى الجـسر، وسـبَحْنا.

كنـا فخوريـن بجسرنـا، وكان مكانـًا للمـرح ولقـاء النـاس، وحلقـة وصـل بـين شرق الفـرات وغربـه. وسـنعيد بناءه.

❖ أخوك الأكبر تَحطَّم قلبه أيضًا، لمّا دُمِّر الجسر المعلّق.
فهمتُ من رسالته الرائعة والمؤثرة يا مازن لماذا ظلَلْتَ تَذْكُر الجسر، «جسرك»:

«هل تعلمين يا سيدتي أنه في ٢ أيّار ٢٠١٣، يوم فَجّر النظام الجسر المعلّق، عَلا ندبُ النسوة والأنين ـ وهو ما لا يُسمع إلّا عند موت الأحبّة ـ في سماء الدير. هو أحد جسور المدينة السبعة. رمزيّته عاطفية واجتماعية عند جميع السكّان، وهو يربط بين ضفتي نهر الفرات وشطرَي المدينة، وهو أوّل مَعْلَم من هذا الحجم يُبنى فوق النهر.

لكل مدينة رمزها، وهذا الجسر كِناية عن دير الزور.

على ضفاف النهر، شُيّدَت المطاعم الشعبية. ولِكلِّ دَيْرِيٍّ ذكرياتٌ مع أحبائه فيها. إنه جسر العشّاق. دعيني أُخبِرْكِ عن أحد طقوسنا «المقدّسة» المرتبطة بهذا الجسر. كانت الجَدَّات يَحملن أحفادهن وحفيداتهنّ قبل أن يَبلغن الأربعين يومًا، ويَسِرْن بهم عليه، لتوكيد ما يربط الأجيال بهذه الأرض، وبنهر الفرات العظيم. رحلةٌ أشبَهُ بالمعموديّة الاجتماعيّة، بالموروث.

عسى كلماتي تشرح لكِ بعض ما خسرناه». ❖

الفصل الثالث والثلاثون

لقد كرّرتُ روايتي. كرّرتُها بلا ملل.
أربعَ سنوات ونِصفًا أتنقّل من مدينة إلى أخرى، من أجل الدفاع

عـن قضيـة الشـهداء والمعتقلـين: جنيـف وباريـس وواشـنطن، وبحضور منظـمات حقـوق الإنسـان. ثـم إنّنـي سـافرتُ إلى ماليزيـا. لم أرفـض يومًـا الاسـتجابة لرسـالة أو دعـوة، مكتفيًـا ببطاقـة قطـار أو حافلـةٍ ومـكانٍ للنـوم. وهـا أنـا مسـتعدٌّ للعمـل. أمـا الباقـي، أيْ مصاريفـي الشـخصية وسـجائري، فكنـت أتكفّـل بهـا. أنـا إنسـان كريـم النفـس، لا أُذلُّهـا طلبًـا للمسـاعدة.

أحيانًـا أمُـرُّ بأوقـات عصيبـة، فتُلِـحُّ فِيَّ فكـرةُ أن أنـأى بنفـسي، وأن أرتـاح بضعـة أيّـامٍ كي أُعيـدَ قـراءة مـا حـدث، وأسـتعيد عافيتـي كي أعُـود أقْـوَى. لا أُدافـع عـن قضيـة الأسرى فقـط، بـل أُدافـع عـن قضيـة المقاومـين أيضًـا، الذيـن لا يزالـون في الداخـل، والذيـن يحتاجـون إلى الدعـم.

الشهادة واجبٌ أخلاقيّ.

سـافرتُ إلى الولايـات المتحـدة مـدة شـهر. اشـتريتُ بدلـة كي أبـدو لائقًـا. أُفضّـل الملابـس العاديّـة، إذْ لا أُحـبُّ الرسـميّات، لكنّنـي أُرغمتُ. هنـاك أَدليـتُ ـ بـكلّ صـدق ـ بشـهادتي أمـام أنـاسٍ عاديِّـين وسياسـيين ودبلوماسـيين. مَـن سـمعني، تَأَثَّـرَ أيّمـا تأثّـر.

لقد تقيَّأتُ أربع مرات.

مـا قُلتُـه أضحـى موثّقًـا. التوثيـق مـن ثقافتكـم. ثـم إنّ المحطّـات التلفزيونيّـة تَبـثُّ بالمبـاشر. ذهبـتُ إلى ألمانيـا حيـث عُـرض فيلـم سـارة. الفيلـم واضـحٌ وصريـح، والنـاس يَعرفـون اليـوم مـا قُلتُـه، لأنـه صـار بديهيًّـا. لـذا، أَودُّ العـودة إلى سـوريا. فالشرفـاء هنـاك يواصلـون العمـل مـن أجـل الثـورة. لمـاذا لا أعـود للقائهـم؟ للعمـل مـن الداخل؟ وهنـاك، إمـا أن ننجـح معهـم، أو نمـوت شـهداء، هِبـةً للثـورة والبـلاد.

لكـن، حـذَّرَني أهـلُ الداخـل وأصحـابي قائلـين:« مِـن الأفضـل أن تبقـى في الخـارج للدفـاع عـن القضيـة». لكنّنـي متعـبٌ، مُرهـق. أُقسِـم لـكِ بذلـك. أنـا مُنهـكٌ. هـم لا يَعرفـون إلى أيّ مـدى.

❖ «بالنسـبة إليّ، هنـاك أمْـرٌ لا أقْـوَى عـلى تَقبُّلـه، وهـو أن يَقْبـل ملايـينُ الغربيِّـين التوفيـقَ بـين المبـادئ الديمقراطيـة والاحتجاجـات ضدّ الظلـم الاجتماعـيّ، مَهْما كانـت أشـكاله، والمحافظـة عـلى إرهابٍ جـليٍّ وعـارٍ مُشـينٍ، لم يَعُـد مـن الممكـن تَجاهلُـه اليـوم».

يعُـود تاريـخ كتابـة هـذه الجمـل إلى عـام ١٩٤٧. كتَبَهـا جوليـوس مارغـولان، وهـي موجـودة في خاتمـة كتابـه «رحلـة إلى بـلاد زو ـ كا». وهـو عمَـلٌ يقـع في ٨٠٠ صفحـة تقريبًـا، وقـد كُتب ـ بحسـب ما يشـير مؤلِّفـه ـ مـن أجـل «المدفونـين وهـم أحيـاء»، في معسـكرات الاعتقـال السـوفيتية. وُلـد جوليـوس مارغولـين، وهـو دكتـور في الفلسـفة، لعائلـة يهوديـة في بيلاروسـيا. اعتقلَتـه وزارة الداخليـة السـوفيتية في بولنـدا (المسـمّاة القوميسـار الشـعبي للشـؤون الداخليـة) عـام ١٩٣٩، عـلى يد الشرطـة السياسـية في موسـكو، ثـمّ أُرسِـل إلى المعسـكرات حيـث قـضى فيهـا خمسـة أعـوام. عنـد عودتـه، تَعهّـد بـأن يكـون شـاهدًا عـلى كلّ تلـك الاحـداث، وهـذا مـا فعَلـه ـ حتـى وفاتـه عـام ١٩٧١ ـ كتابـةً، حـين سرد بدقّـة الممارسـات الوحشـيّة التـي تُجـرّد المعتقَـل في الغـولاغ مـن إنسـانيّته، وتأمّـل في أحـوال الوظيفـة الاجتماعيّـة للكراهيـة؛ ثـمّ فعَلـه مشـافهةً، شـارحًا إحجـام العـالم الغـربي عـن الاعـتراف بحقيقـة المعسـكرات السـوفيتية، لا سـيما أنّ التنظيـمات اليسـارية فضّلَـت حينـذاك التذكـير بـدور الاتحـاد السـوفيتي، ومسـاهمته في هزيمـة النازيّـة.

عندمـا نُـشر كتابـه في فرنسـا عـام ١٩٤٩ أوَّلَ مـرة، حُـذف ثلـث محتواه الأصـلي. ثـمّ أُعيـدَ نـشره في العـام ٢٠١٠ بعـد مراجعـة الترجمـة

وإكمالهـا، بعنايـة لوبـا يورجينسـون، المتخصّصـة في أدب معسـكرات الاعتقـال السـوفيتيّة.

كتـب مارغولـين: «مـا عشـتُه في الاتحـاد السـوفيتي كابـوسٌ رهيـبٌ، عـلى أقـلّ تقديـر. حينـما عـدتُ إلى أوروبـا، رأيـت أن واجبـي والتزامـي الأوَّلَـيْن يُمليـان عـليّ أن أنقـلَ مـا عانيتُـه، وأن أحمِـل للعـالم نـداءات اسـتغاثة ممَّـن هـم معزولـون عـن العـالم.

لكنّـه اقْتَـضى أن أَلْتَقـي بغربيِّـين أحـرار، كي أفهـم بعمق محنـة الأسرى. حـين غـادرتُ معتقَـلي وأسـلاكه الشـائكة، اصطدمـتُ بجـدارٍ حجـريٍّ ثـانٍ، جـدار أقامـه الجـبن والخيانـة».

جبنٌ. خيانةٌ.

كيـف يمكننـا الوقـوف في وجـه هاتَـين الحقيقتَـين؟ وكيـف يمكننـا ألّا نُجَـنّ عندمـا يفضّـل الغـربُ غـضَّ الطـرف عـن جرائـم نظـام قتـل ـ بحسـب مـا تُظهـره الأرقـام ـ تسـعة أضعـاف عـدد الأشـخاص الذيـن قتلهـم جهاديُّـو «الدولـة الإسـلامية»، وبأبشـع طريقـة ممكنـة؟ وكيـف يمكننـا أن نحافـظ عـلى سـلامة عقولنـا؟ وكيـف يمكننـا الوقـوف في وجـه الجـبن والخيانـة؟ ⁂

الفصل الرابع والثلاثون

انظُري، إنّه هو. أنا متحقِّق من أنّه هو.
نفـس القميـص القطنـي. هـذه صـورةٌ لـه حيًّـا، وهنـا صـورة لـه ميتًـا. يمكنـكِ أن تَـرَيْ أنّ الصـورة التُقطـت في زنزانـة: البلاطـات الصغـيرة

الحجـم، وهـو ممـدّدٌ عـلى الأرض والـدم يقطـر مـن رأسـه. لا يمكنـكِ رؤيـة وجهِـه، ولكـنْ هـذا هـو، وهـذه هـي أرضيـة الزنزانـة. إنّـه فهـد.

عنـصرٌ مـن المخابـرات أرسَـل إليَّ هـذه الصـورة. أنـا ابـن المنطقـة. لـذا، أعْرِف النـاس هنـاك. أرسَـلها إليَّ مـع سـؤال: «أليـس هـذا فهْدًا؟».

عندمـا رأيـت الصـورة، لم أسـتطع النطـق، ولم أعـرف مـاذا أقـول، ولم أعـرف مـاذا أفعـل.

قبـل ذلـك، أطلعَنـي صديـقٌ عـلى صـورةٍ مـن ملفّـات قيـصر. تلـك الصـورة أرسـلتُها إلى أبـو الجـود وكـرم وعمـر وأبنـاء عبـد العزيـز، الذيـن يعيشـون في الخـارج. أرسـلْتُها إلى... إلى مـن أيضًـا؟ أرسـلْتُها إلى أكـثر مـن شـخص، وإلى أصدقـاء فهـد، وسـألتهم هـل كان هـو في الصـورة أم لا. قالـوا جميعًـا: إنـه يشـبهه، لكنّهـم لم يؤكـدوا أنّـه فهـد. كأنّهـم لا يريـدون أن يَجزمـوا: «ربّمـا. يشـبهه». كأنّهـم يَخشـون اليقـين. حتـى إنَّ أبـو الجـود، وهـو موضـع ثقـة، لم يشـأ أن يقـول هـل الـذي في الصـورة فهـدٌ أم لا.

هـل تفهمـين؟ أنـتِ تعرفـين مـا أعنيـه، أليس كذلـك؟ أنـا مُقتنع بأنّـه هو، وكذلـك عائلتـي، لكنّهـم يكذبـون عـلى أنفسـهم، ولا يريـدون الاعـتراف بذلـك لحمايـة والدتـه. إحـدى أخـواتي هَلَعَـت عندمـا نظـرَت إلى الصـورة. أجهَشَـت، ولكـن بعـد بضعـة أيّـام قالـت: إنّهـا لا تظـنّ أنّـه هـو.

الـكلّ يقـول: ليـس هـو، لكنّهـم كلّهـم يكذبـون. لـو اعترفـوا فقـط، لـو اعترفـوا بأنّـه فهـد، لكنـتُ سـأنفجر.

لـو مـات فهـد، لثَـأرْتُ لـه. سـيكون لدينـا وقـت، هـم وأنـا، وسـيكون لدينـا مُتّسـع مـن الوقـت لذلـك. إنْ أُطيـحَ ببشـار الأسـد، فلـن أنتقـم. هـذا إنْ أُزيـحَ عـن الحكـم. لا شيء. ينتهـي الأمـر. لا أحـد. بمجـرّد أن

تجـري إزاحتـه. لـكي أرى عزرائيـل. عندمـا أرى بشّـارًا، أرى عزرائيـل، فيختلـط الأمـر عـليّ.

في أيامـي هـذه، عندمـا أتَّصـل بإحـدى أخَـواتي، أسـألها عـلى الفـور مَـن معهـا. فـإنْ كانـت أمُّ فهـد معهـا، أقـول لهـا ألَّا تخبرهـا بأنّنـي المتّصـل. لم أعـد أسـتطيع التكلّـم مـع أم فهـد. أتجنّـب الاتصـال بهـا. إنِ اتصلَـتْ بي، فأنـا مضطـرّ إلى الـردّ عليهـا. ولكـن، عندمـا تنتهـي المحادثـة، أرمـي هاتفـي صـوب الحائـط. أكاد أُجـنّ.

أحيانًـا، تذهـب أم فهـد إلى الشرطـة العسـكرية، لتسـأل عــن فهــد وزوجهـا. لكنّهـم لا يعطونهـا أيّـة معلومـة. هـي لا تَعْـرف هـل كانـا عـلى قيـد الحيـاة. لا يقولـون لهـا شـيئًا. وعـلى أيّـة حـال، فإنّهـم لا يــردّون جثــث المــوتى، وأحيانًـا يـردّون بطاقـات هويّاتهـم.

مــات داود ـ ابــن عمــي اللَّــزَم ـ تحــت التعذيــب. هــو ابــن عمّــي أحمـد، ونحـن مِـن نفـس العمـر. اسـتُدعيَت عائلتـه لاسـتلام متعلقاته. فأعـادوا لهـا بطاقـة هويّتـه، ورخصـة القيـادة، والأوراق التـي كانـت في حوزتـه.

ليـس لدينـا أيُّ معلومـة عـن أيٍّ مِـن أبي فهـد، أو فهـد، أو عبـد العزيز، أو محمّـد. أُقسِـم بأنّنـا لا نَملـك أي شيء عـلى الإطـلاق. مـا زلـتُ أبحث عــن معلومات.

تَعْـرف أمُّ فهـد أنّنـي مـا زلـتُ أبحـث عـن فهـد، عـن طريـق معـارفي. أُرسِـلُ احيانًـا اسـمه لمعرفـة هـل كان قـد نُقـل إلى سـجنٍ مـدنيٍّ مثـل عـدرا، أم إلى سـجنٍ عسـكري مثـل صيدنايـا. عندمـا وصلْنـا إلى سـجن عـدرا في شـهر حزيـران مـن عـام ٢٠١٣، أخـبَرَني بعـض السـجناء (وهـم مـن مدينـة موحسـن، وكانـوا معنـا في سـجن الجويّـة)، أنّهـم مَثَلـوا مـع فهـد أمـام القـاضي العسـكري. لقـد اقتِيـدوا إلى عـدرا، في حـين

أُرسِلَ فهد إلى صِيدنايا. كانت تلك آخر المعلومات التي حصلتُ عليها. لذلك، ما زلتُ أبحث في السجون، وأنا على اتصال بجميع السجون في السويداء وعدرا وحماة، لكنّ الاستعلام أكثر تعقيدًا في مراكز الاعتقال التابعة لجهاز المخابرات.

لا أخبار عن عبد العزيز وأبو فهد. لا شيء. إنّهما في دمشق، هذا أمر مؤكّد. هما داخل فروع أجهزة المخابرات، محبوسان في مكانٍ سرِّيّ. لقد وضعوهما في مكان سريّ. النظام ليس غبيًّا كي يخسر سجناء مثلهم، وليس غبيًّا كي يقتلهم.

أنا متحقِّق من أن أختي تَشعر بأن فهدًا قد مات، هو حدسها، لكنّني لا أستطيع التحدث إليها في الأمر. تُوفي والدي بعد أيام قليلة من وفاة والدتي. علينا حماية أختي.

لقد مات فهد. ولكن... ربّما.

بفضل الله تعالى أتابع، إن شاء الله، القبضَ على خيط أمل، أملٍ ضئيل. الانتظار صعبٌ جدًّا. حياةٌ من الأمل. عندما سُجن أخي أبو الجود، عاشت أمي على الأمل مدة خمس سنوات. ثمّ خرج.

لم أعُد أريدُ أن أتحدّث عن هذه القضية. لقد انتهى الأمر. دَعُوني أَبْكِ فقط.

❖ بعد هذه الكلمات بفترة وجيزة، في ٩ حزيران ٢٠١٨، نشرْتَ مقطع فيديو على حسابِك في فيسبوك بعنوان «مِن أجل مَن هم في الداخل، مِن أجل العائلة والإخْوة»: «بالنسبة إلى صورة فهد، فالخير ما اختاره الله. هي مشيئة ربّ العالمين، إنْ كان ميتًا فليرحمه الله، وإن كان حيًّا فليرحمه الله. إنْ كان على قيد الحياة

فليُخْلِ اللهُ سبيله. ولكنّني متحقِّق بوضوح عين الشمس أنّه هو.

[...] لـن نتـكاذب. إنّـه هـو، الأدلّـة واضحـة. جميـع أفـراد العائلـة رأوه، ويعرفـون أنّـه هـو. [...] هـذا قـدَرُه ومصـيرُه. والأمـر مـتروكٌ لنـا لإحقـاق الحـقّ. لـن أتركهـم إن شـاء اللـه، سأمسـكُ بهـم واحـدًا تِلـو الآخـر، وسـأذهب وأجِدُهـم حيـث يعيشـون. إنّـه لَوعْـدٌ منّـي.

رَحْمَـةُ اللَّـهِ عَلَيْـهِ، وأَسْـكَنَه اللـهُ فسـيح جنّاتـه. لقـد رحـل مثـل كلّ الشـباب الباقـين. أتحمّـل مسـؤولية موتـه. لقـد كان معـي عندمـا اعتُقلنـا. أنـا مـن يتحمـل مسـؤولية موتـه، وأنـا المسـؤول عـن مقتلـه، والعدالـة مـن أجلـه أمانـةٌ في رقبتـي.

رحِمَ اللهُ الشهداء، وشفى الجرحى، وفكَّ سراح الأسرى».

«لسـتَ مسـؤولًا». كرّرهـا أخـوك أبـو الجـود. «أنـت لسـتَ مسـؤولًا عـن اعتقالـه. الطبيبـة هـي المذنبـة».

بعـد أن تبادلـتُ الرسـائل مـع أبـو الجـود، قرّرنـا أن نتحـادث. قـال إنّـه متحقِّـق بنسـبة ٧٥٪ فقـط مـن أن فهْـدًا هـو في إحـدى صُـوَر ملفّـات قيـصر. أمّـا زوجتـه، فمقتنعـة بأنّـه هـو.

أمضـت ابنتهـما جـود، ابنـة أخيـك، عـشرة أيـام في التنقيـب بـين صـور قيـصر بحثًـا عـن فهـد وعبـد العزيـز ومحمـد. لم تتجـرأ عـلى الاعـتراف لعمّتهـا بأنّهـا كانـت تبحـث عنهـم بـين كلّ تلـك الوجـوه الهزيلـة، التـي بقـي بعضهـا بـلا عيـون، مـع دمـاء جافّـة أو سَـحنات شـاحبة بشـكل غـير طبيعـي. كيـف تُخـبر أمًّـا أنّـك تبحـث عـن ابنهـا في غياهـب المـوت؟ عـشرة أيـام طويلـة كابوسـيّة كـما وصفَتْهـا، ثـمّ حـان بعدهـا وقـت التوقـف عـن ذلـك. لم تتصفّـح جـود مجمـل الــ٦٧٠٠ صـورة المنشـورة عـلى الموقـع الإلكـتروني. رَصَـدَت خـلال بحثهـا عـشر

صـور، شـكّت في أنّهـا لعبـد العزيـز. أنْ تسـتمرّ في البحـث، فهـذا فـوق طاقتهـا.

في نهايـة شـهر نيسـان ٢٠٢٢، عشـية عيـد الفطـر، الـذي يُحتفـل بـه بعد نهايـة شـهر رمضـان، أعلـن النظـام عفـوًا عامًّـا عـن السـجناء المُدانـين بـ«الإرهـاب»، شريطـة ألا تكُـون أيديهـم ملطخـة بالدمـاء. وكان مـن المقـرَّر بعـد ذلـك إخـلاء سـبيل عـشرات الآلاف مـن السـجناء، حيـث إنّ هـذه التهمـة هـي التـي أُلصقَـت لاعتقـال المعارضـين الحقيقيِّـين أو المفترَضـين منـذ عـام ٢٠١١. لكـن في الأيـام التاليـة، أُفـرج عـن أقـل مـن ٥٠٠ معتقـل وأُخْـلِي سـبيلهم دون إبـلاغ ذويهـم، وأغلبهـم لا علاقـة لهم بالثـورة.

يـوم أُعلـن إخـلاء سـبيل المسـاجين، كانـت والـدة فهـد تقيـم مـع عائلـة أبـو الجـود. لم يُذْكَـر العفـو طـوال النهـار أمامهـا بتاتًـا. أمـرٌ مـؤلمٌ. ميـؤوسٌ منـه. اتصـل الأصدقـاء والأقـارب يسـألون عـن فُـرَص فهـد ووالـده. كانـت جـود ووالدتهـا تتهامسـان. وفي الغرفـة المجـاورة، كانـت أم فهـد قـد فهمَـتْ، وكانـت تَعْـرف مـا يحـدث، لكنّهـا لم تقـل شـيئًا، ولا كلمـة. حـزنٌ، وكرامـة.

صمـتٌ نبيـل، لمخاطبـة نظـامٍ متوحـش، نظـامٍ يعـذّب الأمـل، ويَبـترُ الذاكـرة.

كتب أبو الجود في رسالته:

«ونحن نشهدُ على الكارثة، نبقى محكومين بالأمل».

نبقـى «محكومـين بالأمـل». لم نفقـد الأمـل في انتصـار الثـورة، عـلى الرغـم مـن خسـائرنا الفادحـة.

أَعْلـم أن مـا أكتبـه قـد يورطنـي أكـثر، بصفتـي حامـل اسـمٍ لطالمـا كان لعنـةً عـلى أولادي وعائلتـي. لكـنَّ وفـائي هـو لـكلّ المعتقلـين، ومنهـم: أخـي مـازن، وأخـي الدكتـور عبـد العزيـز، وصهـري المهنـدس صبحـي

الجاسـم ـ أبـو فهـد ـ، ونجلـه فهـد الجاسـم طالـب الهندسـة، ومحمـد الدخيـل ابـن أختـي الكـبرى. جميـع هـؤلاء معتقلـون منـذ عـام ٢٠١٣، ولا أخبـار عنهـم حتـى يومنـا هـذا، ولا نعـرف شـيئًا عـن مصيرهـم. أَلَا يزالـون عـلى قيـد الحيـاة؟ وهـل جـرت تصفيتهـم في مسـالخ الأسـد، مثـل آلاف المعتقلـين الآخريـن؟ ⁂

الفصل الخامس والثلاثون

يـوم كنـتُ في العـاشرة، قضيـتُ عطلتـي الصيفيّـة عنـد إحـدى أخواتي في دمشـق. كنـتُ أسـافر وحـدي في واحـدةٍ من تلـك الحافـلات القديمة الطـراز، التـي يتـدلى مـن سـقفها جهـاز تلفزيـون أبيـض وأسـود، نضـع فيـه أشرطـة فيديـو، وننقـر عـلى الجهـاز حتـى يعمـل. أحيانًـا يشـغّل لنـا السـائق أغانيـه المفضّلـة. بـين المقاعـد وسـط الحافلـة، ثلاجـة صغـيرة تَحفـظ المشروبـات بـاردةً نوعًـا مـا.

بـين الديـر ودمشـق مسـافة تتجـاوز الأربـع مئـة وأربعـين كيلومـترًا. يَركـب الحافلـة فلاحـون ومُرَبُّـو أغنـام، وجنـود يخلعـون أحذيتهـم فتفـوح منهـا رائحـة أقـدام كريهـة. روائـح بَـشَر وأغنـام.

ذكرياتي تضحكني اليوم. آهٍ من الذكريات. نعم. أَبتسم، أَبتسم.

في رحلتَـي الذهـاب والإيـاب، تتوقّـف الحافلـة في تَدمُـر. ننـزل لتنـاول الشـاي، فـآكلُ شـطيرة الجـبن التـي أعدَّتْهـا والـدتي في المنـزل، وأُراقـبُ الكبـار وهـم يُدخّنـون.

في الليـل، وعـلى الطرقـات الخاليـة، يقـود بعـض السـائقين بسرعـة، ويطـيرون طيرانًـا. يدخّنـون سـيجارة حشـيشٍ كي يحافظـوا عـلى هدوئهـم. للحشـيش رائحـة نفّـاذة. دخّنـتُ سـيجارتي الأولى وأنـا في

الخامسة عشرة. أغلبُ الركّاب نائمون.

وصلْـتُ إلى دمشـق، حيـث كان ينتظـرني أحـد أبنـاء عمومتـي، فقـادني إلى منـزل أختـي.

الفصل السادس والثلاثون

هناك حلقةٌ مفقودة.

حتـى آذار ٢٠١٢، أي قبـل اعتقـالي، سـارت الأمـور عـلى خـير مـا يـرام في ديـر الـزور مـع الثـوار. عندمـا أُخـلِي سـبيلي أصغيـتُ إلى كلّ مـا يُقـال، علّنـي أفهـم مـا الـذي حـدث. حلقـةٌ مفقـودة تشـغلني إلى اليـوم، وكأنَّ يـدًا خفيَّـة تسـبّبت بالخلـل.

ماذا حدث؟

سمعتُ إخوتي يكرّرون: «إنْ سُجنْتَ، فانْسَ الخارج».

مـن زمـان، قُبـض عـلى عبـد الـرزاق في قصّـة تتعلّـق بتجـارة الأغنـام ـ بحسـب مـا ادّعَـوا ـ . قَلِـق أبـو الجـود، فهـو يعـرف توتّـر مزاجـه: «عسـاه لا يغضـب، ولا يفكـر في العـالم الخارجـي». ذهَبْنـا مـع أخـي الآخـر عبـد العزيـز لزيارتـه في الرَّقّـة.

نصحـه عبـد العزيـز: «لا تُفكـر في الخـارج. أطفالـك وعائلتـك معنـا، ونحـن نعتنـي بهـم».

في الزنزانـة، حاولـتُ جهـدي أن أنـسى العـالم الخارجـي. بـدأتُ أُفكـر. كيـف لي أن أَحمـيَ أبنـاء أخـي؟ شـعرتُ بالمسـؤولية تجاههـم، إذ اعتُقلـوا معـي. كان فهـد صغـيرًا. كنـتُ أفكّـر بالفعـل. حاولـتُ أن

أنـسى العـالم الخارجـي، لـكي أشـعر بالقـوة. فقلـتُ لنفـسي: «أنـت قـويٌّ يـا أبـو الميـز. أنـتَ قـويّ». كنّـا نسـمع دويّ القصـف في بعـض الأحيـان، وعندمـا بلَغَنـي أن الجـسرَ المعلّـق دُمّـر انفطـر قلبـي. بَيْـد أنّنـي ظللْـتُ أُردِّد: «أنـت قـوي يـا أبـو الميـز، أنـت قـوي».

لكن، عندما خرَجْت... عندما خرَجْت.

هـي أيْـدٍ خفيّـة دَمّـرتِ البلـد. أيْـدٍ أسـديَّة عنصريَّـة طائفيَّـة متطرفـة. لقـد دعـم السـوريون الأسـد مـن أجـل امتيازاتٍ عـلى حسـاب حريتهم. ونحـن في منطقتنـا، في ريـف حلـب ودمشـق، كنـا نتمتَّـع بقـدرٍ مـن الحريـة في حياتنـا اليوميّـة، شريطـة ألَّا نَمـسَّ النظـام. اتفـق الأكـراد مـن جهـة، والمتطرفـون الإسـلاميون مـن جهـة أخـرى، عـلى تدمـير منطقـة ديـر الـزور؛ أمّـا إيـران، فقـد اجتلبـت لنـا الفـوضى.

أيـادٍ خفيَّـة سـاهمت في القبـض عـلى اثنـين مـن أفـراد عائلتـي: عبـد العزيـز، وأبـو فهـد. أودّ أن أعـرف لمـاذا اعتُقِـلا. حـين أُلقـي القبـض علينـا، كان الأسـد يُخـرج الجهاديـين مـن الزنازيـن. أطلقَهـم مـن أَسْرِهـم، وسـجن الثـوار.

لا أعـرفُ تفاصيـل اعتقـال عبـد العزيـز وأبـو فهـد، ولكنّنـي أشـكُّ في خيانـةٍ مـا. لقـد سـاعدا الجميـع، وعارضـا العمـل المسـلّح، ودعَـوَا إلى الحـوار. أمّـا أنـا، فوضعـي مختلـف، مَشْـكلجيٌّ، صحيـح؛ أمّـا هـما، فسُـجنا بسـبب آرائهـما. منـذ صغـري أُعـارض، وأبحـث عـن المشـاكل؛ أمّـا عبـد العزيـز وفهـد، فمُسـالمان، رفَضـا سـقوط سـوريا في الهاويـة.

نعـم، أنـا غاضـب، وفي قمّـة الحـزن. عبـد العزيـز صديـق الجميـع، ولا أقـول ذلـك لأنّـه أخـي. هـو صديـق الكبـار والصغـار، والنسـاء والرجـال. علمـتُ أنّـه في يـوم اعتقالـه، دخـلَ ملثمـون عيادتـه، وفي ١٢ شـباط ٢٠١٣، حـاصرَت الحـي مجموعـةٌ مـن السـيارات. اعتَقلـوا

حوالي ٧٠ شخصًا في نفس اليوم، ومن بينهم أبو فهد. نصبوا فخًّا لأطباء ومهندسين ومحامين ومثقفين، حيث وشى بهم شخصٌ من داخل النظام، واشٍ يَعرف تفاصيل المكان. سأحاول أن أعرف. وفي حال توافَرت المعلومات والتفاصيل الخاصة باعتقالهم لن أسكت، وسأُفرغ جَعبتي.

اليوم، لا نرى سوى الظواهر؛ أمّا البواطن، فلم يُكشف عنها. التفجيرات، والمجازر، والكيماوي، والصواريخ، كم من تفاصيل مغيّبة.

حين تتوقّف الحرب، سيأتي الناس لِيَروا ما حدث في سوريا، وسيكتشفون المستور بأمّ أعينهم. السجون مثلًا: سينكشف ما خفي فيها. كم من جرائم طُويتْ عن عمد.

❖ هل تَعْلم أن الباحثة الشابة أنصار شحود كتبت أطروحة حول العنف الطبي، وكشفَت عن واحدة من هذه الجرائم مع البروفيسور أوغور أوميت أنغور، من معهد أبحاث الحرب والمحرقة والإبادة الجماعية في أمستردام؟ لقد حصلا على وثيقة، هي عبارة عن فيلم صَوَّره، في إحدى ضواحي دمشق الخاضعة لسيطرة النظام، مرتكبو جريمة شنيعة، مجزرة، راح ضحيّتها مدنيّون لا ناقة لهم ولا جمل في المعارضة ولا في التمرّد.

في ١٦ نيسان ٢٠١٣، في منطقة التضامن، عند المدخل الجنوبي لدمشق القديمة، أَعدَم رجلان ما لا يقل عن ٤١ شخصًا.

نرى في الفيلم الضحايا، وهم يسيرون طائعين معصوبي الأعين ومقيَّدي الأيدي في شارع ضيق، قبل أن يجري إعدامُهم بالرصاص، وإلقاؤهم في حفرة جُهّزت للمناسبة. وأيضًا نرى آخرين يُطْلب

منهــم الركــض نحــو الحفــرة قبــل إطــلاق النــار عليهــم. القتلــة يبتســمون، ويشــعلون النــار في الجثــث.

أيّامـذاك، كنـتَ لا تـزالُ مسـجونًا في فـرع المخابـرات الجويـة، في مطـار المـزة العسـكري، عـلى مقربـة مـن هـذه المجـزرة.

بعـد حصولهـما عـلى الفيلـم، تمكَّنَـت أنصـار شـحود وأغـور أوميـت أونغـور مـن كشـف قتلـة ١٦ نيسـان ٢٠١٣: أحدهـما رئيـس الفـرع ٢٢٧ التابــع للمخابــرات العســكرية - وهــو الفــرع الــذي خَطــف واعتَقـل الآلاف مـن المدنيـين سرًّا -، والآخـر عسـكريّ في قـوات الدفـاع الوطنيـة. وبعـد أشـهر طويلـة مـن التحقيـق المموَّه، الـذي أجْرَتْـه أنصـار شـحّود، بعـد أن بدّلـت هويّتهـا بأنّهـا مواليـة للنظـام، حصلَـت عـلى اعترافـات القاتـل الأوّل. أمّـا الثـاني، فقـد قُتـل بعـد أن نُـشرت الفضيحـة.

أحـال الباحثـان هـذا الفيلـم، الـذي تَبلُـغ مدتـه سـبع دقائـق، وأيضًـا عـشرات مقاطـع الفيديـو والوثائـق الأخـرى عـن مذابـح راح ضحيتهـا مـا لا يقـل عـن ٢٨٨ مدنيًّـا، إلى المدّعـين العامِّـين في كلٍّ مـن هولنـدا وألمانيـا وفرنسـا.

في الواقـع، مَـن يـدري كـم عـددُ الجرائـم والمجـازر غـير المكتشـفة؟ في يـوم مـن الأيـام، سـيجدُ المتخصصـون بالعنـف الجماعـي اسـمًا «يليـق» بنظـام الأسـد، تـوأم الأنظمـة الشـمولية المجرمـة في ممارسـاتها. فقـد ألهمَتْـه ممارستُها، وقلّـد وحشـيّتها واسـتبدادها.

دُرِّبَــت أجهــزة المخابــرات الســوريّة عــلى أيــدي ضبــاطٍ ســوفييت؛ وأجهـزةُ أمـن الدولـة تتبـع أسـاليب ألمانيـا الشرقيـة في السـتينيات. ألويـس برونـر نفسـه، اليـد اليمنـى السـابق لِأَدولـف أيخـمان، مهندس ترحيــل اليهــود وإبادتهــم، لجــأ إلى ســوريا، ومــات في دمشــق عــام

٢٠٠١. حين تَبوّأ حافظ الأسد السلطة، تَواصَل مع برونر، وطلب مشورته في تنظيم جهاز قمعي ذي كفاءة نادرة.

في سوريا ضحايا قُتلوا رميًا بالرصاص، ودُفنوا في حفرة، كما حدث أيّام الهولوكوست. ضحايا مجرّدون من الإنسانية، يموتون ببطءٍ في زنازين مكتظة، شهِدَتْ كما الغولاغ السوفياتي «استقالةَ الإنسانية».

أوغور أوميت أنغور، وجابر بكر ـ الباحث والسجين السياسي السوري السابق ـ ، نشَرَا في أيّار ٢٠١٢ كتابًا باللغة الهولندية عنوانه «الغولاغ السوري»: سجون الأسد «١٩٧٠-٢٠٠٠». الكتاب لم يُترجَم حتى الآن.

أمّا المفكر والكاتب السوري ياسين الحاج صالح، الذي وصف نظام الأسد بالنظام السلالي، فتَحدّث عن الإبادة الجماعية. وقد درَس المُعارض السياسي، الذي اعتُقل مدة ستة عشر عامًا في ظل نظام حافظ الأسد في عدد من المقالات، كيف تمكّنت هذه العائلة باستنادها إلى الطائفيَّة والمناطقيَّة مِن فتح أبواب الإبادة الجماعية على مصراعيها. ❖

الفصل السابع والثلاثون

أنا منشطرٌ: جزء منّي هناك، وجزء منّي هنا. أحاول الربط بين الضِّفّتين، وأن أجمع بين الهُنا والهُناك في رأسي. أحاول. يعترضني خطٌّ فاصل. سوء تفاهم على الأرجح.
قد يَشعرُ اليهود بهذه المعاناة. يقتربون حين أبدأ بالكلام. يعانون

مثـلي. يعرفـون. أجدادهـم عاشـوا مـا نعيشـه. حـين تُثقـلُ الهمـوم رأسي أَعصِبُـه، وأحـاول الجمـع بـين الضِّفتـين.

الفصل الثامن والثلاثون

لم يُلقِ أحدٌ عليَّ التحيّة حين خرَجْت.
أنا كلبٌ في عُرْفهم!

أدليـتُ بشـهادتي الأولى عـن السـجن أمـام مركـز توثيـق الانتهـاكات، وهـو مركـز أسَّسَـته رزان زيتونـة. كـما طلبـتُ مـن بسـام الأحمـد ألّا ينشرهـا حتـى أغـادر دمشـق. في ذلـك الوقـت، لم يجـرُؤ سـوى عـدد قليـل مـن الناجـين على الحديـث عـن الاعتقـال. غـادرتُ إلى تركيـا. أبحـرتُ عـلى مـتن قـارب صغـير. لم يسـلِّم عـليَّ أحـد، لا في تركيـا ولا في أيّ مـكان آخـر. وجـدتُ نفـسي طـوال شـهرين مـشرّدًا في الجبـال والبرِّيـة. ضِعـتُ في مخيَّـمات اللاجئـين، ووصلـت إلى هولنـدا. لم يتَّصـل بي أحـد للسـلام.

لم يرحـب بي أحـد حـين أخـذتُ أشـهد بجدّيـة وإخـلاص. كل هـذه التضحيـات. بعضهـم حـاول إيـذائي لأنّنـي أرفـض الكـذب، وهـم لا يريـدون سـماع الحقيقـة. لِـمَ لا نَجمـعُ صفـوةَ النـاس الذيـن يدافعـون عـن الثـورة، سـواءٌ علمانيـين أو إسـلاميين؟ نعـم، لنجتمـع ونتّفـق، ونُقـدّمُ رؤيـة واضحـة، لـكي نتعـاون. لكنّهم غير مسـتعدّين. انقسـامات السـوريين مَهُولـة، والأوّل يكيـلُ للثـاني. لمـاذا؟ لأنّهـم يفتقـدون النضج والوعـي السـياسيّ.

الأنقيـاء هــم مَــن بــدأوا الثــورة، وهــم يَعْرفــون أنّ حياتهم عــلى المِحَكّ. كنّـا نتوضـأ قبـل النـزول إلى المظاهرات، متحسّـبين لرصـاص القنّاص.

ثمّ خاب أملي. خاب أملي. خاب أملي.

العدالـة. لم يكـن لنـا مَطلـبٌ آخـر إلّاهـا. لكـنّ الآخريـن اسـتغلّوا طيبة قلوبنـا، وغـرّروا بنا.

لا أريــد شــيئًا، لا أريــد شــيئًا مــن الحيــاة. ودِدْتُ المــوتَ في الســجن كي لا أكتشــف مــا حــدث في الخــارج مــن فظائــع، بعــد أن عشــتُ مــا عشــتُه في الســجن. مــا أقبــح دماءنــا وأحقرهــا.

دمَّرونــا. نحــن فضيحتهــم. لا أتاجــر بــدم عائلتــي، ولــن أســامح أبــدًا أولئــك الذيــن ســفكوا دمــاء أصدقــائي.

الوقت معنا، والأيّام بيننا. هي مسألة ضمير وأخلاق.

عارٌ، عارٌ على الحكومات. الناسُ أبرياء؛ أمّا الحكومات، فلا.

عــارٌ عــلى حكومــات تعمــل لمصالحهــا عــلى حســاب أهلنــا وشــعبنا. الضمــير الأوروبي نائــم، والضمــير الأمــيركي نائــم. الأميركيــون لا يتحمَّلــون مشــكلة اللجــوء، مثــل الأوروبيــين. إنّهــم بعيــدون، ويلعبــون مــع تركيــا والعــرب. فكيــف تريدهــم أن يتخــذوا موقفًــا أخلاقيًّــا؟ الجميــع يلعبــون.

تتــذرَّع الحكومــات بالحريــة والديمقراطيــة، لكنّهــا تُواصــل الحديــث إلى القتلــة والمجرمــين. كــم مــرّة اســتعملوا الفيتــو في الأمــم المتحــدة لإنقــاذ نظام دمشــق.

لقــد فقدنــا كلّ الأمــل. الجميــع يَعْرفــون هــذه القصــة. لــو أراد القــادة أن يفعلــوا شــيئًا، لــكان في إمكانهــم التحــرّك مــن أجــل تخفيــف

العبء عن النساء والأطفال والمُسِنِّين.

تَظاهرْنا من أجل حقوقنا المعنويّة، لا الماديّة. فمن جهتي كانت أموري على ما يرام: عمَلٌ، وسيّارةٌ، ومُرتّب. ترَفٌ، إن شئتِ. نزلتُ إلى الشارع من أجل حقوق السوريين، وفي النهاية جرى التخلي عنّا. فقدتُ كلَّ شيء، عائلتي، وبلدي. شهادتي كرامتي، ولستُ في حاجةٍ إلى أحد.

بِودّي العودة إلى سوريا كي أُبَلسم النفوس الدامية، بِودّي العودة لمساعدة العائلات التي فقدَت أطفالها في الحرب، والباحثة عن أحبابها في السجون. بِودّي بناء مدارس للأجيال الجديدة، كي ننبذ التطرّف. فالتطرف يولد من رحم الظلم.

بعد عام من التظاهر، زُجَّ بي في السجن. لو لم أتحلّ بضمير حيّ ـ لِنَقُل بحدّ أدنى من الضمير ـ لَمَا خرجتُ سالمًا. فقد أرسلوني إلى عالمٍ سفليٍّ من الجرائم والمجرمين. من السهولة أن يُدمَّر مَلاك. أرسَلوني كي أُعاقَب في الوقوف والجلوس والذهاب إلى المرحاض، وكي أرى رجالًا يُهانون ويموتون أمامي. رأيتُ أطفالًا يموتون. نموت، نُقتل. مَن يحتمل هذا التوحّش؟ أغلبُ اللاجئين السوريين مكتئبون. فكم من لاجِئٍ منهم لا يخرج من بيته.

أنا من منطقة قُصفت بالأسلحة الكيميائية. لقد خرجْتُ من السجن مثقوبًا. حالتي يُرثَى لها. ركبتُ البحر. قدمي مثقوبة. لم أقل شيئا. جسدي مدمّر. لم أنظر إلى الخلف. ذكرياتي ابتُلعت.

نظرت إلى الأمام. عائلتي مشتّتة. لم يُسلّم عليّ أحد. لقد كنتُ غائبًا عن نفسي وعن الآخرين. بعد ذلك، جلستُ في مركز

اللاجئين، وفي بيتي.

عندما تصلُ إلى بلدٍ أنتَ غريب فيه، ستُواجه جُملَةً مِنَ المصاعب، وسوف تتغلّب عليها. لحسن الحظ، أنّني ـ وفي سنٍّ مبكرة ـ عمِلتُ وراكمتُ تجاربَ ساعدَتني كي أتأقلم. جلستُ أيامًا طويلة أُفكّر. غُصتُ في ماضِيَّ، وتأمّلتُ ما حدث لي، قيّمتُ وُجودي. أنا اليوم في الثامنة والثلاثين.

إنْ شاهدتُ عبر التلفاز موضوعًا عن المعتقلين، يقْشَعرّ بدني، وترتفع حرارتي. صدمَني أنّنا تُركنا لمصيرنا، وللعذاب، وللهجرة. نحن اليوم في الشتات.

شفرةٌ باردة تُقطِّع معدتي. أرى رجلًا أو حيوانًا يرّش مِلحًا في داخلي.

عذابي يبدأ من الرأس، ثمّ ينحدرُ إلى أسفل الكتف، ومن القلب يسكن في المعدة.

كيف لي أن أصف هذا الألم؟ مَن يستطيع أن يفهم؟ يتحدَّث، لا، لا، لماذا؟ همْم، لا.

أُقسم أنّني سأعود غدًا، إنْ فُتحَت المعابر. لكنّ الحدود مغلقة. أريد لهذا العذاب أن ينتهي. بِودّي لو أضع حدًّا لحياتي، أن أشنق نفسي في غرفة في مكانٍ ما. اللعنة على هذه الحياة.

❖ أدخَلْنا الدجاج في القنّ، ووضعنا حطبًا في المدفأة. أعرف أنّ منظر تَوهُّج النار وصَوت طقطقة الجمر، يُذكّرانك بحفلات الشواء والتخييم في الصحراء القريبة من نهر الفرات. لكن،

لِصَوتـك القـادم الليلـة مـن الضفـة الأخـرى مـن جهـة المـوت، صـدًى شـعرتُ بـه، يناديـك ويـكادُ يبتلعـك. يبـدو أنّـك في بعـض الأحيـان لسـتَ معـي.

قبْـل أسـبوع، اتصلَـت بـك أختـُك الكـبرى، وقالـت لـكَ: إنّ العـودة إلى المنـزل عندمـا يتحسـن الوضـع بعـد ثلاثـة أشـهر، لربّمـا تكُـون ممكنـة. هـل قالـت لـك ذلـك حقًّـا؟ هـل حـدّدَتْ ثلاثـة أشـهر؟

وأضافـت: «لا تُفكـر كثـيرًا. اعـتَنِ بنفسـك، وانتبـه لصحتـك». كـم مـن مـرّة قـال لـك أبـو الجـود: «اهـدأ، جِـدْ مجموعـةً مـن الأصدقـاء»؟

إخوتـُك وأخواتـك، أبنـاء إخوتـك وبناتُهـم قَلِقُـون بشـأنك. الـكلّ قَلِـقٌ بشـأنك. خـدَّاك يغُـوران أكـثر وأكـثر. نظراتـك تـزداد قتامـة. اعتَدْنـا أن نـرى نظراتـك تغـور، فجـأة تَغيـب حـين تتوقّـف فجـأة عـن الـكلام، لتبتعـد وتسـير وحـدك في طريـق لا يعرفـه أحـد سـواك، كي تضـمّ مَـن يَعْلـم إلى غيـبٍ مـا. نظراتـك اليـوم نظـرات ضيـاع، لا نظـرات ثاقبـة، وأكاد أقـول عنيفـة، تنـمّ عـلى بُغـضٍ سـينفجر. صِرتُ أخـاف مـن نظراتـك.

أضحت كتاباتك على صفحتك الفيسبوكيّة غاضبة مهينة.

صرتَ مقتنعًـا بـأنّ السـقالات التـي نصبـت عـلى جـدران مسـكنك في هيلغـوم، قـد دُسّـت فيهـا ميكروفونـات لمراقبتـك.

أيـن أنـت أيّهـا الشـاب الآتي مـن ديـر الـزور؟ مـاذا فعلـوا بـك؟ مـاذا فعلنـا بـك؟ أصِرْتَ دميـةً يحرّكها الصحفيون والناشـطون والسياسـيون؟ مـاذا فعلنـا بـكَ؟ مـاذا فعلنـا؟

عـن أربعـة وسـبعين عامًـا، أعمَـى وأصـمًّا ومُعدمًـا، في مصحّـة للأمراض

النفسـيّة، تُـوفي فـارلام شـالاموف عـام ١٩٨٢. تَذكُـر لوبـا يورجنسـون أن: «الذيــن التقَــوا مصادفــةً شــالاموف في أحــد الشــوارع وهــو في أواخـر حياتـه، يتذكـرون رجـلًا نحيـلًا يتحـرّك بعصبيّـة، وكأنّـه آليـة مؤلّفـة مـن أجـزاءٍ موصولـة بُـذِلَ لربطهـا جهـدٌ خـارق».

جسـدٌ مفـكّك. هـذه هـي الصـورة التـي سـتبقى لنـا عنـك يـا مـازن. رأوك تمــشي في شــارع برلينــي، في شــباط ٢٠٢٠. عندمــا خاطبــك لاجـئٌ سـوريٌّ ردَدْتَ عليـه بجمـلٍ مفكّكـة مضطربـة. قـام أحدهـم بتصويـر المشـهد. جسـدٌ هزيـلٌ منكسر، تقـف عـلى الرصيـف، سـاقاك الطويلتــان نحيفتــان للغايــة، ويــداك تتحــركان في كل الاتجاهــات ـ وهــذا مــا فعلْتَــه أمامنــا باســتمرار ـ كـما لــو أنّــك تــؤدّي رقصــة تراجيديّـة. أنـت اليـوم أكـثر إثـارًا للقلـق، مـن اليـوم الـذي عـدتَ فيـه إلى العـالم الحـر، وأقـلُّ نجـاةً مـن اليـوم الـذي تحـرّرتَ فيـه.

عــلى هــذا الرصيــف في برلــين، نســمعك تقــول، مجــدّدًا، ونســمعك تُقســم إنّــك عائــد إلى ســوريا المحــرّرة مــن النظــام يــا مــازن. نعــم ســتعود: «ســنضحّي بالــدم مــن أجــل بلدنــا. لا بــد مــن العــودة [...] فاللاجئــون هنــا يتاجــرون بدمــاء الســوريين».

تَقـتربُ مــن مُحــاورك، مُحــاولًا إقناعــه، ثــمّ تتراجــع، ثــمّ تعــود، ثــمّ تغـادر مـرة أخـرى. لعلّـك تؤجّـل هـذا الرحيـل، وتختفـي من الشاشـة.

في كتابهــا «معرفــة عديمــة الفائــدة»، تتلــو شــارلوت دَلبــو هــذه «الصــلاة» للأحيــاء، لــكي نغفــر لهــم وُجودهــم عــلى قيدهــا:

«يا أيّها المارُّ
المهندم بكلّ عضلاته
هندامٌ يليق بكَ

لا يليق بكَ
يليق بكَ تقريبًا
[...]
كيف لكَ أن تسامح نفسك لأنّك على قيد الحياة؟
يا أيّها المارُّ
المهندم بكل عضلاته
كيف تسامِحُ نفسَكَ
وقد ماتوا جميعًا؟
تمرّ وتشرب كأسًا على شُرفَةِ المقهى
أنت سعيد لأنّها تحبك
[...]
أرجوك
تَصرَّف
[...]
من الغباء
في النهاية
أن يموت كلّ من مات
وأنت تعيش
حياتك متبطِّلًا
وبعدُ
مِنَ المستَحْسَن ألّا تُصدّق
هذه القصص
قصص الأطياف
المؤرّقة
لو صدّقت
الأطياف
أطياف العائدين
فكيف لكَ أن تشرح كيف حدث ذلك؟». ❖

الفصل التاسع والثلاثون

❖ في شباط ٢٠٢٠، في نهاية اليوم، كنتُ أنتظر طائرتي في مطار برلين. وصلتني رسالةٌ صوتية من تينا فكس (صديقة صحفية ألمانية): «هل وصلكِ الخبر؟ يبدو أن مازنًا قد عاد إلى دمشق». شبكات التواصل تتناقل الخبر بذعرٍ، أو انزعاجٍ، أو غضبٍ، أو شكّ. «مازن الحُمادة في دمشق. مازن في سوريا». عشراتُ الرسائل والعواجلِ تصِلُني منذ أيام عنك، ضدَّكَ في بعض الأحيان.

عُدتَ إذًا إلى هناك؟ سلَّمتَ رأسك إلى الجلّاد؟

لا كلام ممكن. لذتُ بالصمت.
أنت مفقودٌ، مغيّبٌ. هذا واقع الأمر. أشعرُ بالدُّوار، وبالفراغ، وبشللٍ لم أعرفه من قبل. هذا الشعور الرهيب بأنّ الأمر... لم يفاجئني. سارة أفشار، التي شاركتَ في فيلمها الوثائقي «قضيّةُ مغيَّبِي سوريا: الأسدُ متّهمًا»، مُحَطَّمةٌ أيضًا. أجرَتْ كلَّ الاتّصالات الممكنة لمعرفة ما حدث، ولمحاولة العثور عليك ومساعدتك. عبثًا.

بعد أيّامٍ، تَشاركَ أفرادُ عائلتك وأصدقاؤك والصحفيون السوريون والأجانب ما جمعوه من معلومات. في شباط ٢٠٢١، بعد عام من اختفائك، حاولتُ ـ استنادًا إلى ما سمعتُ ـ سرْدَ تسلسُلِ أيّامك وساعاتك الأخيرة في «عالمنا». هذا ما توصّلتُ إليه: في منتصف شباط ٢٠٢٠، غادرتَ منزلَ شقيقتك التي تعيش في نفس القرية الهولندية دون أن تذكر وجهتك. سكنْتَ معها بعد أن طُردتَ من شقتك، لأنك قصّرتَ في دفع الإيجار عدة أشهر متتالية. ثمّ قصدتَ أحد أبناء أخيك اللاجئ في ألمانيا، وأقمتَ عنده. مِن المحتمَل

أنّ جماعـة النظـام تَواصَلَـتْ معـك هنـاك، أو أنّـك سـعيتَ للتواصـل معهـم. بمـاذا وعـدوك؟ ومـاذا سـوّلَت لـكَ نفسـك؟

في كلّ الأحـوال، صبـاح ٢٢ شـباط، رآكَ لاجـئٌ سـوري في مطـار شـونيفيلد في برلـين، وأنـتَ تسـتعدّ لركـوب طائـرة متّجهـة إلى بـيروت، ثـمّ أخـرى إلى دمشـق. وجهـك الهزيـل يعرفـه الجميـع، إذ أضحيـتَ الصـوت الصـارخ في الـبراري، والصـوت المثـير للإعجـاب.

دنـا منـك الرجـل، وحـاول أن يسـألك عـن سـبب رحلتـك العجيبـة، بَيْـد أنّـك تهرّبـتَ، ولم تُجِـب. هـل رافقَتْـكَ ـ كـما شـاع ـ سـيّدةٌ سـورية مواليـة للنظـام، تعمـل في السـفارة السـورية في ألمانيـا؟

الرجـلُ الـذي دنـا منـكَ أبلـغ الناشـطة السـوريّة ميسـون بيرقـدار بسـفرك، فتمكّنَـتْ عـبْر شـبكة علاقاتهـا مـن أن تتواصـل معـك عندمـا وصلْـتَ إلى مطـار بـيروت. وقـد قامـت بتسـجيل مـا دار بينكـما مـن حـوار، نـشرتْ صحيفـة الواشـنطن بوسـت جـزءًا منـه عـلى موقعهـا. قلـتَ لهـا إنـك ذهبـتَ إلى أمـيركا وحكيـتَ لهـم القصـة كاملـة، وإنـك ذهبـتَ إلى ألمانيـا وأخبرتَهـم القصـة كاملـة، وإنـك ذهبـتَ إلى هولنـدا وفرنسـا حتـى إيطاليـا، وإن النـاس لم يصغـوا. العـالم كلـه لم يسـمع. وقلـتَ: «سـأعود علّنـي أجـدُ حـلًّا للمعتقلـين [...] أعْـرِفُ ماذا سـأفعل، لا تخـافي [...] النظـام، النظـام. النظـام لا يختـصره بشـار الأسـد [...] بـإذن اللـه سـأصِلُ إلى دمشـق [...] سـأضحّي بنفـسي لوضـع حـدٍّ لحـمّام الـدم. هـذا كلّ مـا في الأمـر».

حـين وصلـتَ إلى مطـار دمشـق، تواصلـتَ مـع نتـالي لاريسـون، مديـرة البرنامـج الإنسـاني في جمعيّـة «سـيريان إمارجنـسي تاسـك فـورس»، التـي يديرهـا معـزّ مصطفـى، الصديـق الـذي نظّـم لـكَ رحلتـك إلى الولايـات المتّحـدة.

قبـل منتصـف الليـل بقليـل، اتّصـل بـك ابـن أخيـك مـن ألمانيـا. محادثتكـما قصـيرة، شـعر بـأنّ صوتـك يرتجـف، وكأنّ هنـاك مَـنْ يقف خلفـك ويلقّنـك الإجابـات همسًـا. هـل أدرَك في تلـك اللحظـة أنـك سِرتَ برجليـك ورميـتَ نفسـك كي تلتهمـك الذئـاب، وأنّـك سـتُعتقل مـن جديـد فَـوْر مُـرورك عـلى أمـن الجـوازات؟ نصحـك ابـن أخيـك بعـدم مغـادرة المطـار، ونصحـك بحجـز تذكـرة لرحلـة إلى السـودان ليـلًا. «صَلُّـوا مـن أجـلي» هـي كلماتـك الأخـيرة.

في ٢٢ شـباط، بعـد منتصـف الليـل، تَوقّـف رقمـك الواتسـاب الهولندي عـن العمـل، ولم يشـتغل بعـد ذلك.

مـن جهتـه، فكّـر الفنـان والأسـتاذ مـارك نيلسـون، المقيـم في إلينـوي، والـذي التقيتَـه خـلال إحـدى زياراتـك للولايـات المتحـدة، في أن يوثّـق ويحتفـظ بـكلّ مـا نشرْتَـه عـبر حسـاباتك عـلى إنسـتغرام وتويـتر وفيسـبوك، وذلـك قبـل أن يغلقهـا النظـام في لفتـةٍ هـي الشـهادة بعينهـا. ومنـذ ذلـك الحـين، وهـو يعيدُ رسـم صـورك بالفحـم أو الألوان المائيـة. يَرسـم ويَعُـدُّ أيّـام اختفائـك، في عمَـلٍ يقـاوم بـه النسـيان.

بعـد أشـهر، تناهَـى إليّ أن معتقـلًا في فـرع المخابـرات الجويّـة قـد أُفـرِج عنـه، وأنّـه شـاهدك في إحـدى زنازينهـم، في شـباط ٢٠٢٠. عـدتَ إلى الفــرع حيــث احتُجــزتَ بــين آذار ٢٠١٢ وحزيــران ٢٠١٣، قبــل نقلِـك إلى سـجن عـدرا. أخـبَرَني أنّـك تعرضْـتَ للتعذيـب مـرة أخـرى. هــذه المـرة، حاولـوا إرغامـك عـلى الإدلاء بشـهادة تلفزيونيّـة تَزعـم فيهـا أن شـهاداتك عــن التعذيـب في كلّ العواصـم الغربيـة، كانـت كذبًـا محضًـا.

هـذا آخـر مـا نُمـي إليّ. وبعـد ذلـك لا أخبـار بتاتًـا. عائلتـك فقـدَتِ الاتّصـال بـكَ.

أنتَ مختفٍ. مفقود.

لمـاذا عـدتَ إلى هنـاك مـرة أخـرى؟ لا أحـد يعـرف. ولنفـترض أنّنـا عرفنـا. مـاذا سـيتغيّر؟ لقـد «اسـتردّك» النظـام، وهـو قـادرٌ كـما بِتنـا نعـرف. لقـد نبّهْتَنـا.

هذه العودة عودتك. أفلم نُجرّدك بما فيه الكفاية؟ ألم؟

يـوم ١١ نيسـان ١٩٨٧، انتحـر بريمـو ليفـي، مؤلّـف كتـبٍ أساسـيّة عـن المحرقـة، أشـهرُها «أهـذا هـو الإنسـان»، عـن تجربتـه في معتقـل أوشـفيتز، و«المنبـوذون»، و«الناجـون». هُـوَ، وجـان أمـيري، وبـول تسـيلان ، بعـد أن شـاهدوا فظاعـة «الحـلّ النهـائي»، اختـاروا موتهـم.

في ختام مؤلَّفِه «الهدنة»، الصادر عام ١٩٦٢، كتَبَ ليفي:

«[...] بين الحين والحين، بوتيرة متقاربة، يزورني حُلمٌ مرعب.

هـو حُلـمٌ داخـلَ حُلـمٍ، تختلـفُ تفاصيلـه في كلّ مـرّة. أمّـا جوهـره، فواحـدٌ. أراني جالسًـا حـول مائـدةٍ مـع عائلتـي أو أصدقـائي، في العمـل أو في منطقــة ريفيّـة. الجــوّ هــادئٌ ومريـح، لا تَوتُّـر ولا ألم. لكنّنــي أشـعر بقلـقٍ خفيـفٍ وعميـقٍ، وكأنّنــي مُهـدَّد. ثـمّ ينهـارُ كلّ شيء: المـكان، والنـاس. ويسـتحيل قلقـي قويًّـا وواضحًـا، ثـمّ يعـمّ الخـراب. أجِـدُني وسـط عـدمٍ رمـاديٍّ غامـض. وفجـأة أُدرك المعنـى، المعنـى الـذي لم يغـب عنّـي مـرّة: لقـد عـدتُ إلى المعتقـل. عـدتُ إلى الحقيقـة الوحيـدة. أمّـا العائلـة، والطبيعـة الربيعيّـة والمنـزل، فإجـازاتٌ قصـيرة، وهْـمٌ مـن نسـج الحـواس أو لرُبَّـا حُلْـمٌ». ❖

الفصل الأربعون

العودة إلى مرابعي، هذا مطلبي.
لقد اكتشفتُ العالم. اكتشفتُ العالم وأكاذيبه. رأيت...

حين أكون وحدي، أُفكّر في كلّ ما حدث من مصائب ومآسٍ. ألجأ إلى ذاكرتي، فأرتاح إلى اختلائي بها. أريد أن أعود إلى سوريا، إلى عائلتي، كي أعيش.

وحيدًا، أعود إليها بالفكر. أعودُ إلى طبيعتها، وإلى نهر الفرات، وإلى الصحراء. إلى الفرن على سطح دارنا، وإلى رائحة الخبز والشواء.

أتخيّلُني متنزِّهًا قرب النهر، وساهرًا على ضفافه مع إخوتي، وجالسًا في الصحراء. نعم، أريد أن أعود إلى مرابعي. أن أعود، وأمشي في أحضان الطبيعة الغنّاء.

الهوامـــش

▬ ص ٩: غارانـس لـوكان، «وثائـق قيـصر» ـ صـور مـن قلـب آلـة المـوت السـوريّة، دار سـتوك، باريـس، ٢٠١٥. صـدر الكتـاب بالعربيّـة عـن دار ميسـلون للثقافـة والترجمـة والنـشر، إسـطنبول، ٢٠١٨.

▬ ص ٢٨: ذاكـرة الثـورة السـوريّة ـ مـن يوميّـات الثـورة السـوريّة ـ بـشرٌ وحجـر ٢٠١١ – ٢٠١٥، النـصّ الفرنـسي: ناتـالي بونتـان، منشـورات الإفبـو، بـيروت، ٢٠١٨.

▬ ص ٧٤: جـان أمـيري، «مـا وراء الجريمـة والعقـاب» ـ بحـثٌ في تخطّـي مـا يسـتحيل تخطّيـه، ترجمـة فرانسـواز ويلـمارت، دار آكـت سـود، أرل، ١٩٩٥.

▬ ص ٨٣ و٨٤: شـارلوت دَلبـو، «لـن يعـود أحـد ـ مـا بعد أوشـفيتز»، الجـزء الأوّل، دار مينـوي، باريـس، ١٩٧٠ | الذاكـرة والأيّـام»، دار بـارغ الدوليّة، ١٩٨٥.

▬ ص ١٠١: يـورغ سـامبران، «الكتابـة أو الحيـاة»، دار غاليـمار، باريـس، ١٩٩٤.

▬ ص ١٤٤: يارا صبري، ممثّلة سوريّة شاركت في الثورة.

▬ ص ١٥١ و١٥٢: فـارلام شـالاموف، «دروب»، قصيـدة «ذرّ العيون»، ترجمـة لوبـا جورغنسـون، دار فرديه، باريـس، ٢٠٢٢.

Et avec horreur | J'ai compris que j'étais invisible a quiconque | Qu'il fallait semer des yeux | Que le semeur d'yeux devait venir

«دفاتـر كوليـما وقصائـد أخـرى»، ترجمـة كريسـتيان مـوز، دار موريس نادو، باريــس ٢٠١٦.

Je n'obtiendrai pas la paix | Ni dans le rêve ni dans la réalité | Parce que c'est ce hurlement | Ce hurlement de loup qui m'aide a tenir.

«ذكريـات كوليـما»، ترجمـة آن ـ مـاري تاتسـيس ـ بوتـون، دار فرديـه، باريـس ٢٠٢٢.

▬ ص ١٦٠: جوليـوس مارغـولان، «رحلـة إلى بـلاد زو ـ كا»، ترجمـة نينـا بربروفـا ومينـا جورنـو، دار لـو بـروي دو تـان، باريـس، ٢٠١٠.

▬ ص ١٧٢: موقع ياسين الحاج صالح .www.yassinhs.com

▬ ص ١٧٣: رزان زيتونـة. محاميـة سـوريّة أسّسـت قاعـدة بيانـات تسـجّل انتهـاكات النظـام لحقـوق الإنسـان. اختطفـت يـوم التاسـع مـن كانـون الأوّل عـام ٢٠١٣ هـي وسـميرة الخليـل ووائـل حـمادة ولم يعـودوا.

بسّـام الأحمـد هـو المديـر التنفيـذي لمنظّمـة سـوريّون مـن أجـل الحقيقـة والعدالـة لتوثيـق انتهـاكات حقـوق الإنسـان ومـن أجـل العدالـة والتغيـير.

▬ ص ١٧٨: شـارلوت دَلبـو. «مـا الجـدوى؟ أوشـفيتز وبعـد»، الجـزء الثـاني، قصيـدة: صـلاة غفـران لأحيـاء مـا زالـوا عـلى قيدهـا، دار مينـوي، باريـس، ١٩٧٠.

▬ ص ١٨٣: بريمو ليفي، «الهدنة»، كتاب الجيب، ٢٠٠٣.

جزيل الشكر

لفوزي الحمادة أبو الجود شقيق مازن الأكبر، الذي أذن لي ـ في غياب مازن ـ نشرَ هذا الكتاب، الذي سَمح لي بأن أفهمك بشكل أفضل. أُقدّم احترامي وامتناني لكلّ أفراد عائلة بسيس الحمادة، ولمن هو صلة الوصل بيني وبينهم، والراغب في البقاء في الظلّ.

امرأتان أَدِين لهما بحمل الكتاب معي: عائشة أرناؤوط، الصديقة المخلصة الكارهة للظهور، والمترجمة الصبورة التي لا استغناء عنها من بداية المشروع إلى ختامه؛ وميلي تشين، محرّرتي، التي دعمت هذا العمل بلا تردّد. فنظْرَتُها ودِقّتُها وثقتها عواملُ بدّدَت وطأة قلقي .

بِودّي شكر هيلينا ديليا، التي ما كفّت منذ سنوات تستمع إلى شكوكي، وترشدني وتسدّد خطاي، وأنا أُحدّثها عن العنف السوري.

محظوظة أنا بإمانويل كاركاسون. صبَرَ عليّ، ثمّ وافق على أن ننطلق بعد انتظار، كي نُنجز الكتاب بسرعة. فشكرًا له.

أحطْتُ نفسي دومًا بلوحات نجاح البقاعي، خلال أحاديثي إليه وإلى مَن أعرِفُ مِن سوريِّين. إحدى لوحاته زَيَّنَتْ غلاف الكتاب الفرنسي.

أخيرًا، أَودُّ أن أُجدّد شكري الموصول لباتريك أنجفين: حضورك بلا ريب أساسيّ. وشكرًا للون أنجفين، وليلي أنجفين. معكما أُبحرُ إلى عالم آخر تُشْرِعان لي أبوابه.

لم يَعُد معنا

حينَ تيقّنتْ غارانس لوكان أنّ مازن الحُمادة، الذي أمضتْ معه ساعاتٍ طويلةً تصغي فيها إلى قصّة سجنه وتعذيبه ولجوئهِ لن يعود، قرّرتْ إنشاء كلامه كتابًا.

خانته عدالة الغرب، ففضّل العودة إلى سوريا بلدِ المطامير والإهانةِ وهو يحلُمُ بدير الزور والفرات وبدولةٍ عادلةٍ لا تفترسُ أبناءَها. وصلَ إلى مطار دمشق واختفى. صحيحٌ أنّ التِّنّينَ لا يرتوي من دماء أبنائهِ، بيدَ أنَّ شقائقَ النُّعمانِ عنيدةٌ كالرَّبيع.

غارانس لوكان

صحافيةٌ استقصائيَّةٌ فَرَنسيَّةٌ، كاتبةٌ ومخرجة. عاشتْ في العالم العربي وكتبتْ عن مآسيه.

لها:

ـ وثائق قيصر ـ صورٌ من قلب آلةِ الموت السوريّة، دار ستوك، ٢٠١٥. مترجم إلى الإنكليزيّة والألمانيّة والعربيّة والنروجيّة.

ـ أرواح سوريا المفقودة مع ستيفان مالتير، فيلم وثائقي، ٢٠٢٢.

978-9953-11-258-9

